القائمة الطويلة للبوكر العربية 2020

محمد عيسى المؤدب

حمام الذهب

رواية

مسكلياني

حمّام الذّهب

محمد عيسى المؤدب





الكاتب: **محمّد عيسى المؤدّب**

عنوان الكتاب: **حمّام الذهب**

خط الغلاف: **الفنّان سمير قويعة**

تنضيد داخلي: **سعيد البقاعي**

تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

ر.د.م.ك: **978-9938-24-081-8**

الطبعة الأولى: 2019



Ottawa, ON. Canada
info@masaapublishing.com
www.masaapublishing.com



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

الإهداء

إلى أبي ، إلى روحه التي ترافقني .

إلى الذّاكرة الوطنيّة .

شكر خاصّ

إلى موظّفي دار بن عاشور (مكتبة مدينة تونس).

إلى المؤرّخ والباحث عبد الستّار عمامو.

إلى السيّدة مونيك حيّون التي أطلعتني على أجواء الحياة اليوميّة عند الأقليّة اليهوديّة في تونس.

(1)

شارع الحبيب بورقيبة

1 ديسمبر 2010

غادرتُ صبّاط الدّزيري وسرتُ في نهج روما متّجهًا كالعادة إلى مقهى باريس، وعندما أدركتُ نصب ابن خلدون وقف أمامي جوهر، ماسح الأحذية. حيّرني وقوفه المباغت، ولا أعتقد أنّ الأمر كان مجرّد صدفة، وجهه متعرّق وأنفاسه مخبّلة. حصل لي هذا الانطباع حينما اقتحمني، وأنا أكره الاقتحام لأنّه يفقدني التّركيز تمامًا. حدّق في عينيّ عميقًا ثمّ همس وهو يسلّمني مغلّفًا:

- هذه رسالة من هيلين، الرّسالة مهمّة يا سعد.. وهيلين ستتّصل بك اللّيلة.. لا تنسَ يا سعد، أرجوك، كن في انتظارها.

لا أحد يثير دهشتي غير جوهر ماسح الأحذية، جوهر الرّجل اللّغز، يصادفني صباحًا أمام الكنيس اليهوديّ في شارع الحريّة، في المكان نفسه تقريبًا يعترضني منذ سبع سنوات بابتسامته التي لا تفارقه، ابتسامته تلك لا تتغيّر، مشحونة بالغرابة والثقة في النفس. استرجعتُ في ذهني ملامحه وحركاته، سبع سنوات وأنا أرى ماسح الأحذية، ذاك، بنفس النّظرات المنصبّة على الأحذية وبنفس ذلك الابتهاج بالأحذية على مختلف أنواعها وأصنافها، هكذا كنتُ أتخيّل

رأسه وهو يشتغل ويتحيّن الفرص. جوهر اقتنصني اليوم في شارع الحبيب بورقيبة ولا أدري لماذا أحسست أنّه كان يتعقّب خطواتي في غمرة الزّحام. لم يسبق أن تحادثنا، ولكنّ هيلين تعرفه معرفة جيّدة. لم أستطع تدقيق حقيقة هذه المعرفة، وعجزت عن الفهم، قد لا يتجاوز الأمر مجرّد العطف على رجل غزا الشّيبُ رأسه. اسمه جوهر، وجوهر هو الاسم الشّائع عند النّاس، «هو رجل طيّب وخدوم»، تقول لي هيلين ثمّ توجّه عينيها الزّرقاوين إلى الفراغ. في الحقيقة، لم يتوقّف دماغي عن التّفكير، طرحت أسئلة كثيرة في شأنه، أسئلة تافهة وأخرى مهمّة. ما حقيقة هذا الرّجل الذي يختفي وراء ملامح ماسح أحذية؟ هل هو من رجال البوليس السريّين؟ كنت أطرح الأسئلة ثمّ أهملها. أغلب الظنّ أنّه كذلك، بوليس سريّ، فلا أحد يعترض على وجوده أمام الكنيس اليهوديّ صباحًا وبشكل يوميّ.

لم يسبق لي أن دخلت الكنيس اليهوديّ، حاولت هيلين ذلك مرارًا وكنت أعتذر دومًا بابتسامة لطيفة سرعان ما يلتقطها جوهر. تزعجني نظراته التي تتفرّس وجهي بصفاقة، كنت أهمله وأشعل سيجارة وأتعمّد الدّخول في غيبوبة حتّى تنهي هيلين صلاتها وكلّ طقوس تعبّدها. لم أسأل هيلين يومًا عن سرّ عطفها على جوهر بشكل يثير الانتباه، ما الذي يمكن أن يجمع شابّة يهوديّة خرّيجة الجامعة برجل قارب السّبعين سنة، كما قدّرت، صاحب المعطف الأسود صيفًا وشتاءً، ابن الكلب؟ كنت أسأل في سرّي. لا يمكن أن يكون ماسح أحذية في مكان يفترض ألّا يسمح فيه بالوقوف أو الانتصاب الخاصّ. الكنيس اليهوديّ مكان في غاية الحساسيّة، يحرسه البوليس

ولا يسمح لأحد بالتوقّف أمامه، وإن حدث ذلك سيكون الأمر محلّ شبهة. منذ حادثة الغريبة أصبح كابوس الانفجارات منتظَرًا في أيّ وقت، والجميع في ريبة من كلّ شيء، البوليس والمارّة على حدّ سواء.

الإرهابيّون قد يظهرون بشكلٍ مُباغت، في لحظةِ إهمالٍ أو سهو، يظهرون بلحًى أو حليقي الوجوه، دقائق فقط ويفجّرون أحزمتهم النّاسفة أو يطعنون رجلًا يهوديًّا عابرًا إلى الباب الخلفيّ للكنيس. لا أحد يتلكّأ، ما يحدث فحسب هو أنّ الأقدام تسير على عجل في الاتّجاهين، على عجل تمضي في حال سبيلها، قد تتوقّف لبعض الدّقائق لاقتناء حاجيات بسيطة من الكشك المقابل للكنيس ثمّ سرعان ما تذوب في الزّحام.

في السّنوات الأخيرة، عندما تزورني هيلين، لا تنقطع عن زيارة الكنيس صباح السّبت، «هو المعبد الذي بقي لنا من رائحة الماضي»، تردّد على مسمعي بكثير من الافتخار ثمّ تضيف: «الكنيس صمّمه المهندس المعماريّ فيكتور فالنري، تعويضًا عن البيعة القديمة بحارة الحفصيّة، حارتنا يا سعد. لا أدري ما إذا كنتَ على علم بذلك، في بداية حرب السّتّة أيّام أضرم فيه المتظاهرون النّار ولم يفقد معالمه. إنّه، كما ترى، آخر معقل لنا في مدينة تونس، وهو شبيه بقطعة من الفردوس».

منذ رحيل هيلين إلى مارسيليا لم أعد أرى جوهر بانتظام، في أحيان كثيرة كنت أتجنّب السّير في شارع الحريّة حتّى لا أصادف ابن الكلب، الرّجل الغامض ذاك. سبب تجنّبي له هو تزايد شكوكي

في كونه يخدع الجميع. ماسح أحذية بارع، لا أحد يشكّ في ذلك، لا يرفع رأسه عندما يشتغل، بعناية ينظّف الأحذية ويلمّعها. في الحقيقة، حاولت أن أتناسى كابوس جوهر لحساسيّة الموقف، فلم يكن من المفيد أن أطرح أسئلة إضافيّة حول شخصيّة غامضة من معارف هيلين، وفي الوقت نفسه ساءني أن تتعمّد هيلين عدم الحديث عنه أمامي. كان من المفيد أن تبوح لي بأسراره، لا يهمّني ما إذا كان بوليسا سريًّا مكلّفًا هو أيضًا بحراسة الكنيس، وما إذا كانت هلين تعرفه من خلال هذا الواجب الذي يقوم به. هي مهمّته في نهاية الأمر، وقد يكون مكلّفًا أيضًا بحماية الجالية اليهوديّة بعد تزايد التّهديدات ضدّها، وهيلين واحدة من تلك الجالية.

ما حدث اليوم هو أنّي لم أتجنّب رؤية جوهر، رؤيته التي تصيبني بالقرف. كنتُ في لحظة سهو، انقضّ عليّ وسلّمني المغلّف، لا أدري كيف قفزتُ من أمامه وهربت من رائحته الشبيهة برائحة خنزير. انكمشت في داخلي وأسرعت الخطى كأنّي تسلّمت مناشير سريّة. لا أحد سينتبه إليّ وسط الزّحام، وقد كان الوقت في صالحي إذ تزامن وجودي بشارع الحبيب بورقيبة مع خروج الموظّفين، إضافة إلى فوضى السيّارات في الشّارع. لم أكن مُتهيّئًا بالشّكل الكافي لمثل تلك الوضعيّات، مثل دودة صغيرة كنت أنكمش وأشقّ الصّفوف، لا أنظر إلى الوجوه. ذهني وحده ظلّ يقتنص بعض الإشارات أو الكلمات الدّاعرة. داهمني متسوّل في الأثناء، انتصب أمامي كعمود كهرباء، لم أتوقّف، سمعت لعنة في قفاي ولم أكترث. عندما تسلّمتُ المغلّف لم يخطر ببالي أن أسأل جوهر عن هيلين، فقد كان الضّيق

يحاصرني بسبب سفرها المفاجئ، وكنتُ أعرف أنّها غاضبة منّي. ربّما تفاجَأَتْ بصراخي في وجهها يوم احتدّ النّقاش بيننا. حاولتُ بجهدٍ كبيرٍ في تلك اللّحظات أن أكون هادئًا، أن أبتسم، ولو بشكلٍ باهت، ولكنّني كنتُ غاضبًا للأسف، غاضبًا بشدّة.

قبضتُ على المغلّف وأنا أمتصّ السيجارة بتوتّر وواصلتُ سَيْري نَحْوَ مقهى باريس. البرد ينقر وجهي كرؤوس الإبر، ولابدّ أن أسرع مثل أغلب الخلق. المرأة التي كانت تسير أمامي أشاعت ابتسامتها وهي تلتفت إليّ بغَنَج، كانت نحيفة وطويلة، تتباطأ في مشيتها، وكأنّها تتعمّد إثارتي. لم أشأ أن أتورّط في مبادلتها الابتسامة نفسها، واكتفيتُ بمتابعة مؤخّرتها، كانت تحرّكها بشكل مثير ومستفزّ. لو ابتسمتُ لها فإنّي سأتورّط في دعوتها إلى شرب قهوة. أعرف بطبيعة الحال أنّها ستنشب أظْفارَها في لحمي وتقترح عليّ الذّهاب إلى بارٍ لائق، بعينيها اللّاهبتين ستجرّني إلى إحدى الزّوايا وتشرب على نخب بلاهتي، تشرب إلى حين يأتي عشيقها ليبصق على وجهي ثمّ يلتقط مؤخّرتها.

لا يروق لي في العادة شرب البيرة في مقهى باريس، أكتفي بشرب قهوة على عجل ثمّ أمضي. المقهى كما خبرته منذ سنوات عالم مخبّل ومعتوه، عالم الصّفقات والعمليّات السّريعة، أستثني طبعًا المتعبين، يرتادون المقهى لشرب البيرة وتجديد الأنفاس. أنا الرّجل الذي مرّت حياتي في الوحل أُدرك جيّدًا ما يقع كلّ مساء في هذا المقهى الذي يجمع خلق الله من كلّ صوبٍ وفجّ، تعرّضت بالفعل إلى عمليّات تحيّل ولكنّ خسائري لم تكن فادحة. شعوري بالغباء يجعلني هشًّا فأتململ وفي الأخير يستفيق الشّيطان في دماغي، لا بدّ أن يستفيق.

ما لفت انتباهي هو أنّ الوجوه كانت في حالةِ وجومٍ وبؤس. الشّفاه تنفث الدّخان بلا اكتراث ثمّ تشرب البيرة، تشرب في الضّجيج الهيستيريّ ولا تكترث بشيء.

غادرتُ النضدَ عندما عثرتُ على طاولة شاغرة، التقط رجلٌ قصيرُ القامة الكرسيَّ المقابل لي وجلس، سوّى نظّارته السّوداء ثمّ شرع يمسح لفافة بلسانه، أشعلها بعد ذلك وأخذ يرشقني بنظرة ماكرة ثمّ هتف:

–أهلاً بالرّفيق المثقّف. أراهن أنّك مثقّف لا يشقّ له غبار..

انتبهتُ إلى أنّي أهملت المغلّف على الطّاولة، قبضتُ عليه بحركة منفعلة مخافة أن ينتشله منّي صاحب الوجه المستدير الذي يواجهني برشّاشي نظّارته. في الواقع، لم أفكّر في ما يمكن أن يحتويه المغلّف، ولم أتحمّس لفتحه داخل المقهى، فلا شيء يوحي بأنّه ثمين وعلى درجة كبيرة من الأهميّة، ماذا يمكن أن ترسل لي هيلين بعد سنتين من غيابها؟ يوميّاتها في مارسيليا؟ أم ذكرياتنا الحميمة وهي تُصارع النسيان؟ رحلت في ظروف غامضة ورفضت أن تتواصل معي عبر الإيميل، لم تردّ على رسائلي الكثيرة التي وجّهتُها إليها وهو ما أثار حَنَقي. الإهمال يقابله الإهمال، وأنا سأهمل هذا المغلّف لأنّه في اعتقادي لا يختلف عن ابتسامة تلك المرأة التي كانت تسير أمامي. لو أفتحه، قلت في نفسي، سينهمر على رأسي الحنين الموجع وسيفسد مزاجي وأنا لا أحبّ أن أتعكّر أكثر بعد أن شنّجني ابن الكلب ذاك. ثمّ، وهذا هو الأهمّ، سترسل لي هيلين رسالة وأفهم كلّ شيء. لن أجيبها طبعًا بشكل سريع، سأهملها يومًا أو يومين ثمّ أجيبها. لا بدّ

أن تدرك مرّة أخرى أنّ الإهمال هو أكبر عدوّ للحبّ، أنا لن أهملها كما فعلت هي، سأتجاهلها بعض الوقت، كما فعلت هي، سأتثاقل، ثمّ أكتب لها، أكتب بملء شوقي إليها، تلك المجنونة.

هتف الرّجل القصير باتّجاهي:

- مثقّف آخر زمان..

أشعلتُ سيجارةً ثمّ مسكته من كتفه وصرخت:

-أوّلاً أنت لست رفيقي، ثانيًا احترم آداب الجلوس من فضلك.

-اهدأ يا رفيقي، ظننت أنّك تحتاج إلى لفافة تزيح عنك الغمّ.. ونحن شعب مغموم كما ترى.

أخطر مخلوقات الله هم قصار القامة، الرّجال منهم كثيرو المكائد، أمّا النّساء فهنّ كثيرات الغنج والرّغبة في الجنس، لا يشبعن ولا يتعبن. وهذا القصير قد يقودني إلى كسر عظامه، وجهه دائريّ ولباسه أنيق، عيناه ضيّقتان ومتنمّرتان، هو بلا شكّ من موزّعي لفافات الحشيش في مقهى باريس، خبرت طويلًا مثل هذه الأشكال، اللّفافة بعشرة دنانير أو بعشرين حسب الجودة. لم ييأس القصير منّي، ظلّ يتفرّس وجهي متوسّلًا، جرجرني البائس نحو نقطة ضعفي، طيبتي هي سبب المصائب كلّها، انفلتت منّي ضحكة فاستجبت وناولته ورقة نقديّة بعشرين دينارًا.

في بار «إيطاليا الجميلة» لم أقاوم رغبتي في شرب النّبيذ، كنتُ أحتاج إلى التّركيز. حرب التّخمينات كانت ضارية في دماغي، ما الذي يمكن أن يحتويه هذا المغلّف؟ ما الّذي حدث لهيلين؟ وماذا

استجدّ معها؟ الأسئلة لا تغادرني. وصلاح نادل البار احتار في أمري، «هل لبسك عفريت؟»، كان يسألني ضاحكًا ثمّ يفتح أمامي قارورةً ثانية. شربت بنهم واستبدّت بي عيناها، عيناها كانتا تتّقدان أمامي بشهوةٍ أكبر، تلهب الجمرة التي كانت خامدة. وجه هيلين ينهشني بنهم دومًا وفي كلّ الأمكنة، حاولت أن أنساها. هكذا هي الحياة، عندما تنتهي قصّة حبّ لا بدّ أن ننشغل عنها بقصّة أخرى، حتّى لو كانت قصّة بلا حبّ. كان يكفي أن ترافقني امرأة في ليالي ديسمبر الباردة، بجسدها على الأقلّ ثمّ يأتي الحبّ. قرأتُ في أحد الكتب: «الجنس يمكن أن ينجب حكاية حبّ عظيمة»، ولكن، للأسف تلك الحكايات تهمّ الشّعوب الأخرى التي تربّت منذ الصّغر بلا عُقَد، بلا عنفٍ ولا كوابيس. نحن تربّينا على حكايات الغول و«العُبّيثة» والصّفع والرّكل واللّطم والحدود الفاصلة بين الحلال والحرام. وأنا بالإضافة إلى ذلك لم أعد إيروس، ربّ الحبّ الغامض كما كانت هيلين تسمّيني. خمدت أشياء كثيرة في باطني، انكمشتُ بشكلٍ لافت ولم أعد متحمّسًا لمغامرة جديدة مع امرأة، مغامرة تكون عاصفة وحارقة، تذيبني مثل الثّلج ثمّ تُشعل في باطني النّار من حيث لا أدري. طبعًا أستثني هاجر، فعلاقتي بها حكايةٌ أخرى. ينبغي أن أعترف بكلّ هذا حتّى لا أصاب بلوثة الحبّ من جديد. لا يمكنني أن أنسى هيلين، إنّها الوجع الذي لا يرحم، يغمرني مثل بحرٍ هائجٍ تمامًا ثمّ يلعقني بشفتيه. هي أصل الحكاية، الحبّ معها مسألة مختلفة، طاحونة خرافيّة لا تتعطّب أو تتوقّف، حكاية لا تُقرأ في الكتب ولا تُدرّس في الجامعات، الحبّ مع هيلين حرّرني من كلّ العُقَد.

لارا، ابنة هيلين نسيتني هي أيضًا أو تجاهلتني، لا أدري، خمّنت أنّها متضايقة بسبب خصامنا الأخير، أنا وهيلين. هي لا تتحمّل أن نتخاصم أو نفترق، في الغالب كانت تنتصر لمواقفي وتقف في صفّي. «أنا أشاطر آراء سعد، إنّه لا يخطئ يا ماما، أجل، أجل يا هيلين مواقفك في غاية التّعقيد»، كانت تقول وهي تمسك يدي بشدّة وتُرسل زفرةً طويلة. لارا لم تعد تزورني هي أيضًا أو تشتاق إلى حكاياتي، أزعجني ذلك كثيرًا وعمّق حالة الفراغ التي عشّشَتْ في دماغي. لم تعد على ما يبدو متحمّسة أيضًا للتجوّل بلهفة في أزقّة المدينة العتيقة.

تلذّذتُ بشرب النّبيذ وأحسستُ برأس هيلين الصّغير الدّافِئ على كتفي يُهدّئ من روعي وينتشلني من سفالة هذا العالم. رقصت هيلين أمامي بفستانها الأسود القصير المثير المفتوح عند الصّدر، رقصَتْ ثمّ التهمَتْ شفتيّ بنهم واندسّت بقربي في السّرير.

انتبهتُ إلى الوجوه القليلة التي كانت تتوزّع على طاولتين بجواري، هذه القاعة الصّغيرة الموجودة في الأعلى لا ينعم بهدوئها إلّا القلّة، إمّا أن يكونوا من الصّحفيّين أو النقابيّين المعروفين، وأنا لست صحفيًّا ولا نقابيًّا، صلاح هو من يسمح لي بالصّعود. وصلتني أيضًا بعض الحوارات واقتحمت عزلتي، كانت في السياسة كما يقول صلاح، يلتقطها من يكتبون التّقارير، كلّهم يكتبون، هكذا يوشوش صلاح في أذني.

-اشرب على نخب ماركس يا جبان.

- دعك من ماركس أيّها الحيوان، النّظام هو الجبان.

انزعج الرّجل النّحيف الذي لا يكفّ عن السّعال، ملامحه تكشف أنّه خرج لتوّه من أقبية التّحقيق، حرّك كأسه ثمّ صرخ في الجميع:

-حيوانات، كلّكم حيوانات.. ولا يمكن أن تحلموا بالحريّة.

ماذا كان العالم سيفعل لو لم يكتشف النّبيذ؟ الفلّاحون الفرس هم أوّل من خمّروا عصير العنب. قادهم الملل إلى التّجربة فنجحوا واكتشفوا بهجةً أخرى تضاف إلى بهجة الحبّ. الشّعوب العظيمة هي التي تكتشف أسباب السّعادة والجنون. أمّا نحن فشعوب النّكد. دراستي للتاريخ في كليّة الآداب بمنّوبة دفعتني إلى احتقار الشّعوب العربيّة، لم تنجح في أيّ مشروع حضاريّ أو إنسانيّ، وكانت فاشلة بامتياز في كلّ شيء.تاريخهم قضى عليّ ولم أتخطّ السّنة الأولى. كنت طوال السّنة أتبوّل في البحر الميّت، لا أستوعب شيئًا حتّى استنفدت كامل خراطيشي. دراسة التّاريخ في الجامعة أشبه بعمليّة انتحار شنيع على عمود أكله السّوس، وكدت أنتحر فعلًا لو لم تصادفني هيلين، وهي أجمل ما يمكن أن يُمنح لرجلٍ تُونسيٍّ فاشلٍ مثلي فرّ من حيّ الزّهور بالقصرين ليستقرّ في وكالة شعبيّة وسط العاصمة.

- انتبه يا سعد، لقد بالغت في الشّرب، وترغب في الثّالثة؟

هتف صلاح، ثمّ جاءني بشريحة لحم ساخنة وقطع جبنة وحبّات زيتون. صلاح هو من يهبني رائحة القصرين، كهلٌ مثلي من حيّ النّور حرقته الأيّام في العاصمة واستطاع في الأخير أن يستقرّ بها، اكترى بيتًا في المنيهلة وتزوّج امرأةً صالحة كما قال لي. في الحقيقة، هو

من يساعدني على تجميع تلاميذ الابتدائي لإعطائهم دروس تدارك في منازلهم، يتّكئ على آبائهم السّكارى ويُبالغ في تمجيدي كرجل تربية لا يناقش أحد في قيمته وأمانته. صلاح يقسم بأغلظ الإيمان ألّا يتسلّم منّي ولو مليّما واحدًا نظير خدماته، كان يدرك أنّ فرص العمل نادرة وهو ما يفتح أمام خلقتي كلّ أبواب جهنّم. وللأمانة، عندما تصادفني فرص عمل أحرص على تسديد مبالغ إضافيّة، أضعها على الطّاولة في غفلة من صلاح، وضعيّته هو أيضًا بائسة ولا أحبّ بالمرّة أن أثقل كاهله بمصاريف تقوّس ظهره. مسألة الدّروس لم تكن منتظمة، وكان من الحمق أن أعوّل عليها. في فترة الامتحانات أُصبح المعلّم المنقذ لعشرات التلاميذ المستهترين. كنت أعرف كيف أوجّههم إلى امتحانات بعينها وحدسي كان يصدق في حالات كثيرة. أمّا مغامرات الحفر عن الكنوز فلم تكن مُتاحةً دومًا، وبالإضافة إلى ذلك هي ليست مضمونة، لا تخضع لمنطق، وتلعب الصّدف دورًا كبيرًا في العثور على كنز يشفي الغليل.

تدحرجتُ من الدّرج الحديديّ الضيّق بصعوبة، كان عليّ أن أغادر البار باتّجاه شقّتي في صبّاط الدّزيري، كدتُ أسقط فعلًا لو لم أمسك مقبضًا حديديًّا كان في متناول يدي. أحسستُ بأنّ شيئًا ما سقط منّي ولم أتحمّس للبحث عنه. صلاح كان يتابعني من الخلف ويخشى أن أسقط بسبب مبالغتي في الشّرب، في أقصى الحالات كنت أشرب قارورة ونصفًا، وفي هذه اللّيلة ابتلع جوفي ثلاث قوارير.

عندما تسلّلت من باب البار نحو الشّارع فاجأني وجه تلك المرأة، صاحبة المؤخّرة التي دوّختني في أوّل المساء. لفحات البرد

صفعت وجهي وأحسست بها تنغل في مسام جسدي، لم ينجح النّبيذ الأحمر في إشعالي. لامس شعرها وجهي، تعمّدت أن يحصل ذلك، تطاير شعرها الأسود أمامي وخدّرني العطر. أشرق وجهها، لم تفرط في وضع المكياج كنساء اللّيل، لاحت لي فاتنة ومشتعلة، عرفتها بسروال الجينز ونظّارتها، لم يتسنّ لي أن أتطلّع إلى قفاها. تسمّرت أمامي كأنّها اكتشفت كنزًا ثمّ نزعت نظارتها السّوداء وقالت:

- مستحيل!.. أنت مرّة أخرى؟..

الكارثة، لم تنس ملامحي، والقدر قادها إليّ مرّة ثانية. التمعت عيناها فرحًا وأنا أسحبها من يدها. يدها ساخنة في البرد، أثارتني تلك النّعومة، واليد النّاعمة هي من أهمّ بؤر الفتنة عند المرأة. عيناها أيضًا كانتا تومضان بشبق ولا أعتقد أنّ النّبيذ هو الذي ساهم في لوثة انبهاري وسقوطي. المسألة مسألة توقيت، أوّل المساء يختلف عن آخر اللّيل المشحون العاصف. هي لاشكّ تحتاج في هذا الوقت الضّائع إلى رجل، وأنا تناسبني امرأة مثلها بعد أن صدّعني ذاك البائس جوهر. في العادة أخشى نساء آخر اللّيل، لكن، لا بأس، لم تكن في إبطها رائحة قذرة، خمّنت، هي تحتاج إلى مأوى مثل عشرات الحالات التي صادفتني من قبل.

- اسمع يا..

- سعد.

- أنا لست مومسا كما تظنّ.

- عندما أكون في حضرة ابن خلدون لا ترافقني إلّا الملائكة.

«ما يفهم ترهدين النّعجة كان السّارح»، هكذا كانت أمّي تقول، فهي خبيرة بالنّساء، تتفرّس في مشيتهنّ ثمّ يكتب رأسها تقريرًا مفصّلًا. في الغالب لا تحتاج إلى ثرثرتهنّ لتميّز الواحدة من الأخرى، مشية المرأة هي السرّ، تؤكّد أمّي، أمّا إذا طأطأت رأسها وهي تمشي فهي امرأة فاسدة ولعوب. وأنا عرفت هذه المرأة من مشيتها أمامي، ومؤخّرتها كادت تبتلع عينيّ. كان عليّ أن أكون لَبِقًا، هذه مقتضيات المراودة الليليّة، «ضع شيئًا في سروال المرأة التي تراودها حتّى تسمح لك بنزعه»، يلهث الشّيطان في رأسي. وأنا وضعت كلامًا معسولًا وساحرًا جعلها تهتزّ بجانبي وتوسّع خطواتها مثلما أفعل.

شقّتي في صبّاط الدّزيري، تقع في الطّابق الأوّل من وكالةٍ أُنشئت منذ عهد الاستعمار، منذ سنة نجت من الهدم ووقع ترميمها بمجهود خاصّ من العائلات التي كانت تخشى الإجلاء بالقوّة العامّة. معلوم الكراء ظلّ كما هو، معلوم رمزيّ، وهو يناسبني كما يناسب العائلات الفقيرة التي تشاركني السّكن في هذه الوكالة. المرأة تعمّدت الاتّكاء عليّ بكامل ثقلها، لذلك كنت أجرّ قدميّ بمشقّة. كانت تخشى، كما همست لي، القططَ التي تنطّ بين الأكياس المتراكمة في زقاقنا الذي لم يعد يحتمل كلّ هذه الأكوام العفنة. نوافذ الشّقق كانت مغلقة ومطفأة، هذا أحسن، قلت في نفسي، لو تتفطّن هاجر لحماقتي فلَنْ تغفر لي، ستبحلق في وجهي ثم تقول بكلّ انفعالها:

- الله الله.. أنت كلب، إلى هذا الحدّ لا تشبع؟

هاجر ذات صوت رخيم يصبح في هذه الوضعيّة مثل صافرة قطار «حمّام الأنف»، تقابلني مقطّبة الجبين وتخاصمني. وبعد ذلك لا

يمكن أن تقاطعني أكثر من ثلاثة أيّام، لا يمكن طبعًا أن تغامر هاجر بفعل ذلك، «شاهيتّك يا سعد يا بليد يا ركيك»، تهمس في أذني بعد أن تعصف بها الرّغبة، ثمّ تندسّ معي في السّرير. الوحيدة التي لا تناقش أمرها هي هيلين، لا تفتح هذا الدّرج أبدًا، هي تعرف قصّتنا لذلك تتفادي الخوض فيها. كنت أعرف أنّ وجود هيلين في الشقّة يصيبها برُعب «الشّقيقة»، تنقضّ عليها الأوجاع ولا ترحمها. ذات ليلة طرقت باب شقّتي وهي تبكي، وهيلين هي التي خفّفت آلامها بحبّات صفراء صغيرة، قالت إنّه دواء ناجع لصُداع «الشّقيقة».

النّوافذ في النّهار تظلّ مفتوحة كامل اليوم، تزدحم بالمفروشات والغسيل والرّؤوس المتلصّصة على كلّ من يهبّ ويدبّ في الوكالة. الأغاني في العادة تصدر عن أشرطة بذيئة، صراخ وتهييج، هذا ما يحصل في أغلب الأوقات. وكثيرًا ما يتّضح لي أنّ بعض شقق الوكالة كانت معدّة للمتعة، مثل سوق المتعة السرّي، كلمة السّر فيه تلك الأغاني الهابطة. الغريب أنّي لا أهتمّ، ولا أسمح لهاجر بأن تسرد لي التّفاصيل. لا داعي لثرثرتك، أقول لها حاسمًا وأنا أفرك نهديها.

خوف المرأة، كما أحسست، لم يتلاش وهي تتحسّس معي مدخل الوكالة ثم ترتقي برفقتي الدّرج نحو الطّابق الأوّل، ندمتْ بلا ريب على حماقتها التي ارتكبتها في آخر اللّيل، كان يمكن أن تنام في الشّارع ولا ترافقني إلى عشّ الدّبابير. «من نفقتو باين عشاه»، ستوبّخ نفسها، لكنّها لا تستطيع أن تفكّر في الهروب.

داخل الشقّة تغيّر الوضع تمامًا، تلاشى خوف رفيقتي، مرّرت

لسانها على شفتيها وهي تسألني عن غرفة الاستحمام. بحركة سريعة نزعت ملابسها أمامي ثمّ أدارت لي ظهرها وتناولت سيجارة من حقيبتها اليدويّة الصّغيرة. أدارت لي ظهرها عمدًا كما قدّرت، انحنت أيضًا بذاك البطء المزلزل لتلتقط حقيبتها، حرّكت في الأثناء مؤخّرتها بشكل لدغني في الأعماق. اشتعلتُ وأنا أصوّب ضوئي الكشّاف نحو الرّدفين الممتلئين. الرّغبة أحيانًا مثل الظّواهر الخارقة التي تسحب منّا انتماءنا إلى الإنسانيّة وترمينا إلى عالم الحيوانيّة المجهول، عالم شبيه برمال متحرّكة، تبتلعنا من الأعلى إلى الأسفل، والأسفل هو الذي يشقى أكثر في تلك اللّحظات التي تسبق إلقاء الحمم البركانيّة. الغواية أنثى، وقد أغوتني فعلاً عجينة الجنّ هذه التي خرجت لي في آخر اللّيل. المدهش أنّي لم أفكّر طويلًا في حكايتها، هكذا تكون المغامرات، مجنونة ومحاطة بالكثير من الغموض أو لا تكون. ومع ذلك شغلتني مؤخّرتها واختزلت العالم أمامي، كلّ العالم.
ما استغربته حقًّا هو أنّي لم ألمس إلّا يدها اليسرى، لم تكن لي رغبة للمس شعرها أو خدّيها أو شفتيها، لم أفكّر أيضًا في احتضانها بحركة سريعة تعبّر عن حالة إعجاب. كان يكفي أن أحضنها بشكل سريع، وأترك مسألة نهديها إلى مرحلة أخرى. بعد أن أحتسي كأسًا من نبيذ الجنّ سألتقطهما كما أفعل مع هاجر، تلك النّار التي لا تخمد، تولول عندما ألتقط نهديها ثمّ تقفز من بين يديّ لترقص مثل الغجريّات، وتترك ذاك الوشاح الأحمر في خصرها لتدكّ أوصالي. المرأة تريد أن تتأكّد أوّلًا من أنّ الرّجل الذي يرافقها ملدوغ بها، ثمّ تأتي التّفاصيل لاحقًا. وأظنّ أنّها لاحظت هذا البرود ولم تشأ أن تصرّح بذلك، وإن

بقي الأمر على ما هو عليه بعد خروجها من غرفة الاستحمام فإنّها ستصفعني، هذا أكيد.

منجيّة، أمّي القصرينيّة الشّامخة لا تتحرّج عندما تسألني عن سرّ برودي مع النّساء، تلمّح إلى هذا الأمر الذي يزعجها، وعندما أتظاهر بالغباء تسقط عنّي ورقة التّوت. هي لم تُسقطني من جوفها لأنكمش كدودة، لو تخيّلت أنّ هذا السّيناريو سيقع معي يومًا لَأَمْسَكتني من رأسي وحشرتني في جوفها ثانية لتعوّضني بأنثى، الأنثى أمرها واضح، وفي كلّ الحالات لن تصاب بخيبة أمل. «لا بدّ أن تبحلق في وجوههنّ يا فرخ الحرام حتّى تختار واحدة، أسمعت؟ لا تنظر إليّ هكذا كالأبله»، تقول مقطّبة جبينها. وفي أحيان كثيرة كانت تتعمّد تركي منفردًا في غرفتي مع إحدى الفتيات، «قد يتحمّس لقبلة أو لمسة من النّهد الطريّ وهو ما يسرّع قرار زواجه من واحدة»، يشتغل رأس أمّي. وما إن تخرج إحدى الفتيات من غرفتي حتّى تقتحمها وهي غاضبة ومتحمّسة إلى شتمي وأكلي بأسنانها. عيون الفتيات المنكسرة كانت تقول لأمّي: فرخك هو الثّلج شخصيًّا يا خالة منجيّة.

-اسمي نادية.

هتفت المرأة من خلف الباب وهي تستحمّ، بحثت عن اللّفافة التي اقتنيتها من مقهى باريس وفكّرت في تدخينها مع نادية. لا بدّ أن تسكر معي بالحشيش حتّى لا تحدّق في خلقتي بفضول وتمطرني بأسئلتها التّافهة. أمقت الأسئلة فعلًا مع امرأة ألتقيها لأوّل مرّة، لماذا وكيف ومتى؟ لن أسألها عن قصّتها، لا أحبّ هذا الرّوتين إطلاقًا،

وهي في كلّ الأحوال ستكذب وتوسّع مراوغاتها، ولهذا السّبب أيضا، فكّر رأسي، سأكتفي بحميميّتها ومزاجها الرّائق. المغامرة في نظري هي أن نرتمي في المجهول بلا اكتراث ثمّ نتخدّر بلذّة الملامسة والاكتشاف. ومن أهمّ الأسباب التي شجّعتني على هذه المغامرة الأسلوب البرقيّ الذي كانت نادية تتكلّم به، لا تثرثر، توجز وتسدّد في المرمى مباشرة. هي بلا ريب، كما فكّرت، ستُمضي معي ليلة ساخنة مثلما تعوّدت مع رجال آخر اللّيل، وفي الصّباح ستنهض باكرًا وتنتصب أمامي مثل قابض الماليّة ثمّ تفتح كفّها وتهتف بي:

- «بيّض كفّي يا عمّي يا باهي..»

عندما أشعلتُ اللّفافة تذكّرتُ مسألة المغلّف الذي أرسَلَتْهُ هيلين، فتّشتُ في جيوب المعطف ثمّ انتبهتُ إلى أنّي لم أضعه في أحد الجيوب لأنّه كبير الحجم. إنّه لأمر غريب أن يضيع منّي، حدست أنّه سقط أثناء السّير، لم يسقط في البار أثناء نزولي من الدّرج، صلاح كان سينبّهني إلى الأمر بكلّ تأكيد ثمّ يلتقط المغلّف ويسلّمني إيّاه. ضاع المغلّف لا شكّ في المسافة الفاصلة بين البار والشقّة. في تلك الآونة انزعجت حقًّا لأنّي أضعت المغلّف وما أزعجني أكثر هو أن يتعكّر مزاجي وأنا أمتصّ اللّفافة.

(2)

هيلين

مرّت الأيّام بسرعة كمرور الرّياح، لكنّ الذّكريات في ذهني تمعن في التدفّق، وتتناوب عليّ، خِلْتُ أنّ النّسيان لفّها ورحلت، غير أنّها تُلحّ في العودة. أحيانًا أحاول الهروب فأغلق غرفتي وأشغّل جهاز التّدفئة وأتخلّص من كلّ ثيابي، ثمّ أتمدّد على السّرير عاريةً تمامًا. تنبعث الموسيقى مثل شحنة متمرّدة من الحاسوب وتمزّق الصّمت. كلّ شيء متوفّر في غرفتي، النّبيذ والفواكه والكتب، أعشق كتب التّاريخ منذ صغري، اقتنيتها من مارسيليا وباريس، وأكثرها جلبته من تونس، من نهج الدبّاغين.

في العادة، شيرا لا تقلق من اعتكافي في غرفتي، تعرف أنّي عندما أغلق بابها أكون في مزاجٍ سيّءٍ فتتجنّبني. هكذا هي أمّي، على غاية من رهافة الحسّ والذّكاء. علّمتني منذ صغري أن أكون حرّة، مستقلّة في قراراتي، وهي تعرف أنّي مجنونة، مثلها تمامًا عندما كانت صغيرة. إليف كذلك كان أبًا عطوفًا، شجرةً وارفةَ الظّلال، لم أكتشف الحبّ في الكتب ولا في الأفلام، واكتشفته في عيني أبي الهادئتين، أجمل القبل كانت من إليف وأغلى قبلة كانت قبلته وهو يموت بين يدي أمّي.

يروق لي أن أشرب النّبيذ في غرفتي، أشعل شمعتين وأعتكف في سريري. كأس النّبيذ له طعم خاصّ عندما أستلقي على السّرير، يفتح شهيّتي للقراءة والبحث، ويجعل مشاعري متأهّبة. يلوح لي وجه سعد، ويحدجني بنظراته المتسائلة ثمّ يحضنني بلهفةٍ وجنون. الكأس المقدّسة شربتها مع سعد في لقاءاتنا الحميمة الأولى. كان ذلك يوم جمعة، سهرنا حينها في فندق «رويال فيكتوريا» بـ«باب بحر»، وأقمنا مائدتنا الملكيّة على ضوء شمعتين. لم يصدّق سعد أن تكون سهرتنا الأولى بلا موسيقى ولا ضجيج. التحامنا كان هو الموسيقى المذهلة التي لا تتلاشى، ومع مرور الأيّام ازدادت تعتّقا مثل النّبيذ. في غرفتي أحتفظ بالنّبيذ الجيّد، بعض القوارير جلبتها من تونس، كان سعد يصرّ على أن أشرب النّبيذ التونسي السّاحر كما يقول، ومع الأكل والغلال يكون منعشًا حقًّا. أشرب عندما أحنّ إلى سعد، يركض في داخلي، ثمّ يقف جامدًا في قلبي، ويصغي إلى صرخاته المكتومة.

في زيارتي الأخيرة إلى تونس لم أكن غاضبة من سعد مثلما فهم، وإنّما كنتُ منكسرةً ويائسة ومرهقة جدًّا. مرّت سنتان على تلك الزّيارة، وسعد طفلي المجنون، لا يصدّق أنّي لم أكن مستاءة ممّا جرى. كان الوقت عصرًا عندما تخاصمنا، لم يسبق أن جرّنا النّقاش إلى مثل ذلك الانفعال، ولم يكن بوسعي آنذاك أن أبقى وسط ذلك الصّمت القاتل. لا أدري لماذا كنت خائفة من فقدان سعد إلى الأبد، كان يدرك أنّ غيابه يعني موتي حقًّا. أحسست بالضّياع وأنا أغادر الشقّة وأهرب منه، وفي تلك اللّحظات لم أسمع إلّا نعيق الغربان.

انزلقت دموعي ساخنة وحارقة، خشيت أن أضعف أمامه وأرتكب الحماقة الكبرى، فأوافق على زواجنا. كنّا ممنوعين من الزّواج، أدركنا ذلك منذ اعترافاتنا الأولى، ذلك الرّباط المقدّس حرمنا منه، مع كلّ لمسة وكلمة حبّ وقبلة، وبعد ليلتنا الكبرى كنت أخشى أن يطلبني زوجة. كنت أخاف من هذه الكلمة، الزّواج، فهي تبدو مرعبةً، قاتلة في وضعيّتنا. وعندما نطق بها سعد، ضاقت بي الدنيا فهربت منه، تلاشيت من أمامه لأنجو من العذاب.

غادرت الشقّة وأنا أبكي وأرتعش، كان ذلك يوم أربعاء، كنتُ مختنقةً جدًّا، فحاولتُ أن أطارد الهواء. فكّرت في أن ألوذ بزاوية سيدي محرز، شيرا كانت توصيني بها: «إذا انسدّت أمامك الأبواب يا هيلين اذهبي إلى زاوية سيدي محرز، سيدي محرز يا ابنتي منع عنّا الظّلم والقهر، وكنّا في حماه حتّى رحلنا إلى مارسيليا».

ملتُ أوّلاً إلى شارع الحبيب بورقيبة وتوجّهت إلى مقهى التياترو، كنت أعرف أنّ سعد لا يحبّذ الجلوس هناك، فمقهى باريس هو معبوده، وقد ينساني أحيانًا وهو منشغل بقهوته. في الحقيقة، كنت كثيرة التردّد على هذا المقهى منذ دراستي الجامعيّة، شاء حظّي أن أشتغل مترجمة في السّفارة الفرنسيّة، أحد الموظّفين بالسّفارة كان صديق أبي وهو من مكّنني من تلك الوظيفة المؤقّتة. في تلك الفترة لم أكن أحتاج إلى المال بقدر حاجتي إلى علاقات وخبرة في الحياة، كنت أتقن اللّغتين، العربيّة والفرنسيّة، مثل شيرا تمامًا. هي التي أصرّت على ذلك منذ صغري، «تعلّمي اللّغة العربيّة يا صغيرتي مثلما تعلّمتها أنا في تونس، أجدادك أيضًا كانوا يتكلّمون بها»، كانت تقول لي وهي

تمشّط شعري. ولا أنسى أيضًا أنّ حيازتي لجنسيّتين، تونسيّة وفرنسيّة، ساعدتني على الاستمرار لسنوات في تلك الوظيفة بالسّفارة.

جلست في الرّكن الذي يمكّنني من مراقبة مقهى باريس، كنت متشوّقة إلى رؤية سعد من بعيد، محتاجة أكثر إلى وجهه الأسمر وعينيه الرّماديّتين الصغيرتين. طلبتُ قهوة وقارورة ماء صغيرة، وأوّل شيء فعلته هو غلق الهاتف. فتحت بعد ذلك حاسوبي المجهّز بالأنترنيت، تفقّدت بريدي الإلكترونيّ ثمّ أرسلت رسالة قصيرة إلى أمّي، اكتفيت بطمأنتها على حالتي، هي طبعًا لا تشبع من رسائلي. لارا لم تكتب لي كعادتها، شغلتها الدّراسة على ما أظنّ، أعرف أنّها تكتب لشيرا باستمرار كلّ تفاصيل دراستها، وشيرا تقرأ كلّ كلماتها، بل إنّها لا تنام إلاّ بعد أن تقرأ رسائل لارا.

سمعت موجة من الضّحك ورائي، حانت منّي التفاتة خاطفة، التقت عيناي بعينَي فتاة، كانت في غاية السّعادة وحبيبها يضع راحة يده على خدّها الأيمن. وصلتني كلماتُهما أيضًا وهما في بداية الحلم، هكذا كان إحساسي، الحبّ له بدايات رهيبة، عذبة، نورانيّة، الأكيد أنّ الهلال الوليد يحتاج إلى وقت ليتشكّل ويصير بدرًا. عاينت في لحظةٍ ذلك البريق السّاحر الذي يومض عادة من عيني العشّاق، ذلك الوميض نفسه شعّ من عينيّ وأنا أغرم بسعد. لم أكن قد جرّبت لذّةَ لمس اليد من قبل، وفي أوّل أيّامنا عندما لمس سعد يدي شعرت بدوار خفيف في رأسي، وتشكّل بدرنا بسرعة جنونيّة رغم أنّي لم أكن أنتظر حكاية الحبّ هذه. سعد كان يجنّ عندما أغنّي له إحدى أغاني حبيبة مسيكة، وأنا أحبّ جنونه، ينتشي بصوتي وهو يضع رأسه على صدري:

نقطـع التّنهيـدَه من وسط قلبـي آه يـا داي

نقطع التّنهيدَه داري جذا دارو قلت بعيدَه

من وسط قلبي آه يا داي

***

علّتي و هبالي سبب دايا مرضي وعلتي وهبالي

سبب داي آه يا داي

علّـتـي و هبـالي من شبح عيـني قد مـا يجرالي

سبب دايا مرضي آه آه يا داي[1]

يظلّ سعد مبتهجًا بصوتي ثمّ يُشعل سيجارة ويقول:

- حبيبة مسيكة، فنّانة مجنونة، تهيّج السّهران وتسكره بلا نبيذ.

في الحقيقة، حين أتذكّر القصّة الحزينة التي روتها لي شيرا يلفّني حزن عميق. مارغريت مسيكة، هكذا كان اسمها، وُلدت في حيّ الحارة، أو حارة اليهود كما يسمّيها البعض. كانت عائلتها الفقيرة تسكن بيتًا قريبًا من بيت أدريان والد إليف. مثل أغلب البنات اليهوديّات، لم تواصل دراستها في مدرسة اليهود بسبب الفقر، انطلقت في الغناء مبكّرا في الحانات ثمّ ذاع صيتها. وعلى أيّة حال لم تنس مارغريت عائلتها الفقيرة ولا أطفال حيّ الحارة الفقراء، كانت تهديهم الملابس وأدوات التعلّم وتشجّع البنات على مواصلة الدّراسة.

---

(1) مقطع من أغنية «نقطع التنهيده» للفنانة حبيبة مسيكة وهي فنّانة يهوديّة الأصل.

في الأثناء يلاحظ سعد حالة الوجوم في عينيّ فيضمّني إلى صدره ويسألني:

-عزيزتي، هل حقًّا حرقها عشيقها؟

-حبيبة مسيكة حرقها عشيقها إلياهو ميموني، عشقها عِشْقَ مجنونٍ وحرقها النّذل. الغيرة أعمته بعد إفلاسه، جاء من تستور خصّيصًا لكي يُحرق المسكينة، «حبيبة ماتت، ليه قتلها ميموني حرام عليه»، هذا ما كان يردّده أحد الفنّانين من أصدقائها وهو يبكي يوم قتلها ميموني.

أطفأت سيجارتي الثّالثة ولم يظهر سعد، ربّما خيّر البار، قلت في نفسي، كنت أخشى أن يذهب إلى بار «إيطاليا الجميلة» وهو في حالة غضب، أوصيه دومًا بألّا يشرب كثيرًا عندما يتوتّر ويهتاج. بحثت في العابرين عن قامته ووجهه الأسمر، بَحْلقتُ بيأس ثمّ أغلقت عينيْن مُثقلتيْن بالذّكريات.

عرفتُ سعد في شهر فيفري من سنة 1990 في كليّة الآداب بمنّوبة. لا أصدّق ما حدث معي في ذلك اليوم، شتمتني إحدى الطّالبات وهاجمتني بأبشع النّعوت، كانت ترتدي حجابًا على ما أذكر، عيناها تتطايران شررًا، أعماها الحقد ولم أفهم سرّ الحملة التي كانت تشنّها عليّ إلّا بعد أن صرخت في وجهي:

-أنت جاسوسة إسرائيليّة.

تفطّنت بشكل متأخّر إلى أنّ تلك الطّالبة، وهي زميلتي بقسم التّاريخ، كانت تقوم ضدّي بحملة شعواء، إحساس قاتل أن

أعيش في وطني وأنعت بكوني جاسوسة وعدوّة. كنت أستغرب نظرات الطلبة المرتابة والحاقدة أحيانًا، نظرات تختزن مزيجًا من الحقد والكراهيّة. كنت في سنتي الرّابعة، على أهبة التخرّج ولم أسئ إلى أحد طيلة أربع سنوات. أكتفي، في العادة، بحضور الدّروس وزيارة المكتبة لاستعارة بعض المصادر والمراجع المهمّة، أفعل ذلك على عجل وأغادر الكليّة نحو السّفارة. المشرب لم يستهوني بالمرّة، وكنت أتفادى كلّ الدعوات لشرب قهوة. أخرسني الموقف وكان من الغريب أن يحدث معي ذلك، هل أنا خائنة وعميلة؟ كنت أطرح السّؤال على نفسي وأتخيّل صفعات الطّلبة على وجهي. ما ذنبي إن كنت قد تمسّكت بوطني وديانتي؟ أجل أنا تونسيّة ويهوديّة، كنت أصرخ في وجه تلك الطّالبة، وفي الجميع بكلّ طاقتي إلى أن سقطت.

عندما استفقت داخل غرفة التّمريض رأيت شابًّا بملامح سمراء وابتسامة هادئة. تطلّعتُ إليه في شبه شرود ثمّ أشحت عنه بوجهي. وظلّ هو يتأمّلني ولا يتكلّم، يكتفي بابتسامة خفيفة، ابتسامة تعاطف كما أحسست. فكّرت في تلك اللّحظات أن أرحل نهائيًّا عن تونس وأعود إلى أهلي في مارسيليا. وسأنظر في مسألة إنهاء دراستي عندما أشفى من الصّدمة. ولم يكن من السّهل أن أشفى، فقد كانت الطّعنة موجعة من زميلتي. كان من المفترض أن تعرفني، كما أنا، على حقيقتي، وأن تحترم ديانتي، كما أحترمها وأحترم الجميع. على ما أعتقد، وهذه قضيّة أخرى، كانت حزينة على أطفال غزّة الذين قتلوا بالرّصاص الإسرائيليّ. أنا على وعي بذلك وأدينه بشدّة، لكنّ هذا لا يبرّر اتّهامها لي، ومن الغريب أن تنعتني بـ«الجاسوسة

الإسرائيليّة». بذلت جهدًا جبّارًا لأفهم الموقف وأستوعبه، وفي تلك البرهة العاصفة حدّثتني نفسي أنّي مستهدفة ولا بدّ من مغادرة الكليّة.

اقترب منّي الشاب الأسمر وقال:

-اطمئنّي يا زميلة، وضعك الصحّي مستقرّ كما أعلمني الطّبيب، ولم يكن من الضّروري أن تحملك سيّارة الإسعاف إلى المستشفى.

تراجع قليلاً ثمّ قال بأسف:

-نحن طلبة قسم التّاريخ نتبرّأ من الاتّهام الذي وجّهته إليك منيرة الزيّاني، لا نحبّ هذه السخافة وهذا الافتراء. وليس هذا فحسب، لقد وبّخها الجميع على حماقتها.

لا أخفي أنّي أحسست بارتياح لكلامه، وحصل لديّ انطباع أنّه صادق في كلّ ما قال، فلا شيء يدفعه إلى الكذب أو المغالطة.

-اسمي سعد، سعد الخلفاوي، زميلك في قسم التّاريخ.

قال سعد وهو يغادر غرفة التّمريض. لا أدري لماذا تأسّفت لخروجه، أحببت أن يبقى بجانبي، في عينية الرماديّتين كان ثمّة شرود غريب، مثل شرود طفل معذّب، وأحسست لأوّل مرّة أنّني يمكن أن أثق في أحد الطّلبة.

في الغد، اعترضني سعد في باب الكليّة، لا أخفي ما شعرت به في تلك اللحظة، ابتهج قلبي عندما رأيته، أحسست أنّه مختلف وكان إحساسي غريبًا. عيناه كانتا ممتلئتين وصريحتين، على الأقل، وأنا أفهم

ذلك، ليس فيهما ذاك الفراغ الذي يشي باللّؤم. ابتسم وهو يصافحني ثمّ دعاني إلى شرب قهوة. من الواضح أنّه تخلّص من خجله الذي سيطر عليه عندما التقينا في غرفة التّمريض. الآن، قلت في نفسي، امتلك هذا الشاب جرأة مثيرة. وهكذا اكتشفتُ المشرب الجامعيّ وترشّفت أوّل «كابوسان» في الكليّة، أمّا سعد فقد خيّر يومها «الإكسبراس». لا أنكر حقًّا أنّ لقائي به دفعني إلى التّراجع عن قرار الرّحيل. كنت أعرف بالفعل أنّه قرار متسرّع. وكان من الضروريّ أن أثبت براءتي بشكل حاسم، أنا لا أتهاون في الدّفاع عن كرامتي، أصبح مقاتلة شرسة. وفي مقابل ذلك من المؤكّد أنّ هروبي سيثبت لتلك الحاقدة أنّي جاسوسة فعلًا، ستولول في ساحات الكليّة: ألم أقل لكم؟ إنّها جاسوسة فعلًا يا زملاء.. إنّها خائنة.

قال سعد بكثير من المرح:

- ما رأيك أن ترافقيني اللّيلة إلى سهرة جميلة في جهة المنزه؟ لقد دعاني سميح الفلسطينيّ، طالب الأنجليزيّة، ولا أعتقد أنّك تعرفينه. دعا مجموعة من الطلبة أيضًا، وقال إنّها ستكون سهرة رائعة.

أجبته بابتهاج:

- طبعًا سأرافقك يا سعد، ويسعدني ذلك.

في الحقيقة لم أتردّد في الاستجابة لطلب سعد، كنت متحمّسة لمعرفته ومصرّة أيضًا على أن أثبت لسعد ولجميع الطّلبة أنّي لست جاسوسة ولا خائنة. أنا يهوديّة، ولدت يهوديّة وسأبقى يهوديّة ما

حييت. لم يكن يعنيني أمر السّهر، ولا أجد فيه فائدة، أُخيّر غالبًا القراءة في شقّتي بشارع مارسيليا، فذلك ما تعوّدت عليه منذ جئت إلى تونس لدراسة التّاريخ.

لم أستسغ ليلتها ذلك الطّالب الفلسطينيّ البائس، كان حزني عميقًا وأنا أضيّع وقتًا ثمينا مع كائن مستهتر، معتوه، لا يتشرّف به أيّ فلسطينيّ. ففي الوقت الذي كان الأطفال الفلسطينيّون يموتون فيه من أجل قضيّتهم، كان هذا الصّعلوك يُقيم السّهرات الصّاخبة والماجنة. لم أسمع له حديثا عن فلسطين ولا عن أيّة قضيّة، أعتقد أنّه لم يجرّب الجوع ولا التّعذيب. أعتقد أنّ السلطة الفلسطينيّة متّعته بمنحة استثنائيّة ليدرس في تونس، وها هو يبدّدها في شرب الويسكي والقمار ومعاكسة الطّالبات. أحسستُ بالغثيان وصرختُ، دون وعي، في وجه ذلك الحقير:

– ما هذا؟ كفى استهتارًا.

الوقاحة كما صوّرها أحد الفنّانين خِرقة ملوّثة بالبراز تتقاذفها الرّياح، وقد لاح لي وجه سميح مثل تلك الخرقة. بقيت طوال الوقت أعضّ على أسناني وأتفادى التطلّع إلى ملامحه وحركاته، وبالفعل بذلت طاقةً لأواصل السّهرة من أجل سعد. كلّ العيون كانت شهوانيّة ولاهثة ومثيرة للشّفقة. سعد أيضًا، كان مصعوقًا ممّا حصل أمامه. لم أتخيّل أن أصادف رجلًا فلسطينيًّا يفكّر مثلما كان سميح يفكّر. وأعتقد، وفق سلوكه وكلامه أنّه متواطئ مع الاحتلال الإسرائيليّ، بل أنا متأكّدة من ذلك. قال البائس إنّ تحرير الأراضي

الفلسطينيّة سيكون عبئًا على الشّعب الفقير، ولن تستطيع أيّ سلطة فلسطينيّة أن توفّر الجرايات ولا المنح لمئات الطّلبة في المشرق والمغرب، إنّه مقرف وجبان. كنت أعتقد أنّ السّهرة حركة مساندة لطالب فلسطينيّ مغترب عن أهله ووطنه بسبب الاحتلال. سعد أيضًا كان يعتقد ذلك. كانت سهرة مؤسفة بحقّ، ولا تختلف في شيء عن سهرات الدّعارة.

منذ تلك اللّيلة لم نفترق أنا وسعد، كما توقّعت. كان صادقًا وواضحا، وسرعان ما اكتشفنا -وهذا مثير- أنّنا ننظر معًا إلى الاتّجاه نفسه، وكان ذلك صعبًا في الحقيقة بين ديانتين مختلفتين. لم ينظر إليّ سعد مُطلَقًا بوصفي مجرّد جسد. ومعه استنشقت هواءً نظيفًا ومختلفًا. كان يشاكسني باستمرار ويوشوش في أذني: لقد فزت أخيرًا بقلب أحلى جاسوسة إسرائيليّة، وكنت أقرصه من أذنه ثمّ أتخبّط على صدره ونحن نضحك بشكل مجنون.

إثر ذلك تواردت الأحداث السّعيدة تباعًا، بعد اليأس فاجأتني بوادر الانفراج. فقد اعترضتني تلك الطّالبة التي هاجمتني وشنّت ضدّي حملة شعواء ذات صباح في قسم التّاريخ وطلبت منّي الصّفح، اعتذرت منّي بشدّة وهي تربّت على كتفي. لم أشأ أن أكون فظّة معها، وهذا حقّي طبعًا، فاكتفيت بأن طرحت عليها سؤالًا ملحًّا أمام الطّلبة:

-لماذا اتّهمتني بالجوسسة؟ أرجو أن تجيبي بشكل صريح وتلقائي أمام الجميع.

اشرأبّت الأعناق يومها نحو منيرة الزيّاني، وما لبثت أن قالت بصوت متقطّع ومبحوح:

-الحكاية يا زميلتي، وأرجو ألّا تغضبي منّي، مرتبطة بديانتك اليهوديّة. الجميع كانوا يشيرون إليك بالأصابع، ويتّهمونك خفية بأنّك جاسوسة إسرائيليّة. أعترف أنّ الأحداث الأخيرة في فلسطين ساهمت في هذا الاحتقان، البوليس أيضًا سوّد أيّامنا بالماتراك وبغازاته السّامة. نحن كما ترين في حالة من الاختناق والهشاشة.

صاح أحد الطّلبة من الخلف:

-ليس بالضّرورة أن يكون اليهود جواسيس وقتلة، لابدّ من التمييز بين اليهوديّة وهي ديانة وبين الصهيونية وهي كيان غاصب... وفي المقابل، ألا تتابعون ما يجري في فلسطين؟ ثمّة كثير من الجواسيس والخونة من العرب، ومن الفلسطينيّين أنفسهم.

استأنفت منيرة الزيّاني:

-كان الأمر بالتّأكيد مجرّد اتّهام متسرّع. فعلًا، لا بدّ من أن نراجع الكثير من القناعات الجاهزة والخاطئة، لا سيّما في مسألة نظرتنا إلى الأديان. أعترف أنّي أخطأت، وخطئي كان فادحًا في حقّ زميلتي الطّالبة بقسم التاريخ هيلين ساسون.

لم يطل بي المكوث في مقهى التياترو، أغلقت الحاسوب وناديت النّادل بإشارة من يدي، أومأتْ إليّ الفتاة السّعيدة في الوقت نفسه، وأنا من جهتي رسمت لها ابتسامة مودّة. ما أجمل ما تعيشه من إحساس رائع! بلا شكّ، قريبًا سيصير بدرًا، أسررت في داخلي، ولا أظنّ

أنّ هناك من سيقذف بدرَهما بالحجر، مثلما حدث معنا، أنا وسعد. مررت بالسّفارة الفرنسيّة، وتطلّعت عيناي نحو الأعلى، لمحتُ مكتبي القديم، ابتسمتُ له واستعدتُ لبرهة مرحي في ذلك المكان، فلوّحتُ بيدي وأنا أستأنف السّير، الصّور العظيمة لا تتحنّط، إنّها تلهب الخيال باستمرار. انتبه البوليس الواقف إلى إشارتي، تململ وهو يتفحّص وجهي، حيّيته بلباقة ثم أسرعت الخطى نحو «باب بحر».

لأوّل مرّة، وأنا أعبر نهج جامع الزّيتونة، لا أهتمّ بكلّ ما يعترضني، لم أرَ الدكاكين ولا الأشكال والألوان ولم أسمع أصوات النحّاسين ولا أصوات الباعة وضجيج المارّة. كنت أتخطّى الحشود أمامي بقلب حزين لا يرى ولا يسمع ولا يشتمّ أيّة رائحة. لمّا وصلت إلى ساحة رمضان باي تسلّلت إلى نهج الباشا ثمّ مِلت إلى نهج سيدي إبراهيم الرّياحي ثمّ نهج القرمطو إلى أن أدركت سوق القرانة كما يحبّ أهلي أن يسمّوه. لم أتّجه إلى باب سويقة مثلما تعوّدت، اخترت الأنهج الملتوية كأفعى، ربّما لأنّي كنت مهشّمة من الدّاخل، فضّلت تشعّبات الأزقّة والتواءاتها، كنت أمشي هائمةً، شاحبة الوجه ومتعكّرة.

لمّا دخلت إلى مقام سيدي محرز أحسست بارتياح، لم تعد تصلني حمّى الأصوات المبحوحة التي كانت تلاحقني. لم أنس بطبيعة الحال أن أقتني شالًا أبيض أغطّي به رأسي. شيرا حدّثتني مطوّلًا عن آداب زيارة مقام سيدي محرز. غمرتني رائحة البخور العجيبة وأنا أسير باتّجاه السّقيفة، ثمّ تقدّمت باتّجاه الصّحن لأدرك المقام. وقفت أمام الحاجز الخشبيّ الأخضر والأصفر، التّابوت مزيّن بمختلف الألوان وتحيط به السّناجق. كنت في حالة خشوع تامّ وأنا أتحسّس الحاجز

المزركش ثمّ أرمي شمعتين وقرطاس بخور على الزربيّة. لم أستنشق رائحة عجيبة من قبل مثلما استنشقتها وأنا في حضرة مقام سيدي محرز، كانت مزيجًا ساحرًا من البخور والمسك والعنبر، تفوح في كافّة الأرجاء، وتنبعث أيضًا من الجهة اليمنى حيث يوجد ضريح للّا خديجة بنت سيدي محرز.

عندما تراجعتُ قليلاً قابلتني امرأة مشرقة الوجه، ناولتني شربة ماء من الزّير وهي تقول: «اشربي يا بنتي ماء سلطان المدينة، اشربي يا بنتي الماء المبارك، ماء يشفي المريض ويهنّي الولايا بجاه النبيّ محمّد مولانا».

بقيت ثلاثة أيّام بلياليها في زاوية سيدي محرز، سلطان المدينة، رمز العطف والرّحمة. كنت محتاجة إلى كرامات ذلك الرّجل ومتشوّقة في كلّ لحظة إلى شربة ماء باردة متدفّقة من العين. كانت الحاجّة لطيفة مصرّة على أن أبقى ضيفة الزّاوية لمدّة أطول من زيارة عابرة، لا أدري، ربّما تشمّمت عطري وعرفت أنّي مختلفة عن بقيّة النّساء. طبعًا أهديتها زربيّة صغيرة اقتنيتها من السّوق بالإضافة إلى علبة شمع. في الحقيقة، كنت محتاجة إلى البقاء أطول وقت ممكن في هذا المقام الذي يحاذي حيّ الحارة حيث سكن أهلي. كانت أمّي تحدّثني منذ كنت طفلة عن حيّنا القديم، تحدّثني وهي تبكي.

تقول أمّي: «أجدادنا طردوا من إسبانيا، لقد عانوا من القهر والتّصفية الجسديّة في أيّامهم. هاجروا أوّلًا إلى مدينة قرنة ليفورنو في إيطاليا وكان الدّوق الكبير فرديناند الثّاني رحيمًا معهم، إذ أتاح لهم فرص الأعمال التجاريّة ومنها تجارة الذّهب. ولكن بمجرّد

وفاة الدوق سنة 1637 عاد إحساسهم بالضّيق والمهانة، وكأنّ ذلك قدرهم. فاضطرّوا إلى الهجرة نحو تونس واستقرّوا بحيّ الحارة. أجدادنا لم يكونوا عالة على أحد، صحيح أنّهم لم يكونوا أثرياء لكنّ الكثيرين استطاعوا بعد مُدّةٍ شراء البيوت والدّكاكين. لم تكن تلك المحلّات على وضع جيّد غير أنّهم أصبحوا ملّاكة، مثل بقيّة الأجوار، ومنهم من تناقل تجارة الذّهب والأقمشة وبرع فيها. أدريان والد إليف كان تاجر ذهب، ودكّانه في وسط سوق القرانة محاذيًا لمقام سيدي محرز. وإليف كان طفلًا وسيمًا، هادئ الطّباع. كنت ألمحه في الصّباح الباكر، مثلما تلمحه بقيّة فتيات الحيّ، وهو يمرّ من أمام بيتنا رفقة والده. أشاغبه خلسة، أبتسم له، أرسل صفيرًا خافتًا، لكنّه لا ينتبه ولا يأبه بأيّ شيء. كنت حزينة لأنّ بقيّة الفتيات يفعلن ما أفعل، بل إنّهنّ يشاكسنه جهرًا بكلمات عشق، وكان وجه المسكين يحمرّ، فيضطرب في مشيته إلى أن يغيب في منعرجات الزّقاق.

سوق القرانة كان مركزًا تجاريًّا حيًّا على مرّ السّنة. اشتهر بحركيّته في صناعة الأغطية الصّوفيّة والشّاشيّة وتجارة الذّهب. حيّنا كان ملاصقًا له، تصلنا جلبة فتح الدكاكين وعرض البضائع بعد أذان الفجر. جلبة المارّة أيضا لا تتأخّر وهم يعبرون السّوق، الأطفال يسيرون متثائبين نحو الكتاتيب القريبة ويمضي الكبار إلى جامع الزّيتونة والمدرسة الصادقيّة ومدرسة اليهود وليسي كارنو. أغلب أهل حيّنا يدرّسون أبناءهم في ليسي كارنو وفي مدرسة اليهود التي كانت تُسمّى بـ«المدرسة الإسرائيليّة» ، والمدهش حقًّا أنّ بعض الأمّهات من حيّنا كنّ يرسلن أبناءهنّ إلى الكتاتيب لحفظ القرآن

وترتيله. كنّا نرى أمرهنّ غريبًا في بادئ الأمر، لكنّنا فهمنا بعد ذلك أنّهنّ كنّ حريصات على تمتين العلاقات بعائلات المسلمين».

يذكر إليف، هكذا تقول أمّي، أنّ سنة 1942 شهدت محرقة كبرى لأهلنا اليهود من قبل الألمان والفرنسيّين على حدّ سواء. تدمع عينا إليف وهو يروي الحكاية: «كنت في دكّان والدي عندما اقتحم جنديّان ألمانيّان دكّان أبي ونهبا كلّ الذهب الذي فيه، وحين احتجّ ضربه أحدُ الجنديّين على رأسه بقطعة حديديّة فسقط أمامي بلا حراك، تكسوه الدّماء. كنت آنذاك طفلًا صغيرًا، أبكي وأرتعش ولم أصدّق أنّ أبي مات. اقتربت منه، انحنيت على وجهه وتشمّمت رائحته. منذ برهة كان يحتضنني، قبّلت رأسه ثمّ يده المضرّجة بالدم، كانت يده باردة. لا أدري بعد ذلك كيف جريت في السّوق وأنا أصرخ وأبكي بكاءً مرًّا إلى أن أدركت بيتنا. وحالما قابلت أمّي انتفضتُ بين يديها كعصفور مبلّل وصرخت: «قتلوا أبي يا أمّي، لقد قتلوا أدريان»».

عاش إليف يتيمًا وحزينًا، لم يستطع أن ينسى قَطُّ مشهد قتل أبيه أمامه، وعندما كبر أصرّ على إحياء تجارة الذّهب في الدّكان نفسه الذي شهد مقتل والده أدريان. كان يشتغل ليلَ نهار بقلب من حديد. وفي الكثير من الليالي، حسب رواية أهل حيّنا، كان إليف ينام في دكّانه الذي عرف فيه صدمة موت والده.

إنّه تاريخنا المؤلم والحزين الذي لا أنساه، ولم ينته بنا الأمر إلى ذلك الحدّ، تسترسل أمّي في سرد الحكاية وعيناها محمرّتان من فرط البكاء:

«تعرّض حيّنا إلى شتّى أشكال الاحتقار والكراهيّة، لم تكن لنا عداوات مع جيراننا من المسلمين، لم تحصل بيننا قطُّ مشاحنات أو خصومات، وكنّا نتبادل الزّيارات في المآتم والأفراح. أذكر أنّ إليف كان يخصّص مبالغ ماليّة لبعض العائلات الفقيرة التي تسكن بجوار حيّنا. وكان يشغّل شابَّيْن معه في الدكّان خلال الفترة المسائيّة من كلّ يوم. في الصّباح يتردّد الشابّان على جامع الزّيتونة ثم يغادرانه إلى دكّان الذّهب. ما حصل في الكثير من اللّيالي كان رعبًا حقيقيًّا. كانوا غرباء وملثّمين، يهجمون على بيوتنا ويسرقون أموالنا وذهبنا. دكّان إليف أيضًا لم يسلم من النّهب ومحاولة الحرق، لم يكونوا من جيراننا، بكلّ تأكيد، كانوا غرباء وملثّمين.

لن أنسى تلك الليلة المثقلة بالرّعب، ولا أدري لماذا كان إحساسي حينها مثخنًا بالخوف، الهواجس كانت تحبس أنفاسي وتجعلني متكوّمة في سريري، والشمعة المشتعلة بجواري تضطرب وكأنّها تصارع وحيدةً في الظلام. وفجأةً، لا أدري كيف حصل ذلك؟! داهمني رجل طويل القامة عريض المنكبين، قفز كشبح، عاينت وجهه الملثّم، فأطلقت صرخة مدويّة فزع لها كلّ سكّان حيّنا.

صرخ الرّجل:

-اخرسي يا كافرة، لعنك الله.

انقضّ عليّ البائس وكمّم فمي بيده الغليظة ثمّ شرع يفكّ أزرار سرواله. قاومته بكلّ ما أوتيت من قوّة وتصدّيت ليده التي انهالت على صدري ثمّ أسفل بطني. كان يشخر مثل حيوان، وعندما يئس

منّي أحاطت يداه بعنقي وحاول خنقي. كنت على وشك الموت ولا أدري كيف أنقذني الجيران من براثنه، جروا وكان إليف يتقدّمهم، انهالوا عليه ضربًا ولطمًا إلى أن تسلّل ذليلا. أنا وإليف كنّا طفلين، لكنّنا بدأنا نكبر ونفهم الدّنيا وتلك الحادثة على قساوتها مثّلت منعرجًا في حياتنا، وكنّا نؤرّخ بها لقصّة حبّنا العظيمة.

ما حدث في جوان من سنة 1967، على ما أذكر، أفاض الكأس تمامًا، ولم يعد ثمّة مجال للبقاء في حيّ الحارة. هزيمة العرب هيّ الشّرارة التي أوشكت على إحراقنا بالكامل، ولولا جيراننا من المسلمين لهلكت عائلات حيّنا. كانوا يحموننا من هجمات الملثّمين ليلَ نهار. بعد ذلك، تسارعت الأحداث وكثر العنف والتشفّي، ولم يعد أحد يقوى على التصدّي للملثّمين والغاضبين، ويئس الجميع من حمايتنا. كناّ نتابع الأحداث بكثير من الخوف ونسمع الأصوات الحادّة من خلف نوافذنا المغلقة: اليهود على برّه، الكفّار على برّه.

في تلك الأيّام هاجرت الكثير من عائلات حيّنا إلى فرنسا، واضطررنا إلى بيع أغلب ما نملك بأبخس الأثمان، كنّا نبيع لجيراننا من المسلمين الطيّبين، بعنا بيوتنا ودكاكيننا وملابسنا وأغطيتنا. كنّا في سباق مع الزّمن، نفرّط في كلّ ممتلكاتنا ونسرع لإتمام إجراءات السّفر. ومن حسن الحظّ أنّ عائلتي رافقت عائلة إليف إلى مارسيليا، وبعد ثلاث سنوات من سفرنا تزوّجنا، أنا وإليف».

تصمت أمّي في تلك اللّحظات، أغلب حكاياتها تنتهي بحدث الزّواج. في البداية لم أفهم سرّ تكرار روايتها لهذا الحدث، وبعد ذلك،

فهمتُ منها أنّ الفتاة اليهوديّة عليها أن تتزوّج يهوديًّا، وشيرا لا تمزح في هذا الأمر. قالت إن تزوّجت الفتاة بغير يهوديّ فإنّ ذلك نذير شؤم على العائلة، هكذا هي أحكام أهلها منذ كانت صغيرة، وكانت تلك الإشارات مثل الضّوء الأحمر الذي يدعوني إلى التوقّف بشكل قسريّ. فأومئ برأسي موافِقةً مع كلّ حكاية ويتملّكني وجوم أخرس.

لا أفهم سبب إصرار الناس على وضع الحدود فيما بينهم وقد خلقهم الله ليتحابّوا، ولا سرّ تباغضهم وتناحرهم باسم الدّين، والأديان كلّها تقود إلى طريق واحدة، لماذا نتقاتل على الطريق وننسى المآل الّذي تقود إليه تلك الطريق؟ مازلتُ أذكر إلى اليوم مدى فرحتي بالتعرّف إلى شيخ المسلمين الأكبر عندما درَسْنا تاريخ التصوّف الإسلامي في الجامعة، وما تزال أبياته تتناهى إلى ذاكرتي كلّما ضاق بي الحال:

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي — إذا لم يكن ديـــني إلى دينه داني

لقد صار قلـبي قابـلاً كُلَّ صُورةٍ — فمرعىً لغزلانٍ وديـرٌ لرُهبانِ

وبيتٌ لأوثـــانٍ وكعبةُ طـائـفٍ — وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قـرآن

أَدينُ بديـنِ الحُـبِّ أنّى توجّهتْ — ركـائبُهُ ، فالحُبُّ ديـني وإيـَماني

لو كان ابن عربي حيًّا اليوم فماذا سيقول وهو يرى مسلمًا ملثّمًا يريد أن يغتصب امرأةً هشّةً، لا لشيء إلاّ لأنّها لا تشاركه الدين نفسه؟ وماذا سيقول شقيقه في المحبّة والطريق سلطان المدينة سيّدي محرز بن خلف وهو يرى أحفاد اليهود الّذين آواهم وسمح لهم بالسكن داخل سور المدينة، أحفادهم الّذين لم يتوقّفوا يومًا عن زيارة مقامه

أسوةً بجيرانهم المسلمين.. ماذا سيقول إذا استيقظ من سباته بغتةً ورآهم يُقتلون ويُغتصبون لأنّ ثلّة متطرّفةً من بني ملّتهم ترتكب المجازر نفسها في مكان آخر باسم الإله نفسه الّذي تضرّج بالدماء من كلّ جانبٍ حتّى اختفى؟

في ليلتي الأولى داخل القاعة الفسيحة في مقام سيدي محرز لم أستطع النّوم، مطلقًا، لم أكن مرهقة أو قلقة، كنت في غاية الامتلاء الرّوحي، وفي حالة خشوع، تجاوزت مرحلة التوتّر التي حصلت لي مع سعد، وزادتني تلك الرّوائح المدهشة ارتياحًا. في تلك الآونة السّاهمة وأنا سابحة في الملكوت خُيّل إليّ، بين نوم وصحو، أنّ سيدي محرز يقف أمامي بجبّته الطّويلة المخطّطة بالأسود والأحمر. صوت في داخلي هتف لي أنّ من يمثُل أمامي بعمامته البيضاء وجبهته العريضة هو سيدي محرز. أضاءت ابتسامته القاعة الفسيحة وطالعني بكامل سحره ووقاره. شبكت يدي وهتفت باتّجاهه: «يا سيدي ومولاي، أنقذني من العذاب، بركاتك يا سيدي، قلبي مسكون بالحبّ، لقد وهبني الربّ حبّ حياتي، لكنّني تهت يا سيدي وغامت أمام أقدامي الطريق. لو أنسى أمُتْ ولو أتقدّم يبتلعني العذاب. أنت سيد العارفين، زواجي بمسلم مرفوض من أهلي وديني، زواجي خطيئة كبيرة يا سيدي، أنقذني، إنّي أستغيث بك، لقد هدّني التّفكير..»

لاذ الشّبح الماثل أمامي بالصّمت لحظات، ثمّ أحسست أنّ نظراته تجول في كامل وجهي، وبعد فترة من الزّمن استمعت إلى هتافه: «لو كنّا في زمان غير هذا الزمان لقلت لك لا تستمعي إلاّ لدقّات قلبك، ولكنّ الطريق، يا ابنتي، مخضّبة بالدماء.»

قفزت من فراشي لأحتمي بسيدي محرز، كنت أهتزّ من الرّجفة، أسأل نفسي المعذّبة، هل يلاطفني سيدي محرز مثل للاّ خديجة ويعطف عليّ مثلما يعطف على الفتيات المسلمات الزاحفات إلى مقامه؟ كنت أمدّ يدي نحوه، وفجأةً اختفى الشّبح الذي كان يتراءى أمامي وذاب في أضواء خافتة ومتكسّرة تتسلّل من النّافذة.

ما حدث في تلك الأيّام الثلاثة كان شبيهًا بمعجزة. قذف الرّب في داخلي إحساسًا آخر، أحسستُ بالفعل أنّي تحرّرت، لم يعد باطني يحترق وتجاوزت كابوس العذاب. أيقنت أنّ سيدي محرز استجاب لي فحرّرني. كنت أستفيق مبكّرة وأمضي إلى السّوق، أتابع حركة الباعة وأتسلّل بين صفوف المارّة متّقدة ومتحمّسة، أقتني حلوى دبّوس الغول ثمّ أجري كما يجري الأطفال.

مضيت إلى حيّ الحارة وتحسّست جدران دكاكينه ومنازله. الجدران مزدانة بالزّخارف والنّقوش، تدفن تاريخًا مليئًا بالأحداث والأسرار، الأبواب شاهقة ومنقوشة بعناية، الحفر والنّدوب كثيرة والتشقّقات متّسعة في أعلى الجدران. كنت أعرف أنّ الحيّ تغيّر كثيرًا، والمباني الحديثة تهاجمه وتكاد تبتلعه. تسلّلت إلى نهج الذّهب، دفعت بابًا أمامي، وصلني أنين مفاصله. لا أحد انتبه إليّ، كانوا يعبرون على عجل، العيون المشوّشة والمتعبة تمشي وتمشي ولا تكترث بي. رسم خيالي بيت أمّي، سرت ثلاث خطوات ثمّ صرخت: «هذا بيت شيرا القديم». تقدّمت خطوات أخرى، وضعت عينيّ في ثقب الباب ثمّ تراجعت، تناهت إليّ رائحة إليف، تضوّع عطره، أجل، أجل إنّها رائحة أبي. سرت باتّجاه السّوق، دقّقت النّظر في الدكاكين،

قلّبت كلّ محتوياتها، ملابس وأقمشة وأغطية ومفروشات وبخور وعطور وهدايا. عثرتُ أيضًا على دكّان الذّهب، خمّنت أنّه دكّان إليف القديم، دخلت وتنفّست بعمق، انفرجت شفتا الطّفل عن ابتسامة عريضة وأنا أعاين الأساور والخواتم المعروضة، لا بأس، قلت في داخلي، سأصلّي لأدريان. إثر ذلك غادرت الدكان وتبعتني نظرات الطّفل بكثير من التحسّر، فرح بدخولي الدكّان وانتظر أن أقتني شيئا من بضاعته، لكنّي خذلته على ما أعتقد. لوّحت له بيدي وفهم من إشارتي أنّي سأعود، وظلّ الطفل يرمقني مبتسمًا إلى أن غادرت. لهثت قدماي بعد ذلك وأنا أصعد الدّرجات وأعبر الممرّ نحو باب سويقة ثمّ أتّجه إلى الحفصيّة. حيّ الحارة كان شاسعًا ورحبًا. مشيت وسمعت أصوات الماضي، أنفاسي كانت منبهرة، تفجّر شريان عشق لكلّ المباني التي اعترضتني، لامستها وداعبتها، تناهت إلى مسمعي موسيقى أندلسيّة وأناشيد وتراتيل قرآن. تبعني رجل مقوّس الظّهر، انتبهت إلى أنّه متسوّل، وقفت ووضعت في كفّه ورقة نقديّة. تابعتني امرأة عجوز، كانت شاحبة الوجه، لوّحت لها بيدي، ابتسمت لي وهي تعبر الطّريق. عاكسني أحد الشبّان، لم أكترث، تعمّدت قراءة الشعارات أمامي: *هيثم +نجلاء= حبّ.. أرجع غدوة.. خمّاججججج.. يا عسل*. ولم أنتبه إلى آثار كتابات أخرى على الجدار أزيحت بالدّهن الأحمر.

حينما كلّت قدماي عدت إلى مقام سيدي محرز، التصقت بصفوف النّساء المزدحمات في السّقيفة، الأجساد ساخنة والوجوه تتصبّب عرقا. تأمّلتني إحدى الفتيات، عانس على ما أعتقد، نحن

النّساء نميّز العانس من المتزوّجة، نبحلق طويلًا ونعرّي كلّ شيء. ابتسمت لها وناولتها ما تبقّى في يدي من حلوى دبّوس الغول، زمّت شفتيها وتمنّعت بحركة من رأسها، عيناها مزدحمتان بحزن ثقيل ويداها متشنّجتان.

قالت بعد أنت أجرت بحثًا في وجهي:

- «نا لاني بايرة لاني هجّالة، عرسي قريب ومكتوبي في الجّيب».

أجبتها وأنا أحاول العبور:

- «وأنا للاّ زيتي في الكوز وخبزي مخبوز».

ندّت منّي ضحكة كادت تورّطني، أدارت لي الفتاة ظهرها، شملني ارتياح وتعلّق بصري بالجهة المقابلة. أومأت لي امرأة برأسها، انضممت إلى النساء الرّاقصات في الصّحن، كنّ يرقصن منتفشات الشّعر ويلهجن بأدعية وكلمات مبهمة. رقصت مثلهنّ منتفشة الشّعر وبين فينة وأخرى كنت أمتصّ حلوى دبّوس الغول وأتابع حركة الحاجّة لطيفة وهي تتسلّم الشّموع وقراطيس البخور وتضع الأوراق النقديّة في فتحة فستانها عند الصّدر.

في فجر اليوم الرّابع غادرت مقام سيدي محرز واتّجهت إلى المطار. يد حديديّة كانت تقبض على قلبي وتدعوه إلى البقاء في تونس، في تلك اللّحظات سرى في أوصالي الحنين إلى سعد، باغتتني ضحكته أوّلًا ثمّ عصف بي حضنه. وفي لحظة قاسية، ارتعشت فيها يداي اتّخذت قرارًا حاسما بالسّفر، أجل، أمكن لي في الأخير أن أحسم قراري وأهرب.

(3)

صبّاط الدّزيري

2 ديسمبر 2010

على خلاف ما توقّعت، نادية لم تكن امرأة ليل..

استفقت مبكّرًا، على غير عادتي، بمزاج فاسد. أشعلت سيجارة وفي تلك اللّحظة تفطّنت إلى أنّي نمت في الصّالون، شيء مخيف أن أنسى، تذكّرت نادية، لا شكّ أنّها ما تزال نائمة في غرفة النّوم. جبيني يرشح عرقًا، في ديسمبر أعرق، أمر غريب، التوتّر يجعلني متقلّبًا وحادّ الاكتئاب. حلمي أيضًا كان كابوسًا، لم أتعوّد أن يأتيني أبي في النّوم وفي تلك الملامح الغاضبة: «انهض، لقد ضاعت الخرفان في الوادي بسبب بلاهتك، وضاع كلّ شيء، انهض يا كلب..» ثمّ يداهمني أبي في سقيفة بيتنا ويضربني بسلسلة حديد. تصرخ أمّي في الأثناء من غرفة نومها: «فرخ الحرام، وجه الفقر». ظلّ أبي يضرب ويضرب حتّى استفقت. كنتُ في حالة عطش، عندما أشرب النبيذ أعطش. شربت من قارورة ماء كانت بجانبي ثمّ حاولت العودة إلى النّوم، لم أستطع بالمرّة إغماض جفنيّ، تململتُ ونبَتَ صُداع ثخين في رأسي، حتّى أصبح رأسي الملدوغ في حالة هيجان. لا أستطيع أن أنهض وأبحث عن حبّة دواء في غرفة النّوم، لا يمكنني أن أتسلّل إلى هناك

والمرأة نائمة، ماذا ستقول عنّي؟ «كنت أمامه، عارية، في متناوله ولم يتحرّك، والآن، لا شأن لي بِدُودَتِه التي تتحرّك في غير وقتها». بالطّبع، خيّبت أملها، ستتأمّلني بريبة وتقهقه بصوتها الدّاعر. الغريب أنّي لم أصرخ في الحلم وسلسلة الحديد تنهال على يدي، أبي كان يوجّهها نحو رأسي لكنّها تنهال على يدي، وصوت أمّي لا ينقطع في أذني: «فرخ الحرام، وجه الفقر». تلمّست يدي اليمنى التي تلقّت ضربات أبي وفركت أصابعي، يدي لا تؤلمني، ولكنّ الألم كان حادًّا في رأسي، والغريب أيضًا أنّ أبي لم يصرخ في وجهي يومًا ولم يعنّفني، وحضوره في الحلم بذاك الشّكل أرعبني حقًّا.

نادية لم تكن مومسًا بالفعل، المرأة لم تكذب. البارحة، بعد أن خرجَتْ من غرفة الاستحمام ارتدت تبّانها الأسود أمامي بحركات متراخية كأنّي لست موجودًا معها في الصّالون. لعلّي كنت في رأسها حجرة أو خرقة، كانت ترتدي ملابسها بحركات بطيئة وتستثيرني بمؤخّرتها، فقلت في سرّي: «هذه المرأة لا يمكن أن تكون عاديّة، ميزة عدم الاكتراث لا تتّصف بها إلّا امرأة تنتمي إلى عصابة، عصابة خطيرة بالتّأكيد». كانت ترمقني بنظرة واثقة، لا يعتريها حرجٌ أو قلق من أيّ شيء، جلسَتْ بجواري على الكنبة ورفعت ساقيها عاليًا ثمّ ارتدت سروال الجينز وهي تتلوّى كأفعى، استوت واقفةً إثر ذلك ولبست قميصًا صوفيًّا واسع الرّقبة. نظرتُ إلى حركاتها بصمت، وهي أيضًا ظلّت صامتة، ثمّ تناولَتْ سيجارةً من محفظتها وقالت:

- أريد قهوةً الآن قبل أن نبدأ الشّغل يا.....

- سعد.

تسلّلتُ إلى المطبخ وأعددتُ فنجانَي قهوة، ثمّ عدتُ. أمّا هي، فقد نهضَتْ من مكانها بلا اكتراث، ثمّ جلسَتْ قبالتي وظلّت تتأمّل ملامحي في صمت. عيناها زرقاوان، ضيّقتان، أنفها صغير وشفتاها ممتلئتان، بيضاء البشرة وشعرها فاحم، والمثير في وجهها هو ذقنها، بدا ملتمعًا وناعمًا. لم تطل بنا حالة الصّمت. وفي الواقع، أحببت أن تطول لأتمكّن من فهم هذه المرأة الغريبة الأطوار، لا هي من الإنس ولا هي من الجان. ندّت عنها ضحكة ماكرة ثمّ أمسكتني من كتفي وهمست:

- نحتاج إليك في شغل يا سعد.

دوّت كلماتها في أذني، فوضعتُ فنجان القهوة جانبًا وأشعلت سيجارة، حاولت أن أحافظ على تماسكي رغم حالة السّكر. تفحّصت ملامح وجهها بدقّة أكبر، قلت في نفسي: «مستحيل! هذه المرأة كانت تتعقّبني ثمّ بقيت تنتظرني أمام البار إلى أن خرجت وسلّمتُها نفسي، الغباء هو الغباء، كنت أظنّ أنّ الأمر صدفةٌ مَحْضٌ، فإذا به ملاحقة ومراقبة وشغل عصابات. وعلى هذا النّحو فإنّ هذه المرأة لا يمكن أن تكون بمفردها ومن المحتمل أن يكون أفراد العصابة أمام باب الشقّة ينتظرون فقط إشارة منها لمداهمتي».

تابعت نادية:

- الأمر بمنتهى البساطة متعلّق بكنز، أرشدنا إليك شيخ مغربيّ، قال لنا: «عليكم بسعد، إنّه صيّاد الكنوز». وكم كان الأمرُ

مدهشًا حين اكتشفنا أنّك جارنا، هنا، في هذه الوكالة. الحقّ، لم نكن نعرفك.. ولعلمك تعمّدتُ ملاحقتك والظّهور أمامك في ملامح مومس.. كنت أستدرجك، لقد أرهقتني يا رجل. فكّرنا طويلًا في ذلك، هكذا هو شغلنا، يحتاج منّا إلى مغامرات وتنازلات.. طبعًا، أعرف أنّك اشتهيتني، ومعك حقّ، لكن للأسف، أنا لا أصلح للاشتهاء. ولم يكن من الممكن أن أطرق باب شقّتك وأعلمك بحكاية الكنز، الأمر سيكون ساذجًا وسخيفًا، وقد تطردني.

– طيّب، فهمت ، لكن من أنتم؟. أنت.. ومن معك؟.

– فقط معي شيخان مغربيّان، الشّيخ مرزوق والشّيخ إسماعيل.

– أنا لا أتحمّل هؤلاء الشّيوخ، ولا أصدّق أنّك تؤمنين بشعوذتهم.

– في الحقيقة، هما صاحبا الخريطة التي سترشدنا إلى الكنز.. هذا كلّ شيء، ولن تكون مجبرًا على التّعامل معهما.

– وأين يوجد الكنز؟

– هنا.

– هنا أين؟ هل أنت بلهاء؟

– أنا لا أمزح، هنا فعلًا، في الوكالة.

– لكن، كيف؟ الأمر غريب.

– إن وافقت سيطلعك الشّيخ مرزوق غدًا على كلّ التّفاصيل.

تذكّرت في تلك اللّحظات ما كانت هاجر ترويه لي، كانت تقول: «الشقّة السّفلى مصيبة، بها شيخان مغربيّان، وتتردّد عليهما امرأة في الصّباح الباكر عادةً، عيناها زرقاوان وأنفها صغير»، هكذا كانت تصفها لي، وهي بطبيعة الحال ملامح نادية. من يطاردني أيضًا في هذه البلاد، جوهر ونادية والبقيّة، من؟ من؟ وما أثار دهشتي أنّي معروف عند الشّيوخ المغاربة، هؤلاء الأبالسة الذين يأكلون الأخضر واليابس بأكاذيبهم. ذات مرّة اتّصلت بالشيخ الحسين في نزل قريب من باب بحر، كان أبي على معرفة قديمة به. اقترحت عليه أن يساعدنا في فكّ طلاسم إحدى الدّفائن في سبيطلة. فاجأني بشروط مجحفة، ظلّ يفكّر وقتًا من الزّمن ثمّ أملى عليّ شروطه وهي أن أجلب له حفنة من تراب الأرض المعنيّة، ولا بدّ أن تكون تلك الحفنة من أقرب مكان من الدّفينة، ثمّ طلب منّي إحضار فتاة لا يتجاوز عمرها خمس سنوات، تكون عيناها زرقاوين، بالإضافة إلى خمسة عشر ألف دينار ثمن البخور الذي ينبغي أن يتكوّن من لوبان ذكر وفيجل وفاسوخ أسود وجاوي وغيرها من المواد التي لا أستحضرها. طبعًا، صرفت النّظر عن هذيان الشّيخ الحسين وكان ذلك درسًا مهمّا حتّى لا أكون أبله لشيوخ السّحر والحروز الصّفراء.

ازداد هيجاني في تلك اللّحظة وأنا أطرح الأسئلة، صيّاد الكنوز؟ هذه الكنية التصقت بي في القصرين، في وادي الدّرب تحديدًا، كيف؟ كيف عرفوا هذه الكنية هنا، في تونس العاصمة؟ طرحت أكثر الأسئلة حول هذه الجنيّة التي لا تكترث بشيء، كيف يكون شعورها وهي معي في الشّقة؟ وكيف تسمح لنفسها بالتعرّي أمامي بلا اكتراث؟

فهذا يُسمّى في القانون تحرّشًا فاضحًا، ولو حدث الأمر مع رجل غيري لاغتصبها. أنا أيضًا لم أكترث، لست حيوانًا لأضاجع امرأة بلا إحساس، صحيح أنّني دعوتها إلى بيتي بمحض إرادتي، لكنّني كنتُ أحتاج إلى اشتعالٍ يحدث بيننا بغتةً ثمّ تتمّ العمليّة بإحساس وتناغم وتبادل للخبرات، هكذا أحبّ. «لا أصلح للاشتهاء»، قالت، لأيّ شيء تصلح هذه المصيبة إذن؟

أمسكتني من يدي وسألتني:

-إيه ، أنت ، يا سعد، هل فكّرت في الأمر؟ هل أنت موافق؟

ليقيني أنّه ينبغي أن أحسم الأمر سألتها:

-هل أنتم على يقين من وجود الكنز؟

تجاهلت سؤالي كأنّ الأمر لا يعنيها.

-أوافق، بشرط أن أحصل على ربع الدّفينة.

-ألف دينار، ذاك ما اقترحه الشّيخ إسماعيل، لا أكثر ولا أقلّ.

-الرّبع.

-ثلاثة آلاف دينار.

-الرّبع.

-أربعة آلاف دينار تونسي.

-قولي لشيخيك الثّلث، وهذا آخر كلامي. غدًا أعاين الشقّة ونرتّب العمليّة.

ما فهمته أنّ نادية هي فرد من شركة وهميّة، أفرادُها –أغلب الظنّ– فتاةٌ جميلةٌ مُغامِرة، وشيخ روحانيّ، ومراقبٌ ملتقِط للأخبار عن بعد. والأكيد أنّ كراءهم للشّقة السّفلى تمّ على أساس معلومات دقيقة بوجود كنز، ولا أشكّ بالمرّة في امتلاكهم خريطةً موجّهة إلى مكانه بكامل الدقّة. لم أشأ أن أسألها بطبيعة الحال، أعرف أنّها لن تجيبني، الأمر يبقى سرًّا إلى أن تحين الساعة الصّفر، ساعة الحفر أعني، وأعتقد أنّها كانت مجبرة على الموافقة عندما حسمت الأمر. ثلث الكنز ليس بالأمر الهيّن، لم يكن أمامها خيار آخر، فقد خرج السّر الآن، ولمن؟ لصيّاد الكنوز. الأمر الآخر، هو أنّ نادية هي صاحبة القرار، أنا متأكّد، أمّا الشّيخان فأعرف مهمّتهما.

توجّهت نحو غرفة النّوم لأتلصّص على نادية وهي نائمة، همس رأسي: «قد يسقط الغطاء عن مؤخّرتها فأبحلق فيها من جديد»، وكان لا بدّ أن أكون على يقين أنّ حالة السّكر ليست هي السّبب في ما أصابني من لوثة الافتتان بتلك المؤخّرة. لو تشاهد أمّي ما يحصل في شقّتي ستولول في كامل الحيّ: «هالفرخ الحرام كبر ولّالي نمس وعليه الكلام». فتحت الباب برفق مخافة أن تنهض نادية فتصرخ في وجهي: «يا حيوان». تفطّنت إلى أنّ السّرير شاغر ومرتّب بعناية، غادرت غريبة الطّباع إذن. لا شكّ أنّها التحقت بالشّيخين لتعلمهما بموافقتي. اقتربت من السّرير فعثرت على ورقة صغيرة بحجم علبة دخان، لم تكن مطويّة، التقطتها وقرأت: نحن في انتظارك يا سعد بالشقّة السّفلى، يُمكنك أن تأتي ظُهْرًا.

استمعتُ إلى نقرات خفيفة على باب الشّقة، تنفّستُ عميقًا

وجريت نحو الباب، قلت في نفسي: «لقد عادت، وهذا مدهش، ولن تضيع منّي مؤخّرتها هذه المرّة.. باغتتني وأنا أحبّ المباغتة».. خشيت في تلك اللّحظة أن تتفطّن هاجر فينقطع الحبل ويسقط السّطل في البئر. بحركة سريعة ومهتاجة فتحت الباب، انتصب أمامي جوهر بمعطفه الأسود، ارتجفت ركبتاي وخفق قلبي. أوّل شيء خطر ببالي أنّ كابوسًا يطاردني، الأمر ليس طبيعيًا بالمرّة، إمّا أنّي فقدت عقلي أو أنّهم سرّبوا في النّبيذ الذي شربته مادّةً متلفة للأعصاب. رمقني جوهر بطرف عينه وعبر إلى الصّالون، لم يتكلّم ولم يستشرني في الدّخول، لم يسبق له قطُّ أن دخل شقّتي أو تحدّثنا على الأقلّ، وأنا لا أكاد أعرف صوته.

أخرج جوهر من ثنايا معطفه مغلّفًا، هو المغلّف نفسه الذي ضاع منّي البارحة، ثبّت سبّابة يده اليمني على المغلّف ثمّ وسّع عينيه وقال:

-أظنّ أنّك بالغت في الشّرب البارحة إلى حدٍّ جعَلك تُضيع مغلّفًا مهمًّا.. المسألة متعلّقة بهيلين، ألا تدرك ذلك؟

قلتُ محاولاً استيعاب ما يحدث:

-كنتَ تتعقّب خطواتي إذن، من سمح لك بذلك؟

في تلك اللّحظة كان جوهر يتأمّل لوحة تشكيليّة مقابلة له تمامًا في أعلى الجدار، مشهد خيول في حالة اندفاع وغضب، كان يتأمّل باطمئنان متعمّدا إهمال أسئلتي. تملّكتني حيرة حيال ما يقع لي منذ البارحة بشكل لا ينبئ بخير. عليّ أن أغيّر نبرة صوتي، قلت في سرّي. حاولت قدر الإمكان أن أكون هادئًا، هكذا أستطيع أن أفهم هذا الرّجل اللّغز، قلت وأنا أنفث الدّخان بعيدًا عن وجهه:

- في الحقيقة أنا في غاية الأسف.. لا أدري كيف سقط منّي المغلّف..

قاطعني مقهقهًا:

- المرأة ذات العينين الزّرقاوين أفقدتك التّركيز، بلا شكّ.

نحنح ثمّ تابع:

- اطمئنّ، لم أخبر هيلين بأمر هذه المرأة، فأنا أعرف أنّها ستغضب جدًّا لو سمعَتْ بها.

لوّحت بيدي في اتّجاهه:

- أمر المرأة لا يعنيك.. قل لي، الآن، أين عثرت على المغلّف؟

- الواقع، كنت أراقبك منذ سلّمتك المغلّف، كنت أعرف أنّك ستسكر لذلك تعقّبت خطواتك. عندما سقط منك بالقرب من نصب ابن خلدون انتظرت حتّى تختفي أنت والمرأة وسارعت بالتقاطه. ساعتها هاتفت هيلين، طبعًا، لم أخبرها بكلّ هذه التّفاصيل، سألتها عن عنوانك، هذا كلّ شيء.. آه نسيت، لماذا أغلقت هاتفك منذ يومين؟.. أنت أيضًا لا تفتح بريدك الإلكترونيّ، وهيلين منزعجة من ذلك كثيرًا. أرسلت إليك رسالة البارحة، طبعًا، أفهم يا سعد، أنت لم تجد الوقت لإجابتها، وعليك أن تفعل ذلك اليوم.

ابن الكلب، قلت في نفسي، يعرف كلّ التّفاصيل ويعرف رقم هاتف هيلين أيضًا. هيلين حدّثتني عن أهلها وأصدقائها، حدّثتني عنهم بإطناب ولم تحدّثني قَطُّ عن جوهر. بل أذكر أنّي سألتها مرّات

عديدة وكانت في كلّ مرّة تهمل أسئلتي، تتجاهل ذلك عمدًا، كنت أعرف، والآن لا مجال للشكّ في أنّ جوهر هو شخص مهمّ في حياة هيلين، ولا أستطيع أن أقدّر هذه الأهميّة. لم يعد يشغلني قلقي بسبب سفر هيلين. الآن، ضجّ دماغي، وصارت تشغلني هذه العلاقة المسترابة بينها وبين ابن الكلب هذا. لن أسأله بفضول، أكيد أنّه سيكذب ويتهرّب من إجابتي بالشّكل الذي يريحني. دقّقت في ملامحه، الشّيب يغزو كامل شعره، عيناه سوداوان ووجهه نحيف، له ندبة صغيرة في أسفل ذقنه، نظراته، كما أحسست متفحّصة وعميقة بمعنى أنّها مُولَعة بالتّفاصيل، وعمومًا، وجهه لا يشي بالرّيبة.

لا أدري لماذا ثبّت جوهر عينيه في اللّوحة المقابلة له. أعتقد أنّه كان نصف نائم وهو يجول ببصره بين الخيول التي تهدّ الزّنازين وتركض باتّجاه البحر. يداه ترتعشان، ودموعه تسيح على خدّيه وهو ينشج بشكل صامت. بكلّ تأكيد، وهذا ما أفهمه، رأسه ينوء بوجع أو هي ذكرى مؤلمة. فبالإضافة إلى جماليّة الألوان كانت اللّوحة، في الواقع، حافلة بأبعاد إنسانيّة مؤثّرة، تلك المشاعر الجيّاشة التي يمكن أن يمتلكها الإنسان وهو يتخلّص من الزّنازين ويتلهّف إلى الحريّة. إنّها لحظة دقيقة وفارقة، لحظة مربكة قد تعيد الإنسان مجدّدًا إلى سجنه بسبب تهاونه أو تراخيه وقد تحرّره نهائيًّا من القبو المظلم إذا اقتنص عمق اللّحظة، ووحدها تلك اللّحظة العجيبة تجعله يدرك الحريّة. عيناه غاصتا تمامًا في اللّوحة، تملّكتني حيرة أخرى وأنا أتأمّله، هذا الرّجل لغز، لغز غريب وغامض. لا يمكن إطلاقًا أن يكون جوهر ماسحَ أحذيةٍ كما يصادفني كلّ صباح أمام الكنيس اليهوديّ. فرضيّة

أن يكون بوليسًا سريًّا استبعدتها أيضًا بعد أن تأمّلت وجهه. الأرجح أن يكون مكلّفًا بمهمّة خاصّة وهي حماية الجالية اليهوديّة، والمهمّة الخاصّة لا يشغلها بالضرورة أمنيّ، يكفي أن يحظى بثقة أحد الرّهبان اليهود ليضطلع بها. ولأنّها مهمّة دقيقة كان عليه أن يتنكّر في هيئة ماسح أحذية، ولا أحد سيشكّ في أمره. وفي مقابل ذلك، اختار الزّاوية المناسبة التي تمكّنه من مراقبة جميع زوايا الكنيس بالإضافة إلى كلّ العابرين، نظراته المتفحّصة لا يمكن أن تهمل أيّ حدث. ومن المؤكّد أنّه كان يخفي مسدّسًا في متناول يده، داخل الصّندوق الخشبيّ الصّغير، على سبيل الاحتياط.

تململ جوهر بجانبي، ثمّ نهض بحيويّة وهو يمسح عينيه بمنديل أبيض، وعندما اقترب من الباب التحقت به، دفعتني قوّة غامضة لاستبقائه لبعض الوقت، قلت في نفسي: لا بدّ أن أستغلّ هشاشته وأعرف جانبًا من أسراره. أُدرك أنّي لن أميط اللّثام عن كلّ شيء، ما يعنيني هو هيلين، وأمر الكنيس شأن آخر يهمّ هيلين أكثر منّي. استجاب لدعوتي، وأحدث ذلك هدوءًا في باطني، فقد كان مهمًّا أن أكسب ثقته. أسرعت إلى المطبخ وأعددت قهوتين. جوهر لا يدخّن، حاولت قدر الإمكان أن أنفث الدّخان بعيدًا عنه، وصلتني في الأثناء أصوات الأغاني الصباحيّة المزعجة، تتصاعد من النّوافذ في التّوقيت نفسه، بشكل مقرف تتعالي وتعلن بداية صيد اللّذة في الوكالة. وصلني أيضًا صوت هاجر، كانت تتحدّث عن صالح وعن أمر الرّوائح التي تفوح في المكان. صوتها الصباحيّ مبحوح، في المساء يستعيد طراوته ورقّته كما تستعيد هي بالكامل فورانها وارتجافها.

بعد صمت وتفكير سألت جوهر:

-قل لي بربّك من أنت؟ لا أخفي عنك، أنت في نظري لغزٌ، لغزٌ كبير يا سيد جوهر. وأنا لا أحتمل أن أتعامل مع رجل غريب..

صدرت عن جوهر تنهيدة متقطّعة، خرجت متعبة من جسده النّحيل، احمرّ وجهه وهو يُسمّر عينيه في اللّوحة من جديد، انشغلت أنا بالذّبابة التي وقعت في فنجان القهوة ونكّلت بتركيزي، في ما مضى كنت أزيحها وأترشّف القهوة..

هتف جوهر بإجهاد:

-في عظامي هلع لا يخمد يا سعد، واللّوحة، كما ترى أهاجت ذكريات قديمة، حزينة ومؤلمة، لا يعلم بها إلّا الرّب.. لكن، ثق يا سعد، ثق تمامًا أنّي أسعى من أجل الخير والمحبّة، ولا أحرص إلّا على ذلك. مسألة أخرى، لا بدّ أن تعرفها، مسألة متعلّقة بهيلين، هل تثق بي يا سعد؟ هيلين هي النّور، لو تفهم ذلك.. وذاك النّور أبصر به، هيلين هي الملاك الذي يحلم أيّ رجل أن يمتلكه.

قال جوهر تلك الكلمات بنبرة حزينة ثمّ جرى متدافع الأنفاس وغادر الشقّة.

عند الظهر، غادرت الشقّة لألتحق بالجماعة في الشقّة السّفلى، هكذا نسمّيها في الوكالة، هي الشقّة الأرضيّة الوحيدة، شبيهة بكهف، بابها يفتح على ممرٍّ مُظلمٍ ليلَ نهار، وفي الجانب الأيمن يوجد

مستودع الوكالة المجهول، هكذا يسمّونه، لم يحدث أن فتح ولو مرّة واحدة، لماذا هو مغلق دومًا؟ هل هو مخزن علي بابا؟ يسأل صالح عشيقته نعيمة وهي تغريه بكراء المستودع ليكون بجانبها وتطمئنّ. نعيمة تحبّ أن يرتاح بالها، ويرتاح عشيقها بذلك من التنقّل اليوميّ بين الملّاسين وصبّاط الدّزيري. صالح في العادة يرفع الأوساخ المتراكمة في الممرّ الموصل إلى الشقّة السّفلى، وأعتقد أنّه اختفى منذ خصامه اللّعين مع عشيقته. نعيمة امرأة صريحة وسليطة اللّسان، تحبّ صالح ولا ترضى أن يجري الماء تحت قدميها، تريده لها دون سواها، أمّا أن تزوغ عيناه نحو جاراتها فهذا ما تكفر به، «الأعمى كي يرجع يشوف، يلوّح العصا إلّي مشّاتو»، صرخت نعيمة في وجه صالح وهي تطرده من الوكالة بعد أن ضبطته يخونها في إحدى الشّقق.

خنقتني الروائح العطنة وأنا أتخطّى أكياس القمامة لأصِل إلى باب الشقّة. كنت كأنّي أنزل إلى سرداب، تفاديت القطط المتنطّعة، وخشيت أن أدوس على رأس واحدة فيتعكّر الصّمت. الرّطوبة خانقة وأنفي متوهّج، يلتقط كلّ الرّوائح. ومن حسن الحظّ أنّ هاجر لا تصل إلى هذا الممرّ، أنا من يحمل أكياس قمامتها، تقبّلني بشكل مرح وتسلّمني أكياسها مثلما تسلّمني صدرها تمامًا. لعنت نادية وبصقت على وجهها في خيالي، ورّطتني البائسة، كان يمكن أن يأتي الشّيخان إلى شقّتي، كنّا سنتحدّث ونتفاوض ونتّفق. وجدتُ باب الشّقة مواربًا، لم أشكّ في كونهم تعمّدوا ذلك حتى لا أطرق الباب بشكل مثير للانتباه، مع جرابيع هذه الوكالة لا بدّ من الحذر الشّديد،

كلّ النّوافذ وكالات أنباء واستخبارات. دفعت الباب قليلًا ومددت رأسي مستطلعًا، وصلتني جلبة منبعثة من الدّاخل، دفعت الباب وتمكّنت من رؤيتهم. تحسّست خدّي الأيمن وقد داهمته الحشرات ثمّ رفعتُ رأسي، كانت نادية أوّلَ من رأيت، لم أصدّق ما شاهدَتْهُ عيناي، غمرني عرق بارد، كانت شبه عارية، بتبّانها الأسود نفسه وحمّالة نهديها الحمراء، ترقص بجنون وسط دائرة من الشّمع المشتعل، تطوف أيضًا حول حفرة صغيرة وسط الدّائرة. غيّرت تصفيفة شعرها الطّويل الفاحم، البارحة عقصته وهي تخرج من غرفة الاستحمام في شكل كعكة. وهي ترقص جعلته متناثرًا على كتفيها وكامل ظهرها، ظلّلت عينيها بلون أزرق، ووضعت على شفتيها مسحة بارزة من أحمر الشّفاه. كانت ترقص مثل غجريّة، وفي عينيها يلمع بريقٌ شهوانيٌّ حادّ. رأيت إبطيها أيضًا، توقّفت عند اللّحمتين الطريّتين. إبطان بيضاوان بلا شعر. وبعد تشنّج، انتهى جسدُها إلى حالة من الاسترخاء، أخذتها الرّعدة ثمّ سكنَتْ قليلاً، لكنّها لم تتوقّف عن الرّقص. رئتاي تحترقان وأنا أمدّ عنقي وأتابع هيستيريا العميان، لا أحد منهم يرى ويسمع في تلك الحالة من الخدر. ثبّتُّ بصري على الشّيخ النّحيف، وجهه مربّع وأنفه خشن. يطوف خلف نادية مثل درويش، يضع يديه على رأسه ويطوف، يبكي ويضحك وينحني ويقرفص ويزفر ويشهق ويقهقه ويقف ويرفع بصره إلى الأعلى.

لا تزال رائحة النّبيذ عالقة بأنفاسي، اختلطت في تلك اللّحظات بروائح العرق والبخور والرّطوبة المنبعثة من الدّاخل، رائحة ثخينة ومقرفة، هم لا يفتحون نافذتَي الشقّة مطلقًا، إنّهم في حالة عداء مع

الشّمس والهواء. الشّيخ الثّاني، طويل القامة ووجهه نحيف، يشعّ حماسًا، لحيته منسابةٌ، وعلى صدره يتدلّى مفتاحٌ خشبيٌّ كبير. بين فينة وأخرى يرفع حاجبيه ويصفّر بأسنانه. تناول شريط كاسيت ودسّه في آلة تسجيل فانبعثت عاصفة من التّعاويذ. خنقتني الرّوائح وأحسست بحشرة تتسلّل إلى جوفي، بصقتُ ثمّ أشعلتُ سيجارةً وتابعتُ باندهاش، كنت مكشوفًا أمامهم، تركت الباب مواربًا خلفي وتقدّمت نحوهم، لا أحد انتبه إليّ، كأنّهم في حالة غيبوبة. عندما تهاوت نادية على الحفرة جرى الشّيخ الطّويل نحوها وأدخل مقدّمة المفتاح في قبضة يدها اليمنى وطفق يصلّي الصّلاة الإبراهيميّة. أعرف ذلك، التعاويذ نفسها تتكرّر في مغامرات الحفر والنّبش: «اللّهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد، اللّهمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد»، كرّر ذلك سبع مرّات ثمّ تلا آية الكرسيّ. لم أمتلك في ذلك الوقت التّركيزَ اللّازم، شملني الخدَر مثلهم، كأنّي أحمل غابة في رأسي. وما إن أتمّ الشيخ تعويذته حتّى نهضت نادية فسارع الآخر بمنديل أبيض ومرّره بخفّة على نهديها وأسفل بطنها وفخذيها ثمّ رشّ قارورة ماء في الحفرة وأخذ حفنة صغيرة من التّراب وهتف: «بأمر من الله أوّلًا ومن شيخكم إن كانت في هذا الموقع دفينة من آثار القِدم أقلب كفّي ناحية اليمين وأفرغ ما فيها.»

وصاح الآخر مبتهجًا: سبحان الله، سبحان الله، الجنّ حارس الدّفينة سيرفع يديه قريبًا عن الكنز.. الله أكبر، الله أكبر.

تابع الثّاني: بقيت أيّامٌ حتّى يرحل الجنّ.. لم يبقَ الكثير وسنستخرج الكنز بإذن السّميع العليم.

في تلك اللّحظات انتبه إليّ الجميع، همهم النّحيف ثمّ نحنح، نادية بقيت غير مبالية، مؤخّرتها تلمع وتتراقص. في الحقيقة، لم أخجل من الشّيخين وأنا أتأمّل ذاك السّحر الدّاعر الذي خبّل أنفاسي، وقلت في سرّي: «سأصلّي الصّلاة الإبراهيميّة حتّى أنال من ذاك الشّهد، وبعدها فليكن ما يكون». أحسست بالغبن، لأنّي فرّطت في فرصتي، رفعت رأسي بعد ذلك إلى الجدار الذي يقابلني. اندهشت وأنا أتأمّل ريش الطيور وجماجم الخفافيش معلّقة بفوضى وإهمال. التقطت عيناي في الأعلى هيكل قطّ أسود وهياكل سمك بأشكال مختلفة. أدركت أنّ الجماعة لا يمزحون في شغلهم، كلّ لوازم التعاويذ موجودة. الشّيء الأهمّ الذي لفت انتباهي وأنا أدقّق في عيني نادية وجود نقطة سوداء في بياض عينها اليسرى، والشيوخ الرّوحانيّون، في الغالب يعوّلون على أصحاب تلك النّقطة السّوداء لأنّها بمثابة خريطة استكشاف للكنوز. وعادة ما يتمّ التخلّص من هؤلاء بعد استخراج الكنوز، تقع تصفيتهم بسيناريوهات مختلفة، إمّا برميهم في بئر مهجورة، أو خنقهم بقطعة قماش أو تخديرهم ثمّ ردمهم تحت التّراب أحياء.

في نهاية الأمر، قلت في نفسي، سأمضي في هذه المغامرة، أعرف أنّ طريقي آهل في الغالب بالرّيبة والرّعب، خبرت هذه العوالم وعرفت طينة هؤلاء الشيوخ. هم في الغالب جبناء ومخادعون، والأفضل ألّا أكشف لهم وجهي تمامًا، ثمّ إنّي سألغي مسألة مؤخّرة نادية من

حساباتي، أنا لا أحبّ الشطحات الشّهوانيّة في الشّغل.

قال الشّيخ إسماعيل: «كما عرفت اسمه من نادية».

- لقد مضت ثلاثة أسابيع يا أخانا سعد، نحن لا نقصّر في تعاويذنا لنعثر على الكنز.. ووجود الكنز ثابت يا أخانا استدلالًا بهذه الخريطة.

اقترب منّي وفتح خريطة كبرى، اهترأت وتآكلت بمرور الزّمن، أشار بيده إلى نقطةٍ رُسِم فيها وجه حصان ثمّ تابع:

- في الحقيقة، كلّفتني هذه الخريطة مبلغًا كبيرًا، اقتنيتها من تاجر ذهَبٍ يهوديّ في أغادير، ونحن كما ترى نمارس تعاويذنا بعناية حتّى يحين الأجل. وبعد أيّام قليلة، سيخلي الجنّ سبيل الكنز.

قالت نادية:

- طبعًا، لا نذكّرك يا سعد بقوانين شغلك. الوضع، كما ترى، في غاية التّعقيد هنا في الوكالة.. ولا بدّ من الحيطة والحذر.

تسمّرت عيناي في سرّتها، كيف لم أنتبه إلى ذاك الخبل الطريّ؟ سرّتها ناعسة وناعمة مثل فم قنفذٍ حبشيّ، مجرّد لمسها واستثارتها هو العذاب الحقيقيّ. حمحم الشّيخ مرزوق ثمّ وزّع علينا ثلاثة حروز ودسّ الرّابع داخل عباءته وهو يتمتم ببعض الكلمات المبهمة. نهض إثر ذلك واتّجه نحو إحدى الغرف وتبعه الشّيخ إسماعيل. رنّ هاتف نادية، التقطته بحركة سريعة وضغطت على الزرّ: «آلو، آلو، نعم سيدي، نعم سيدي.. ساعة من الزّمن وأكون في المكتب.. حاضر سيدي».

ما إن خرجتُ من الشقّة حتّى وصلتني الجلبة المسائيّة في الوكالة، أوّل شيء فعلته هو أنّي رميت الحرز وسط الأكياس المتراكمة، قلت في قرارة نفسي: «هذا الحرز سيكدّرني وأنا بطبعي أكره الحروز منذ كنت صغيرا». أذكر أنّي كنت أنهض فزعًا في اللّيل ثمّ أجري صارخا في حوش دارنا: «ربّي جاني، ربّي جاني».. كنت أخاف الله فعلًا، أمّي تصوّره لي مثل شيءٍ عظيمٍ ينزل من السّماء في ثوب أبيض، «سيعلّق دودتك الصّغيرة في السّماء، سيشنقك من هناك إن لم تسمع كلامي»، تهدّدني أمّي، وكنت أعتقد فعلًا أنّ الله في السّماء، وأحسّ بالخوف الشديد بعد كلماتها، أفتّش في السّماء عن الله، أفتّش عنه في الشّمس والقمر والسّحب، وعندما أنام، لا أدري ماذا يحدث لي، أرى ما يشبه الشّيء العظيم، يداهمني بلباسه الأبيض، يفتح ذراعين كبيرين ويقترب منّي، أنكمش أنا في الأثناء وأمسك دودتي الصّغيرة بيديّ المرتعشتين ثمّ أصرخ وأبكي فيختفي ذاك الشّيء العظيم. استمرّ الأمرُ أيّامًا وتعكّرت حالتي، فوضعت لي أمّي حرزًا تحت المخدّة، جلبته من الشّيخ المبروكي عزّام الحيّ. الحقيقة، بعد جلب الحرز لم أعد أنهض فزعًا ومذعورًا ولكنّي عندما اكتشفته تحت المخدّة تبوّلت عليه وقذفته من شبّاك الغرفة.

في العادة أتجنّب الظّهور بالوكالة في هذا التّوقيت لأنّ أغلب النّساء ينتشرن خارج الشّقق، بالإضافة إلى ذلك تحدث حالة فوضى وشغب كأنّنا في سوق شعبي، صراخ، ثرثرة، ذباب، أغانٍ ركيكة، صراخ أطفال، كرة تهشّم بلّورًا، ضحكات، غمزات، شتائم تحت الحزام، صفير، رنين هواتف، لهاث خلف الأبواب، زفرات، حبال

نشر الغسيل، أكياس سوداء مهملة، دخان يتعالي، ثرثرة لا تنتهي.

صاحت نعيمة وهي تلمحني أصعد الدّرج:

- لا بدّ من حلّ لهذه المزابل، وصالح التّعيس هرب ولم يعد.

ضحكت هاجر ووضعت يدها على فمها. هتفت نسيمة وهي تنفث الدّخان في وجه نعيمة:

- أنت طردته يا مهبولة، لا فرحت أنت ولا تركتنا نفرح.

تسلّلت بين أفخاذهنّ، رأسي كان يترنّح من جرّاء تلك العطانة في الأسفل، كيف يتحمّلون ذاك الجحيم؟ تساءلت مندهشا، ونادية، كيف تقدر على ذلك؟ انتبهت إلى هاجر وهي تغمزني بعينها اليسرى، تلك إشارتها السرّيّة التي تخبرني بأنّها ستأتيني اللّيلة بكامل زينتها وشبقها، ستنيم ابنتها باكرًا ثمّ تتسلّل إلى شقّتي. شقّتها تقابل شقّتي تمامًا. في الحقيقة هاجر كنز، لا يمكن أن أنكر هذا، مات زوجها منذ سنتين في حادث سيّارة بنهج روما. ترك لها بلقيس، عمرها ثلاث سنوات، هي امرأةٌ متّقدةٌ وخَدُومٌ، أعتبر وجودها ضروريًّا في حياتي، ليس كأنثى فحسب وإنّما كامرأة ترعى شؤوني. وأنا، طبعًا لا أبخل عليها بشيء. هي بلا أدني شكّ أنثى مذهلة في الفراش، مشكلتها أنّها ثرثارة بشكل مزعج، كَمْ قلت لها يا عزيزتي، الثّرثرة تقلّل من سرّ المرأة و«كمّونها» وتجعلها تافهة. الحقّ أنّها تقلع عن الثّرثرة يومًا أو يومين ثمّ تعود إلى الطّبع نفسه. هاجر أيضًا تحبّ هيلين، وهي على علم بقصّة الحبّ بيني وبينها، لذلك لم تطرح عليّ مسألة الزّواج، أنت لهيلين، تقول لي وهي تحضنني في الفراش بشراسة.

ما إن دخلت إلى الشقّة حتّى رحت أبحث كالمجنون عن قارورة نبيذ أحمر. فتحتها ووضعت أمامي قطع جبن وهريسة وحبّات زيتون. نظرت إلى المغلّف بجانبي، رفعت الكأس وقلت: «بصحّتك يا هيلين». ثمّ فتحت الحاسوب، فكّرت في ضرورة متابعة بريدي الإلكترونيّ، وبعد ذلك سيأتي دور المغلّف. عثرت على ستّ رسائل جديدة، رسالتين من هيلين، رسالة من لارا وثلاث رسائل إعلانات، وفي العادة لا أفتحها.

فتحت أوّلاً رسالة لارا وقرأت:

«مساء الخير أو صباح الخير يا سعد العزيز، في الحقيقة أنا أفتقدك هذه الأيّام، أفتقدك كثيرًا، كأنّي لم أرك منذ ولدت. أتصدّق؟ لا تضحك منّي أرجوك، ولا تقل إنّي طفلة مشاغبة.. أنت تعرف أنّي سأحتفل بعد أقلّ من أسبوعين تقريبًا بعيد ميلادي، وأريد هذه السّنة أن أراك، لم أطلب ذلك من قبل، طيلة سبع عشرة سنة. أحبّ هديّة منك أيضًا. بماذا ستفاجئني؟.. قل لي قبل ذلك، ما سرّ هذا البرود بينكما، أنت وهيلين؟ منذ سنتين وأنا ألحظ هذا الشّرخ.. اكتب لي يا عزيزي، أريد أن أفهم، هيلين لا تحبّ أن تصارحني بشيء، وتهرب من الإجابة، فعلًا أنا في غاية القلق.. قبل أن أنسى ثمّة خبر آخر سأخبرك به، ليس الآن طبعًا، بعد أن تسلّمني الهديّة سأخبرك. قبلاتي.»

قرأت الرّسالة بكثير من الاهتمام، والانفعال أيضا، لارا ليست مجرّد ابنة لهيلين، هي مثل ابنة لي، وفعلًا أحتاج إليها دومًا لتشاغبني، وأنا أحبّ شغبها. هيلين كثيرًا ما تقول لي: «فم لارا مثل فمك

تمامًا». وحين تتوقّف لارا عن الكتابة أحسّ بحالة اختناق وأعود إلى رسائلها القديمة.

دون تفكير كتبت للارا:

«عزيزتي الجميلة، أنا أفتقدك أيّتها القطّة، لماذا انقطعت رسائلك؟.. هل انشغلت بالدّراسة وأهملت هذا الرّجل البائس الذي يحبّك؟..

أنا في الحقيقة متعكّر بسبب تدهور علاقتنا، أنا وهيلين. آخر مرّة تخاصمنا، ولعلّك تعرفين السّبب، هل أنا مخطئ؟ أنت تعرفين كما تعرف هيلين وشيرا أنّي، وهذا قدري، لن أتزوّج مطلقًا إلّا بهيلين. أنا لا أحبّ بؤس الخذلان. الأمر محسوم عندي، لكنّ هيلين ترفض، مهما تكن الأسباب، لا يمكنها أن ترفضني زوجًا.. أشرفت الآن على الأربعين وأحتاج إلى هيلين معي. لا يهمّ، هنا في تونس أو هناك في مارسيليا.. وليس هذا فحسب، هيلين قاطعتني بعد خصامنا، وأعتقد أنّها أغلقت الأبواب، حقًّا أنا في وضعٍ سَيِّئٍ.

طبعًا لن أحدّثك عن هديّتي لك، سيكون الأمر سرًّا مثل سرّك أنت، أنتظر لقاءك بكلّ لهفة. قبلتي لحبيبتي وللأمّ شيرا.»

فتحت بعد ذلك رسالة هيلين وقرأت:

«أين أنت يا سعد؟ أمرك غريب والله، لماذا تتعمّد إغلاق هاتفك؟ أجبني، ما الأمر؟ أنت لم تتعوّد على ذلك. أنتظرك.»

فهمت أنّها كتبت الرّسالة في حالة غضب بسبب عدم ردّي على

رسالتها الأولى، أسرعت بفتحها وقرأت:

«حبيبي، لا تعتقد أنّك هناك وحدك في تونس، لا تعتقد ذلك مطلقًا يا عزيزي، أنت في قلبي، تسكنني بشكل مذهل، كأنّي أكتشف الحبّ من جديد، من أنت أيّها الهرّ؟.. من أنت؟ حقًّا أجبني، أنت تتجدّد في أوصالي. أعترف، أنا أحسّ بالذّنب، ذقت فعلًا ذاك العذاب السّليط. ولعلّنا سنتجاوز هذا الأمر قريبًا، قريبًا جدًّا ياعزيزي.

لنترك هذا الأمر الآن، ثمّة أمر هامّ ومستعجل، تحدّثنا فيه باقتضاب سابقًا، ولعلّك نسيت. جوهر سيمدّك بمغلّف مهمّ، اقرأ ما يحتويه، وعلى وجه السّرعة افعل ذلك.. وبالتّأكيد يا عزيزي سنحتاج إلى مزيد البحث في الأمر. قبلاتي.»

انقضضت على المغلّف بجانبي، فضضته بحركة مستعجلة، وخشيت في تلك اللّحظات أن تتسلّل هاجر من الباب الموارب وأنا لم أفرغ من قراءة ما بداخل المغلّف من أوراق، شربت كأسًا أخرى، أشعلت سيجارة ثمّ شرعت في قراءة الأوراق الصّفراء.

(4)

حمّام الذّهب.. بلّاع الصّبايا.

ذات صباح، غادرت حبيبة البيت قبل انصراف أمّها إلى الحمّام، قادت عربتها الملأى بقوارير العطور بإعياء وتثاقل. وبغتةً، أحسّت بخطوات تتبعها، وقفت وأسندَتْ ظهرها إلى أحد الجدران، عرفت صاحب الخطوات الذي يتبعها، لم يكن غريبًا عنها. تظاهر هو بمعاينة الأقمشة في أحد الدكاكين، ارتعشت يداه وهو يقلّب الأقمشة من شتّى الألوان، وعيناه زائغتان بلا تركيز. خفق قلبها خفقانًا قويًّا واستنفر حواسّها سؤال: «لماذا يتبعني هذا الشّاب كلّ صباح؟» والغريب أنّه لم يبادر يومًا بمخاطبتها، يكتفي بمتابعتها في الطريق بين بيتها وجامع الزّيتونة، يفرك يديه خجلًا ولا ينطق بكلمة. أحبّت أن يتكلّم، في عينيه ابتسامة أسَرَتها، هزّتها من الدّاخل ولم تجد لها تفسيرًا، ماذا يحدث لي؟ سألت في سرّها وهي تستأنف سيرها نحو جامع الزّيتونة. عيناه ضيّقتان وغامضتان، وجهه ذو البشرة البيضاء لا يتخلّى عن ابتسامته العريضة، تلك الابتسامة التي كانت تجنّح بها في الأحلام، وتظلّ كامل اليوم تسترجعها في شبه خَدَرٍ لذيذٍ.

وحدث ذات يوم ما انتظرته طويلًا، كانت أمام جامع الزّيتونة، كعادتها، جالسة وراء عربتها، عندما هاجمها أحد الباعة وهشّم

قوارير العطور، صاحت بفزع ولم تصدّق ما حصل. طفق الرّجل يهشّم عربتها وهي تحاول عبثًا أن تتصدّى له. باغتتها صفعةٌ قويّة، فتراجعت إلى الخلف وتحسّست أصابعُها أنفَها النّازف. كانت تعرف أنّ الباعة في سوق العطّارين يحقدون عليها، ولم تنتظر البتّة أن يهاجمها أحدُهم بهذا الشّكل الوحشي.

في تلك الآونة، قفز ذاك الشّاب بقامته الطويلة وبساعديه المفتولين، وانقضّ على البائع صفعًا ولكمًا وركلًا، والنّاس يصيحون:

-اتركه.. اتركه إنّ الرّجل سيموت.

حدث يومها ما أبكاها حزنًا على بضاعتها، لكنّ ما أبكاها فرحًا كان أقوى. أذهلها ما رأت من أمر ذاك الشّاب وهو يحميها ويقاتل من أجلها. زفرت وهي تتأمّل ملامحه، اقترب منها ومسح بمنديلٍ أبيض الدمَ النّازفَ من أنفها مختلطًا بالفزع والدموع، ثمّ قال لها:

-سأجعل هذا الحاقد يعوّضك عن كلّ شيء، لا تخافي، وأرجو أن تسمحي لي الآن بمرافقك إلى بيتك.

في الطّريق لم ينبس أحدٌ منهما ببنت شفة. قاد الفتى العربة والعرق ينزّ من جبينه، أمّا حبيبة فكانت تتبعه وهي تتأمّل ملامحه بإعجاب واندهاش. وحين دخلت إلى غرفتها ظلّت متكوّرة في فراشها تستحضر ملامح ذلك الشّاب، وتستعيد وقائع الحادثة. لم تتذكّر ملامح بائع العطور البائس ولا صفعتَه التي رجَّتْها، فحسب، بل ظلّت تتذكّر تلك الأصابع المرتعشة وهي تزيل الدم من أنفها بمنديل أبيض. كانت أنفاس الشّابّ حارقةً وهو أمامها، لا يرفع

عينيه في وجهها، وكأنّه يراها بقلبه فحسب. وفي تلك الدّقائق التي مرّت بسرعةٍ مجنونة، أحسّت بأنّ في قلبه جمرة حبّ غريبة..

في المساء عقدت العزم على الالتحاق بأمّها في الحمّام، فمنذ مدّة طويلةٍ لم تطأ قدماها الحمّام بسبب انشغالها بعربتها، وفي ذلك اليوم كانت رغبتها شديدة في أن تستحمّ وتتخلّص من حالة الإرهاق التي هدّت أوصالها. كان ذلك يوم خميس، الحمّام يعجّ بالنّساء والفتيات، نزعت ثيابها عن جسدها الفارع وتركت شعرها الأسود الطّويل متناثرًا على كتفيها وظهرها، ثمّ التحفت بلحاف ودلفت إلى الدّاخل. تابعت حركة أمّها وهي تنظّف زوايا حجرة الاستقبال وتساعد للّابيّة حارزة الحمّام على تلبية طلبات النّساء التي لا تتوقّف ثمّ دلفت إلى «بيت السّخون» دون أن تثير انتباهها.

في «بيت السّخون» كان البخار يتماوج ويلهب وجنتيها بحرارة منعشة، جلست بجوار الحوض المائيّ السّاخن وشردت بذهنها. وفي لحظةٍ خاطفة، لا تدري أكان ذلك واقعًا أم خيالًا تراءت لها عينا ذاك الشّاب تراقبانها من فتحة صغيرة في السّقف. شهقت وتوتّرت يداها وهي تلفّ جسدها باللّحاف وسرعان ما اختفت تانك العينان الضيّقتان.

***

أحسّ أتون بالرّهبة والخوف عندما التقت نظراته بنظرات حبيبة في تلك الفتحة الصّغيرة، بل احمرّ وجهه خجلًا، ماذا ستقول عنّي حبيبة؟ صرخ في داخله وتمنّى أن يسقط من سطح الحمّام وتتهشّم عظامه. لقد ارتكب حماقةً لا تُغتفر، وحبيبة لن تغفر له هذه الزلّة، ماذا

ستقول عنه؟ طبعًا، هو الآن في نظرها ليس إلّا شابّا متهوّرًا وعديم الأخلاق، يتلصّص على النّساء من الفتحة ويتلذّذ بتأمّل أجسادهنّ. تلك وقاحة ما بعدها وقاحة، وما فعله مع حبيبة في السّوق ليس إلاّ شكلًا من أشكال استعراض العضلات في انتظار الانقضاض على الفريسة، لكن هيهات، ها إنّ حبيبة كشفت ألاعيبه.

تخطّى درجات السلّم بسرعة جنونيّة وهو ينزل من السّطح، عاد إلى الفرن ومدّ رأسه في السرداب الذي تتعالى فيه ألسنة اللّهب. لفحت النّار وجهه فتراجع قليلًا وزفر في قلق، لا حاجة إلى وضع مزيد من الحطب، اللّهيب يتعالي في السّرداب وفي قلبه. لم يصدّق أنّ حبيبة يمكن أن تذهب إلى الحمّام، لم يسبق بالمرّة أن رآها هناك، بل استبعد أن تذهب في ذلك اليوم إلى الحمّام وتصفعه بنظرات ساخطة. يا للقدر! كيف التقت نظراتهما في لحظة مدويّة؟ أحسّ كأنّ نصل سكّين يخترق قلبه ويشقّه نصفين. في اللّحظة التي أبعدت فيها خصلات شعرها عن عينيها بحركة من يدها التقت العيون، فتجمّد في مكانه وكاد يفقد عقله. هو لا يستحضر شيئًا من جسدها، لا شيء على الإطلاق غير عينيها المندهشتين والمصعوقتين.

أسند ظهره إلى الجدار وجلس، شرب جرعات نبيذ من قنّينة بجانبه وزفر بعمق. عيناها السّوداوان والواسعتان، آه من عينيها! لم ير سحرًا مثل ذاك السّحر صباحًا وهو يمسح الدم من أنفها، لم يصدّق ما حدث، لم يصدّق أنّه حضر في اللّحظات المناسبة وأنقذها من قبضة البائع الأرعن. مرّر كفّه على جبينه ومسح العرق المتصبّب، اسودّت كفّه بذاك الفحم الذي يغطّي كامل وجهه وعنقه. بقع

السّواد تنتشر أيضًا على سترته وبنطلونه، ارتخت عيناه وهو يشرب ويشرب وتداخلت الصّور في مخيّلته.

لم يستطع البتّة أن ينسى تلك اللّيلة الممطرة من ليالي الشّتاء. كانت ليلة عاصفة لم يسبق أن عرفها حيّ الحارة، فقد فقدت الرّياح كامل رُشدها، وهشّمت الأشجار واقتلعت النّوافذ والأبواب. لم تمض على وجود عائلته بالحارة إلّا أيّام قليلة، قادتهم الرّحلة البحريّة الطّويلة إلى ميناء حلق الوادي، ثمّ مشى خلف أبويه كما مشى العشرات نحو حيّ الحارة وسكنوا منازل قديمة ومهجورة. كان لا يفهم الجوع والفقر، ولا يرى دموع أمّه وهي تشقى من أجل رغيفٍ يسدّ رمق الأفواه الجائعة، كذلك كان حال العائلات التي استقرّت مؤخّرًا في حيّ الحارة. وجوه منكسرة، تمشي في بلاط الأنهج الضيّقة وتبحث عن الشّغل، تنغل بأظْفارها في التّراب لتحيا، ولم يكن الشّغل أيّامها متاحًا للأغراب، ولا أمل غير بعض المهن الشاقّة كالبناء ونقل البضائع وترصيفها، كلّ ذلك من أجل أرغفة خبز. ليلتها، كان طفلًا، ينام في حجرته الصّغيرة، ولم يفطن بشيء، وفي الصّباح استفاق على صدى صراخٍ وضجيج، وأحسّ بأيد غليظة تسحبه من تحت الرّكام برفقٍ وعنايةٍ وتخرجه من فوّهة الموت. يومها، عرف أنّ أمّه وأباه ماتا تحت الأنقاض، تهاوى بيتهم كما تهاوت العشرات من البيوت. اكتفوا بإعلامه بأنّ أمّه وأباه ماتا، ولم يكن يعرف حينها ما معنى أن يموت أبوه وأمّه، ولكنّه حدس أنّه لن يراهما بعد ذلك اليوم.

كلّ ما ظَلّ يذكره بعدها، هو أنّ أحد الشيوخ مسكه من يده وسار به إلى بيتٍ في أحد الأنهج القريبة من مقام سيدي محرز، ورأى

وجوهًا غريبة تبتسم له وترعاه. بقيَ صامتًا لأشهر طويلة، مثل قطعة خشب صغيرة منسيّة داخل غابة، يستحضر وجهي أمّه وأبيه ويظلّ ينشج طوال اللّيل.

عندما كبر، خيّره الشّيخ عبد القادر بين تعلّم حرفة أو الاشتغال معه في دكّان القماش، فخيّر الشّغل في ذاك المحلّ المُقابل لِـمَحلّ بيع المفروشات. لم يكن ينتظر مطلقًا أن يعرف إيزا بتلك السّهولة. تلك الفتاة المالطيّة أغرمت منذ نظراتها الأولى بأتون وظلّت تتحيّن الفرص لرؤيته ومشاغبته. أتون أيضًا أحسّ بعاصفة في قلبه تدفعه إلى إيزا، شعرها الأصفر ينسدل على كتفيها كأميرة وعيناها الخضراوان لم يسبق أن رأى بريقًا مثل بريقهما. وظلّت تلك القصّة الصّامتة تكبر بين أتون وإيزا إلى أن حدث ما عصف بقلب الشّابّ اليهوديّ الطريّ. ذات صباح وهو يفتح الدكّان حانت منه التفاتة إلى دكّان المفروشات فصعق لذاك المشهد الذي كاد يسقطه مغشيًّا عليه. كانت حبيبته إيزا في حضن شابٍّ يهوديّ، وسّع عينيه وهو يتابع تلك القبلات المحمومة بينهما. تسمّر طويلًا أمام ذلك المشهد ثمّ جرى نحو إيزا وجذبها من حضن الشّاب اليهوديّ وصفعها بعنف، وبعد ذلك جرى واختفى في الأنهج الضيّقة، دسّ عنقه بين كتفيه وهو يهرب ويهرب ويوسّع الخطى.

بعد أيّام، ابتسم له الحظّ وكلّفه صاحب الحمّام المحاذي لسيدي محرز بمهمّة «الفرانقي»، عرف منذ أيّامه الأولى أنّ من يضطلع بمهمّة «الفرانقي» سرعان ما يهرب ويترك البلاء في البلاء وهو ما تسبّب في إغلاق الحمّام لأيّام كثيرة. والحقيقة أنّ سي خلدون صاحب

الحمّام وسّع العطاء لأتون ومكنّه من غُرفةٍ يُقيم فيها بجانب الفرن بالإضافة إلى حفنةٍ من الدّراهم لم يكن أتون ليحلم بها.

منذ أيّامه الأولى في الفرن كانت تصله أصواتُ النساء من بعيد، لم يُعر ذلك اهتمامًا في بادىء الأمر، كان منشغلاً بالصّدمة التي تلقّاها من حبيبته الخائنة، فمنذ رأى تلك القبلات المحمومة لم يُغمض له جفن وكره كلّ النّساء. النّساء في ذاكرته تُختزلن جميعًا في أمّه لا غير، أمّه التي ماتت تحت الأنقاض، أمّا البقية فلسن سوى عاهرات. كان يعتقد أنّ إيزا ستضمّه إلى صدرها كما كانت أمّه تفعل، لكنّها غدرت به. «أحبّك»، كانت الخائنة تهمس له في أذنه وتمسح على شعره الرّطب ثم ينزلق كفّها على خدّه، وهو كان يصدّقها، ويهفو إلى عينيها مثل شمعة متراقصة لا تنطفئ.

قاده الفضول ذات مساء وهو في حالة سُكرٍ إلى اكتشاف تلك الجلبة المنبعثة من داخل الحمّام، ولمّا صعد إلى السّطح اكتشف فتحةً صغيرة تُطلّ على «بيت السّخون»، فرك عينيْه وظلَّ يسترق النّظر إلى خصلات الشّعر من كلّ الألوان ثمّ إلى تلك الصّدور العارية. لبث يلهث وهو يبحلق محمومًا في تلك النّهود الصّغيرة والمتراخية. وهكذا يظلّ بصره متسمّرًا طوال الفترات المسائيّة، وفي الكثير من المرّات كان يرى الأجساد عاريةً تمامًا، فيحلّق عاليًا من السُّكر. يحدث ذلك عندما تأتي عروس مع صويحباتها إلى الحمّام ويُقمن طقوسًا تُبهج أتون، وتجعله يحسّ بذاك الخدر الذي يسري في باطنه، فيظلّ يُحدّق بنهمٍ وجنون وهو يشرب من تلك القنّينة التي لا تفارقه.

بقي أتون لأيّام طويلة في رحلة مخبّلة بين إيقاد الفرن بالحطب اليابس وإيقاد شهواته بالأجساد النّاعمة التي تتردّد على «بيت السّخون». النّار في الفرن لا تنطفئ والنّار في أوصاله تزداد لهيبًا. كان مثل المجنون يفتتن بمشهد النّار ويلتهب خياله بما يراه. وسرعان ما تجاوز عقدة إيزا، كانت النّار ترقص أمامه وتنسيه حبيبته السابقة مثلما ترقص أمامه الأجساد العارية وتسكره بتلك النّشوة العارمة التي تدبّ في شرايينه وتدغدغه.

وحدث ذات صباح أن رأى حبيبة، ومن الغريب أن يحدث ذلك، فتح عينيه في دهشة وهو يراها، أرسلته للّا بيّة لاستدعاء أمّها شلبيّة لأمرٍ عاجل، ولم يكن يعرف أنّ لها بنتًا بذاك السّحر الذي جعله يشهق. وفي تلك اللّحظات أيقن أنّ الحبّ سكن قلبه من جديد، فقد داهمه ذاك الإحساس الغريب والمفاجئ الذي يداهم المرء من أوّل نظرةٍ ويسجنه في جدرانه العالية فلا يستطيع الهروب.

***

خرجت حبيبة من الحمّام متثاقلة الخطى ولم تسمع أمّها وهي تناديها، فكّرَتْ طوال الطّريق نحو البيت في ما وقع والدّموع تنهمر من عينيها. لم تستطع أن تنسى تلك اللّحظة الخاطفة التي رأت فيها عيني الشّابّ. لحظة مُزلزلة جعلتْها تشعر بالدوار فنهضت مذعورةً ولم تكمل استحمامها. كانت تمشي وتحسّ باختناق كأنّ يدًا تُطبق على أنفاسها. مرّ بها الأطفال في مساء ذاك اليوم القائض حفاةً ومهلهلي الثيّاب، وجوههم شاحبة بسبب الجوع الذي نخر عظامهم، وتشتّتوا

بين الباعة طامعين في من يمكّنهم من فرص نقل البضائع وترصيفها في المخازن والدّكاكين حتّى يعودوا إلى بيوتهم بأرغفة خبز. تابعت انكسارهم وهم ينتظرون العيون الرّحيمة وتذكّرت أباها حين أدركت جامع سيدي محرز، شهقت وغصّ حلقها. تمنّت ساعتَها أن تحضنه وتريح رأسها على كتفيه، تمنّت أن تشمّ رائحته وتملأ رئتيها برائحة المسك المتضوّعة من ملابسه. التفتت إلى اليسار، تشمّمت رائحة البخور، استسلمت لتلك الرائحة ودلفت إلى زاوية سيدي محرز. فعلت ذلك دون تفكير، سيدي محرز، على بركة عظيمة، قالت في سرّها. أسدلت شالًا أخضر على رأسها ووقفت أمام الضّريح لقراءة الفاتحة. لم تستفق من سهوها وهي واقفة أمام الضّريح بخشوع إلّا بعد أن ربّتت يدٌ على كتفها ثمّ جاءها صوت امرأة:

- «سيدي محرز على بركة عظيمة يا بنتي.»

ثمّ أضافت:

- «يا سيدي محرز يا مولانا ، فرّج كرب كلّ وليّة بجاه النبيّ مولانا».

قبل أن تخرج حبيبة من الزّاوية وضعت قرطاس بخور قرب الضّريح وسلّمت قرطاسًا آخر للمرأة التي وقفت بجوارها، ثمّ تابعت سيرها نحو البيت وهي تلحظ حركة غير عاديّة في الدكاكين، أغلبها أغلق مبكّرًا، وليس من عادة التجّار أن يعودوا إلى بيوتهم مبكّرين. لقد سادت السّوقَ حالةُ كساد لم يسبق لها مثيل، والأخطر من ذلك أنّ حوادث السّرقة وخلع الدّكاكين والمخازن صارت تتكرّر كلّ ليلة. ولم يعد من الغريب أن يعثر النّاس في السّاعات الأولى من

الفجر على «الصبايحيّة» وعسس السّوق مكمّمي الأفواه ومرميّين في زوايا مهجورة. سمعَتْ لغطًا كبيرًا، كانت الأصواتُ غاضبةً، تحتجّ سرًّا وعلنًا، ولم يعد النّاس يخشون «صبايحيّة» رمضان باي المنتشرين في السّوق.

هتف شيخ مقوّس الظّهر:

- رمضان باي هدّنا بالمكوس ولم نعد نحتمل.. ارتفعت الأسعار والجوع كافر يا ناس.

قال رجل قريب منه:

- رحم الله محمد باي المرادي.

صاح رجل آخر وهو يقود عربته:

- هم يتناحرون على الحكم ونحن نموت.

عندما دلفَتْ إلى غرفتها، لم تُشعل القنديل كعادتها، تكوّرت في سريرها الخشبيّ والدّموع تسيح على وجنتيها. لم تجد تفسيرًا واضحًا لما حدث في الحمّام، ولم تصدّق أيضًا، أيكون الفتي الذي أنقذها على تلك الدّرجة من السّفالة والنّذالة؟ هو لا يختلف عن بقيّة الرّجال إذن، ولا تهمّه إلّا المتعة في سوق النّساء. من أكون في اعتقاده؟ جارية أو امرأة ساقطة؟ من أكون؟ سألت في سرّها وهي تتململ على السّرير.

تسلّلت أمّها إلى غرفتها، عرفت بإحساسها المتيقّظ أنّ ابنتها تشكو من خَطْبٍ عكّر صفوَها. كم أحبّت أن تصارحها في الحمّام، أن تحكي لها. حبيبة بلغت سَبْعَ عَشْرَة سنة ولا شكّ أنّ شبّان السوق

ضايقوها، أكيد، لن يُهملوا جمال حبيبة، هي تعرف ابنتها، لا تسمح لأحد بأن يمسّ شعرةً من رأسها. حبيبة صعبة المراس ومتنمّرة منذ صغرها، مَنْ ضايقها وأفسد مزاجها؟ تساءلت شلبيّة في سرّها وهي تُشعل القنديل وتقترب من حبيبة، تطلّعت إلى وجه ابنتها الشّاحب ثمّ سألت:

- مابك اليوم يا حبيبة، وجهك متفحّم، ماذا حدث؟

دسّت حبيبة رأسها في حضن أمّها وقالت:

- ضربوني يا أمّي اليوم في السّوق وهشّموا قوارير العطر.. كرهت السّوق يا شلبيّة وكرهت كلّ النّاس.

أرسلت آهاتٍ ثمّ تابعت:

- لولا ذاك الشّاب الذي أنقذني منهم لقتلني ذاك الحقير، إنّه وحش.

صُعقت الأمّ لما حدث لابنتها، كانت تعرف ما تتعرّض له حبيبة من مضايقاتٍ وتحرّش، لكن، أن يصل الأمر إلى الضّرب فهذا ما لن تسمح به.

قالت شلبيّة حاسمة:

- اسمعي يا حبيبة، لن تخرجي بعد اليوم إلى السّوق، ابقي في البيت، وسأقترح على للّا بيّة أن تساعديني في الحمّام، هذا أفضل من مضايقات أولاد الحرام.

تجرّعت شربة ماء من «شربيّة» أمامها واستأنفت:

- قولي لي يا حبيبة، من هو ذلك الشّاب الذي أنقذك من أيديهم؟

همهمت حبيبة في ارتباكٍ ثمّ قالت:

- لم يتسنّ لي أن أعرف اسمه يا شلبيّة، كلّ ما تبيّنته أنّ ملامحه مختلفة عن شبّان السّوق، شعره أسود ورطب وبشرته بيضاء. هو أيضا مفتول العضلات، عندما صفع ذلك البائع طرحه أرضًا أمام دهشة النّاس. آه.. نسيت يا أمّي، الآن تذكّرت، ذات يوم طرق بابنا وسأل عنك. لا أدري كيف نسيت أن أخبرك بهذا!

صاحت الأمّ:

- إنّه أتون يا حبيبة، أتون «فرانقي» الحمّام.

سألت حبيبة في نبرة متلهّفة:

- أتعرفينه يا شلبيّة، قولي لي، من يكون ذلك الشّاب؟

ضحكت الأمّ وهي تحدّق في عيني ابنتها:

- أتون شابّ يهودي يتيم يا حبيبة، مسكين، لا أحد عاش محنته، عرف اليُتم منذ صغره، وقد نجا بأعجوبة عندما تهاوى منزلهم في حيّ الحارة ومات والداه.. الحمد لله أنّ سي خلدون رأف بحاله وشغّله في الحمّام.. هو شابّ طيّب وهادئ يا حبيبة ولم يسبق أن سمعنا عنه إلّا ما نحبّ.

ظلّ أتون في تلك الأيّام مُطرقًا، يفكّر في تلك الحماقة التي ارتكبها في حقّ نفسه وفي حقّ حبيبة، أضناه السّهاد وانتابه غمٌّ شديد. لم يعد

يبارح الفرن قَطُّ، ظلّ يرمي الحطب في الفوّهة المظلمة ويتلذّذ بتلك النّار الحامية التي تتعالي ألسنتها، يتلذّذ بذلك كأنّه ينتقم من نفسه بعد أن أدرك أنّه خسر ثقة حبيبة إلى الأبد ولن يحظَى أبدًا بابتسامتها. كره أيضًا أن يتمدّد في سطح الحمّام ويتطلّع من تلك الفتحة إلى أجساد النّساء، أحسّ بالجبن والنّذالة وهو يتذكّر ما كان يفعله.

مرّت أيّام أتون حزينة، وفقد حماسه للذّهاب إلى الأسواق وتحيّن فرص رؤية حبيبة، أحسّ بخوفٍ شديد من النّظرة الأولى التي ستقابله بها، ستكون نظرة استهزاء وسخرية، دون شكّ، ستنظر إليه باحتقار ثمّ تُهمله كخرقةٍ وقد تبصق على خِلْقته وتمرّ، وذاك مصير كلّ خائن، أليس هو خائنًا؟

ذات صباح استجمع شجاعته ومشى في سوق القرانة، وجهه شاحبٌ وخطواته منكسرة، هي مشية رجل ذليل، هكذا أحسّ وهو يتّجه نحو جامع الزّيتونة، في الأثناء تناهت إلى مسمعه أصداء الجريمة التي وقعت في إحدى البيوت القريبة من سوق القماش، جريمة بشعة لم يسمع بها النّاس من قبل.

سأل أتون أحد الشّيوخ العابرين عمّا حدث، فضرب كفًّا بكفّ وقال:

- اللهمّ اهدنا واغفر لنا.. أستغفر الله يا بُنَي، وتلك عاقبة الحرام.. ما حدث لا يصدّقه عقل، لقد تعمّد ابن الشّيخ التّهامي النّيفر أن يُحرق شابّةً مالطيّة، اسمها إيزا على ما أظنّ.. قيل والله أعلم إنّه علم بخيانتها له مع شابٍّ يهودي فأحرقها.. اللهمّ اغفر له

واحمِ نساءنا وبناتنا وأبناءنا وكفّ عنّا شرّ المارقين يا أرحم الرّاحمين.

صعق أتون بما سمع، طافت عيناه في السّماء وهو يزفر، داهمته غصّةٌ في حلقه ووجه إيزا يمتثل في مخيّلته ويصله صدى ضحكتها. تعرّق جبينه وحثّ الخطى مُحاولاً أن ينسى وجه إيزا ما استطاع. ظلّ ينتظر طوال ذلك اليوم أن يلتقي بحبيبة، مشى في تلك الأنهج الضّيقة التي كانت تمرّ بها، في المسافة بين بيتها وجامع الزّيتونة، لم يصادفها أيضًا في ذاك الرّكن الذي كانت تجلس به، رأى عربة أخرى وتطلّع إلى ملامح الفتى الأسود الذي يقف وراءها. أحسّ بخيبةٍ ويأس وخمّن أنّه لن يصادف حبيبة مستقبلًا.

أمّا حبيبة فقد نسيت أمر عربتها و أصبحت ترافق أمّها إلى الحمّام، وفرحت بها للّا بيّة أيّما فرح لِمَا تتميّز به من خفّة ونشاط وحرص على النّظافة، بالإضافة إلى لباقتها ووجهها الجميل المشرق. وأصبح حضورها في الحمّام مصدر راحة للّا بيّة، فقد تضاعف عدد النّساء المستحمّات، وكلّ من تطأ قدماها الحمّام، تسأل أوّلًا عن حبيبة، فإن كانت موجودة تسرع بنزع ملابسها ثمّ تتسلّل إلى «بيت السّخون» وإن كانت غائبة تعود على أعقابها مقطّبة.

ولا تدري حبيبة كيف فكّرت ذات مساء في أن تتسلّل إلى الفرن لترى أتون، أحسّت يومها برغبة محمومة في رؤيته، ولم تجد تفسيرًا لتلك اللّهفة التي سيطرت على حواسّها. مشت بحذرٍ وتفادت كلّ العيون إلى أن أدركت الفرن واختبأت خلف شجرة التّين الكبيرة. وبعد وقتٍ مرّ كزمن طويل خرج أتون من غرفته وسار باتّجاه الفرن،

وبدأ يقذف بجذوع الحطب اليابس في الفوّهة المظلمة، وبين فينةٍ وأخرى يتجرّع من قنّينة وضعها بجانب كوم الخشب، كان يشرب لاهث الأنفاس ويقذف الحطب. وحبيبة من خلف شجرة التّين تتأمّل ذاك الوجه المتعرّق والمسوّد بالفحم. هاهلا الشّحوب الذي سكن وجه أتون، لم يكن الوجه شاحبًا بهذا الشّكل المخيف عندما التقته في ذاك الصّباح قرب جامع الزّيتونة. ظلّت مكتومة الأنفاس، تتابع ما سيفعله، هل سيعتلي سطح الحمّام؟ سألت في سرّها، ويمضي إلى تلك الفتحة ليتلصّص على النّساء، ماذا سيكون من أمرها في تلك الأثناء، هل ستظهر من خلف شجرة التّين مقطّبة الجبين وغاضبة ثمّ تصرخ في وجهه: «إيه، أنت أيّها الحقير، كفّ عن حماقاتك، لقد كشفتك أيّها الوضيع.. كفّ، كفّ عمّا تفعل، فلست إلّا حيوانًا أجرب». ثمّ تبصق على وجهه وتمضي وتنسى إلى الأبد حكاية الشّاب الشّهم الذي أنقذها ذات يوم من براثن الموت.

كيف حدث ذلك؟ لا تدري حبيبة متى شملتها تلك الغفوة، أحسّتْ فجأةً بذراعي أتون وهما تطوّقانها، لم تصدّق ما حدث، كان أتون يلهث ويبكي وهو يحضنها، لم تصرخ ولم تحاول الانفلات من حضنه. وضعت رأسها على كتفه وأحسّت بسكينة غريبة لم تعرفها من قبل.

منذ ذلك اليوم، أشرقت أسارير حبيبة وعرفت طعم الإحساس بالحبّ، ذلك الإحساس النّاعم الذي يخدّرها ويصعد بها نحو النّجوم.

***

استقرّت حبيبة في فراشها وتركت شعرها الطّويل متناثرًا على كتفيها، وركّزت نظراتها على الشّمعة التي تصاعد لسانُها، تلك الشّمعة أصبحت رفيقتها في اللّيل قبل أن تنام، وهي رفيقة أتون أيضًا في غرفته، «الشّموع يا حبيبة هي أزهارنا التي لا تذبل، وهي التي توحّد نظرتنا إلى المستقبل»، كذلك كان يهمس لها أتون ويستبقي يدها في يده. في العادة كانت تخلد إلى النّوم سريعًا من جرّاء التّعب، تنام في الظّلام بلا شموع وبلا همسات، ومنذ ذلك العناق السّاحر مع أتون تغيّر كلّ شيء. اعترف لها يومها بحبّه وصار قلبها يصخب، تتعالى أمواجه العاتية وتحسّ بذاك الدّبيب الذي ينعش شرايينها. لم يعد قلبها مثل فطيرة يابسة، أصبح فرحُها عارمًا.

ولا تدري حبيبة لماذا كانت تتوجّس خيفة من الأيّام القادمة، تظلّ في حالةِ سُهاد وهي تفكّر وتفرك ذقنها والدّماء تتصاعد إلى وجهها. وفي إحدى اللّيالي داهمها كابوس مزعج ضاعف من قلقها، كانت تجري حافيةً في الأزقّة الضيّقة والملتوية، وحينما التفتت إلى الخلف رأت المشاعل تطاردها وتقترب منها. الوجوه ملثّمةٌ غائمة، والمشاعل نيرانها حامية، والبلاط من تحت ساقيها يتحرّك. تفادت السّقوط في الحفر المتراقصة أمامها، جرت وهي تتلقّى لسعات بخار ساخن كان يخرج من شقوق الأبواب والنوافذ ويهاجمها كخلايا نحل. وفجأةً، انفتحت الأرض تحتها وابتلعتها، صرخت وهي تتهاوى والأرض تنغلق عليها، ولم تبق على البلاط إلّا خصلات قليلة من شعرها، سرعان ما طفقت تنمو وتتشكّل في هيئة أغصان.

تهيّأ لها أنّ عينيها نبتتا في شعرها، صرخت والمشاعل تحتدم أمامها وخصلات شعرها لا تحترق، بل كانت تتعالى وتتلوّى وهي تتسلّق الجدران وتتسلّل عبر النّوافذ والأبواب.

انتبهت إلى دخول أمّها، فشلبيّة لا تنام في العادة إلّا بعد أن تتفقّد حبيبة، تضع بجوارها كوبَ ماء وتنحني لتلتقط الغطاء الصّوفيّ الذي سقط عنها، تلفّ به كامل جسد حبيبة بعناية ثمّ تغلق الغرفة. وفي الليالي الأخيرة اكتشفت شلبيّة عادة جديدة، عادة إيقاد الشّموع، كانت تضحك في قرارة نفسها، خمّنت أنّ ابنتها عرفت الحبّ أخيرًا، وهي تنتظر أن تكشف لها عن فارس أحلامها، صحيح أنّ لديها شكوكًا، غير أنّها تحبّ أن تتأكّد منها.

- لا تطفئي الشّمعة يا شلبيّة.

قالت حبيبة بنبرةٍ متناعسة ثمّ تابعت:

- اجلسي يا أمّي، اجلسي بجانبي، نحن لم نتحدّث منذ أيّام يا عزيزتي.

مسكت يد أمّها وأضافت:

- أتون يا شلبيّة، أتون.

لم تندهش شلبيّة لما قالته ابنتها وانتظرت المزيد.

- ما يحدث مع أتون لا يصدّق، إنّه الحبّ يا أمّي، لكنّي خائفة، خائفة جدًّا.. ليس بسبب أتون، أنا متأكّدة، قلبه نبيل، وإحساسي لا يكذب.. الأمر متعلّق بديانته، ماذا سيقول النّاس؟.. ابنة النّوري أحبّت شابًّا يهوديًّا؟

قالت شلبيّة وهي تفرك شعر ابنتها بأصابعها:

- اسمعي يا حبيبة، اسمعيني جيّدًا، أوّلًا مسألة الدّيانة ليست عائقًا للحبّ ولا للزّواج.. وفي حومتنا تزوّجت الكثيرات من رجالٍ يهود، الأمر أصبح مألوفًا في كامل أرجاء الحيّ.. النّوري، رحمه الله لم يكن ليمانع هذه العلاقة. فقط يا حبيبة، أنت تعرفين، لا شيء أحسن من الحلال والسّتر.

- تأكّدي يا شلبيّة أنّ ابنتك لها عقل بميزان ذهب الدّنيا. وأتون، كما أسرّ لي يريدني في الحلال. الحقيقة يا أمّي حدّثني في أمر الزّواج، وكنت متردّدة في مفاتحتك بشأن هذا الموضوع.

دمعت عينا شلبيّة، بكت فرحًا وهي ترى ابنتها تكبر أمامها وتصبح عروسًا، بل هي أجمل عروس في الحومة، لكنّ العين بصيرة واليد قصيرة.. من أين لها أن تجهّزها وتسعدها مثل بنات الحومة؟ لو كان النّوري حيًّا لخفّف عنها هذا الحمل. لم تشأ في تلك الآونة أن تنغّص فرحة ابنتها، فربّتَتْ على ظهرها ثمّ رسمتْ ابتسامة مرحة وقالت:

- إن شاء الله خير يا حبيبة، ستفرحين أنت وأتون وسيعرف «الرّبَطْ» أحلى ليلةِ عرس.. فقط نامي الآن، ولا تنسي ما ينتظرنا في الغد صباحًا، غدًا زواج بنت للّا رشيدة وينبغي أن ننهض باكرًا، سنعدّ الحمّام لهذا العرس الضّخم.

شدّت حبيبة على يد أمّها بحرارة وقبّلتها، كان قلبها في تلك اللّحظات يدقّ دقًّا عنيفًا وهي تتخيّل ليلة زواجها، وصبيحة «يوم

الدخلة» وهي ترقص في الحمّام وسط حلقة فتيات الحيّ. ستزغرد أمّها بكامل بهجتها عاليًا مُفتخرةً بابنتها وسط النّساء، ستذرف دموعًا ساخنة وتتذكّر النّوري، ستضحك وتنتشي وتحلم. لم يهدأ تفكير حبيبة تلك اللّيلة، وأضاءت الشّمعةُ قلبَها كما أضاءت الغرفة، ولم يكحّل النّوم جفنيها.

في الصّباح الباكر، وكان ذلك يوم خميس، تناهى إلى مسمع حبيبة صوت المنادي وهو ينقر على طبلته: يا أهل «الرّبَطْ»، يا أهل السّعد والخير.. اليوم زواج الفايزة بنت للّا رشيدة، الحاضر يعلم الغايب، زورونا للبركة يا أهل السّعد والخير.

بدا صوت المنادي خافتًا ثمّ ما فتئ يعلو منبعثًا من أرجاء سوق القرانة. قفزت حبيبة من فراشها وهي تفرك عينيها، ارتدت ملاءةً خضراء ثمّ وضعت شالًا على رأسها وحثّت خطاها لتلتحق بأمّها في الحمّام. كانت تعرف أنّ يومها سيمرّ ضاجًّا، لا ككلّ الأيّام. للّا رشيدة كما حدّثتها أمّها من الأعيان ومن خاصّة رمضان باي. لَشدَّ ما أبهجتها مراسم احتفال النّساء في الحمّام، وخاصّة حلقة رقص الفتيات على إيقاع الدّربوكة والدفّ، والحمّام في الأثناء يعبق بروائح البخور والعطور. تظلّ العروس في حالة خشوع وهي ملفوفة في قفّاز الحنّاء والفتيات يشاغبنها ويضاحكنها. والوضع سيكون مختلفًا بلا شكّ مع ابنة للّا رشيدة، سيزدحم الحمّام بالنّساء والفتيات وستنتصب الطّاولات بشتّى أنواع المأكولات والمشروبات.

لم تقابل حبيبة كعادتها للّا بيّة وهي تعتلي كُرسيًّا خشبيًّا عتيقًا على يسار باب الدّخول، أكيد أنّها التحقت بمنزل للّا رشيدة، ستتشرف

طبعًا على موكب العروس وهو يتهادى وسط حشدٍ متراصّ من القصبة إلى الحمّام. تطلّعت إلى أمّها، كانت تفرش الزّرابي في قاعة الاستقبال، عقدت فوطة على خصرها وجرت لمساعدتها. إثر ذلك وضعت البخور والجاوي في المبخرة النحاسيّة وطفقت تطوف بها في أرجاء الحمّام، في البهو المؤدّي إلى «البيت الباردة» ثمّ «بيت السّخون» ثمّ «المطاهر».

وصلها صوت أمّها من بعيد:

- «سمّي باسم الله يا حبيبة، وأوقدي الشّموع.. النّهار راح يا بنتي..».

في الحمّام، كان الضّوء خافتًا، ينبعث من فتحات صغيرة في السّقف، البلّور يزيد الضّوء بهرة، ومع ذلك يظلّ ضعيفًا في الصّباح. ملأت حبيبة زوايا الحمّام بالشّموع، تفادت أن تضع شمعة أو شمعتين في «بيت السّخون»، تعرف أنّ البخار سيطفئ ألسنة النّار. في العادة، تقول أمّها: «الشّموع تطرد الأرواح الشرّيرة من جانٍ وعفاريت بالإضافة إلى كلّ من له مرض أو حسد في قلبه». وفي الحمّام يكثر الحسد والقيل والقال ولم يكن يخفى على أحد ما تفعله بعض النّسوة من سحر وشعوذة من أجل إفساد زيجاتٍ وتحويل وجهة الرّجال إلى صبايا طالت عنوستهنّ، لم يعد كلّ ذلك خافيًا على شلبيّة ولا على حبيبة التي تتجنّب الاقتراب من بعض وجوه النّحس كما تقول أمّها.

في الخارج، تصاعدت ألسنة اللّهب في الفرن، استفاق أتون باكرًا أيضًا وأوقد الفرن وقذف فيه الحطب حتّى تأجّجت النّار، كان

يفعل ذلك بخفّة ونشاط وقنّينة النّبيذ لا تفارقه. يظلّ يتلاعب بالنّار مثلما يتلاعب السّاحر بحيّةٍ رقطاء، يُثيرها بحركاته البهلوانيّة فتقفز إلى الأعلى، تتلوّى ثمّ تتكسّر بخفّة لتندلع من جديد محتدمةً وحامية. وجه أتون متحفّز ومشرق وهو يقذف بالحطب، تظلّ حركاته هادئة وعاشقة، وفجأةً يرقص كمَن مسّه جنّ، يرقص كما ترقص النّار ويمدّ ذراعيه في خياله إلى حبيبة فيرقصان ويرقصان.

كانت حبيبة في ما يشبه الغفوة عندما وصلتها صيحات أمّها من «بيت السّخون»:

- «حبيبة، يا حبيبة، اجري يا بنتي اجري».

شهقت حبيبة وتصدّعت أنفاسها، سارت بقبقابها لاهثةً وهي تتفادى السّقوط، وصيحات أمّها لا تتوقّف: «اجري يا بنتي اجري.»

لم تصدّق شلبيّة ما رأته، حدّقت مندهشةً في الفتحة الأرضيّة داخل الحوض، أخذت الفتحة تتّسع وتتّسع وانكشفت لها في الجوف سبائك الذّهب وهي تلمع، اتّسعت بهرةُ اللّمعان وأيقنت شلبيّة أنّ ما تراه ليس أضغاث أحلام وأنّ الله استجاب لدعائها فوهبها من نعيمه وخيراته.

- «انزعي القبقاب يا حبيبة وانزلي.. انزلي يا بنتي وما تخافشي».

اندهشت حبيبة لما رأته، أطلّت على الفتحة وأذهلتها بهرة الضّوء، شهقت وهي تتأمّل سبائك الذّهب، نزعت القبقاب بخفّة ونزلت وسط تلك البهرة اللّامعة وشرعت تلتقط السّبائك وتسلّمها إلى أمّها. مرّت اللّحظات محمومة، حبيبة تلتقط السّبائك المستطيلة

اللّامعة وشعرها متناثر على وجهها وكتفيها وأمّها تحثّها على مزيد الانحناء والتقاط سبائك أخرى. وفجأةً أحسّت حبيبة بارتخاء في ذراعيها، مسكتها يدان غليظتان من شعرها، وقبضتا عليها بعنف، فأطلقت صرخات فزع وهي تحاول أن تخلّص شعرها من يدي الجان. كان جسده طويلًا وأسود. وجهه خشن وفكّه مدبّب، في رأسه ريش أحمر يشبه التّاج، عيناه واسعتان ومظلمتان، كأنّهما تنفثان السّواد. مرّت اللّحظات قاسية وهي تخلّص شعرها من الجان الأحمر وتحاول الصّعود والخروج من الفتحة. وظلّت أمّها تصرخ من الأعلى:

- «الذّهب يا حبيبة، مازال الخير الكثير يا كبدي، هات يا بنتي هات..»

أحسّت حبيبة أنّ قواها خارت، وأنّها تتهاوى، لقد أطبقت اليد الغليظة على أنفاسها. أحسّت كأنّها تغرق وتغرق وتغرق فصرخت بإجهاد:

- «يامّي طلّعني، طلّعني يامّي راني تعبت.. راني تعبت يامّي».
- «الذّهب يا حبيبة.. الذّهب.»
- «الجنّ الأحمر باش يهرب بيّا يامّي.. طلّعني يامّي..»
- «الذّهب يا بنيتي.. الذّهب.»
- «يا..مّي...را.....تع...........»

في تلك الآونة المرعبة تسمّرت عينا حبيبة داخل الفتحة الصّغيرة في السّقف، تمنّت ساعتها أن ترى عيني أتون، تمنّت أن يصغي إلى

صرخاتها المكتومة. أحسّت بغشاوةٍ تلفّ عينيها، تجمّدت تمامًا ولم تعد قادرة على المقاومة والصّراخ. وفي لحظات مسكونة بالرّهبة انطفأت كلّ الشّموع في زوايا الحمّام، وظلّت شلبيّة في تلك الآونة مشلولة الحركة واللّسان، أمّا الفتحة فقد طفقت تضيق وتضيق وتظلم وتظلم حتّى انغلقت تمامًا، ولم تبق غير خصلات من شعر حبيبة عالقةً في قُطر تلك الفتحة على أديم الحوض.

***

حدث ذلك سنة 1696 وهي السّنة التي شهدت وفاة الباي محمّد باي المرادي وتولّي أخيه رمضان باي الحكم، هكذا حدّثني الشّيخ عبد القادر النّفزي، وهو من شيوخ الزّيتونة، سرد لي الحكاية في محلّه لبيع العطور بسوق العطّارين.

سألت الشّيخ: وماذا كان من أمر أتون يا سيّدنا الشّيخ؟

قال الشّيخ وهو يضع النفّة في منخريه ثمّ يسحب نفسًا عميقًا:

الحقيقة، اختلفت الرّوايات في شأنه، وأغلب الظنّ أنّه وجد ميّتًا في غرفته المقابلة للفرن بعد ثلاثة أيّام من وقوع الحادثة، قالوا إنّه مات كمدًا على حبيبته.. والغريب أنّ شعر حبيبة ظلّ ينبت كلّ يوم خميس في قُطر تلك الفتحة، يظهر الشّعر من عيون صغيرة ثمّ يهيج على زوايا الحوض. وكان أصحاب الحمّام يسرعون إلى قصّ تلك الخصلات السّوداء خوفًا من أن ينفر النّاس من الحمّام.. والثّابت أيضًا أنّ الحمّام قد سُمّي منذ تلك الحادثة بحمّام الذّهب.. بلّاع الصبايا. ومنذ يوم اختفاء حبيبة امتنعت أغلب النّساء عن الذّهاب إلى ذلك الحمّام.

(5)

هيلين

كلبة جارنا سيمون تنبح أسفل نافذتي، نباحُها لا يتوقّف في الصّباح الباكر وهو ما يجعلني أتململ بعصبيّة. لو لم تكن الشقّة لسيمون لكنتُ طرقت الباب وانفجرت كفقاعة صابون في وجه صاحبها. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ سيمون كان رفيق إليف منذ وصول عائلاتنا إلى مارسيليا. إنّه شيخ هادئ الطّباع، ابتسامته لا تترك لي مجالًا للغضب. «ماذا نفعل لريجينا أيّتها الجميلة، إنّها الملكة التي تنهض باكرًا وتحتجّ على الحمقى الذين يمرّون في الأسفل ويحدثون ضجيجًا مُقرفًا»، يقول لي حينما يصادفني على درجات السلّم. ماتت ملينا زوجة سيمون منذ سنوات ولم يبق له من أنيس غير كلبته ريجينا. أمّا إيزاك ابنه الوحيد فإنّه لا يزوره إلاّ في نهاية الأسبوع، يُمضي معه يومين ثمّ يعود إلى باريس. وسيمون ينزعج من زيارة إيزاك، بل هو يتفادى رؤيته، فهو شابٌّ فوضويّ، بلا طموح، «المخدّرات ستقتل هذا المتعفّن، إنّه متهوّر ولا يسمعني، يسرق أموالي ويمضي، ولماذا يعود إذن؟»، يسأل سيمون بمرارة.

الحقيقة أنّ أسرتنا الصّغيرة ممتنّة لسيمون، لا أحد منّا يستطيع أن ينسى ما فعله مع إليف، في تلك السّنوات العصيبة، سنوات الهجرة

القسريّة من تونس إلى مارسيليا. كان إليف ينزف وهو يحدّثني عن أيّام الجوع والضّياع منذ صافرة الباخرة التي أعلنت وصول العائلات اليهوديّة إلى ميناء فيوكس. يومها، كانت كلّ الوجوه حزينةً خاوية ونحن نلملم حقائبنا ونسير في شوارع ضاجّة وغريبة. في الأثناء كان إليف يمسك بيد شيرا، كأنّه يخاف أن يفترقا. ابتسامة شيرا، يقول إليف، هي التي جعلتني أشفى من حادثة قتل أدريان في دكّان الذّهب.

وقد شاءت الأقدار أن تضع إليف وجهًا لوجه مع سيمون، على رصيفٍ قريب من الميناء. في ذلك المساء الربيعيّ كان سيمون يتنزّه مع ملينا عندما وقعت نظراته على الوجوه المتعبة أمامه، وكان يعلم حكاية العائلات اليهوديّة التي تشرّدت في الأحياء الفقيرة، فعَرَف بحدسه أنّ تلك الأكوام من اللّحم تحتاج إلى مساعدة. وكان ذلك اللّقاء، لحسن الحظّ، سببًا في استقرارنا بحيّ لو بانير القريب من الميناء. سكنت عائلتا إليف وشيرا في شقّتين متجاورتين، وتمزّقت العتمة فعلًا في تلك الأيّام. وما لا ينساه إليف، الكلمات الأولى التي قالها سيمون:

-أمّا أنت يا إليف فستساعدني في متجري، إلاّ إذا كان لك رأي آخر.

استطاعت عائلتا إليف وشيرا الانسجام مع أجواء العيش في حيّ لو بانير، ولم تكن الحياة معقّدة هناك، بل هي شبيهةٌ إلى حدٍّ كبير بأجواء الحياة في المدينة العتيقة بتونس، كما تقول شيرا، فقد كانت هناك عائلات يهوديّة كثيرة هاجرت من شمال إفريقيا واستقرّت

في الحيّ، بالإضافة إلى الأنهج والممرّات الضيّقة والملتوية وتكاثر المباني الباستيل الغريبة والمنازل القديمة. إنّها فسيفساء من الألوان والرّوائح، تشبه قطعةً أثريّة إلى حدٍّ كبير. وحي لو بانير هو حيّ الطّبقة العاملة، تهدأ الحركة في اللّيل وفي الصّباح الباكر ينهض الجميع في حالة تأهّب واستنفار. يروق لي ذلك الصّخب الصّباحي، يهمهمون ويضجّون ويغنّون في الطّرقات الضيّقة والواسعة.

لا تملّ شيرا من محادثتي عن أيّامها الأولى في حيّ لو بانير، تلك الأيّام كانت لافتة بالفعل ولا تمحى من ذاكرتها، فلم يكن من اليسير أن تتأقلم العائلتان الغريبتان مع حيّ جديدٍ ومجهول. وفي الحقيقة، فإنّ الرّب كان رؤوفًا بالعائلتين، صحيح أنّ العمارة التي توجد داخلها الشقتان لم تكن حديثة، لكنّها في المقابل ليست متداعية مثل الكثير من عمارات الحيّ، والأهمّ أنّها تخلو من ضجيج الأطفال. شقّة إليف لا تختلف في تصميمها عن شقّتهم، الاختلاف الأبرز كان في المطبخ فقد أصرّت أمّها على أن يكون منفتحًا على الصّالون.

تقول شيرا: «كان مجرّد التّشابه بين الشقّتين يُشعرني بسعادةٍ غامرة، فأنا أتخيّل إليف وهو جالس على الأريكة في الصالون، أتخيّله وهو يجالس الأمّ أمايا في الشّرفة، أو حين يختلي بنفسه في غرفة النّوم. وكثيرًا ما تلحّ عليّ الأسئلة: «هل يراني إليف بقلبه كما أراه، هل يحسّ بما أحسّ به من رغبة محمومة في احتضانه؟». كانت نظراتي مشوّشة بين السّقف والجدران، بل تكاد تخترق الجدران لتلامس يدي إليف. أحرص كلّ يوم على الاستيقاظ مبكّرة لأتابع خروجه من الشقّة بكامل الشّغف، يُطبق باب الشّقة برفق ثمّ ينزل أدراج السلّم

ويتّجه إلى متجر سيمون. في تلك الأثناء يقودني قلبي إلى الأمّ أمايا، إلى حضنها، إلى حضن إليف في الواقع. وأنا أسمّيها الأمّ أمايا لأنّها كانت تشبه أمّي في كلّ شيء، في ابتسامتها، في قبلاتها، في حرارتها. ما إن تفتح الباب حتّى تأخذني بين ذراعيها ثم تجلسني بجوارها لنحتسي قهوتنا الصباحيّة. الأمّ أمايا ورثت عن أمّها، هكذا حدّثتني، موهبة الرّسم، ترسم بقلم الرّصاص ما بقي راسخًا بذاكرتها في حيّ الحارة، وترسم مدينة تونس العتيقة كما عرفتها وكما أحبّتها. وأكثر صورها تخصّ بها زوجها أدريان، في الصّالون وغرفتي النّوم والمطبخ تطالعني صورة أدريان وهو يبتسم، وهو يتطلّع إلى الأعلى أو ربّما إلى المجهول. كانت تحدّثني عن إليف ووجهها المستدير منشرح دومًا، تحدّثني عن طباعه، عن مزاجه، عن إطراقه أحيانًا وهو يتذّكر أيّام حيّ الحارة. وفي كثير من المرّات كنت أحدس أنّها تمرّر لي وصاياها كي أسعد إليف بعد زواجنا، هي تعرف أنّنا نعيش قصّة حبّ لم تعد خافيةً على أحد، وهي تبارك هذا الحبّ، «الحبّ هو طريقنا الأسرع لطاعة الربّ»، تقول لي، ثم تستأنف ضاحكة: «لا تنسي يا شيرا الملاعق الفضيّة في جهازك، إليف يحبّ تلك الملاعق يا شقيّة».

كنت أكتفي بمرافقة الأمّ أمايا في الفترة الصباحيّة، أعرف أنّ إليف سيعود مساءً إلى الشقّة، ولا أحبّ طبعًا أن يصادفني هناك، نلتقي عمدًا في السلّم لتلامس يدي يده أو نلتقي في عشاء ليلة السّبت، كنّا نحرص على تنظيم عشاء جماعي وفي الكثير من المرّات يشاركنا العزيز سيمون عشاءنا البهيج. وأثناء العشاء كانت عيوننا، أنا وإليف، وبمباركة الربّ تحتفل بعرس الحبّ العظيم».

أستمع إلى نقرات خفيفة على باب غرفتي، ثمّ تطلّ شيرا بابتسامتها الصّباحية:

– صباح الخير يا قطّتي.

تحضر شيرا فنجان قهوة ثمّ تُسرع إلى فتح النّافذة، تصادف سيمون وهو يجلس على كرسيّه متأمّلًا الجلبة في الحيّ.

– كيف الحال سيمون؟ أراك اليوم أفضل.

تصلني ضحكة سيمون:

– كما ترين يا شيرا، تشاغبني ريجينا من أجل أن نخرج في جولتنا الصباحيّة .

تغادر شيرا النّافذة وتلتفت إلى مكتبتي الصّغيرة، تعيد الكتب إلى أماكنها وتلتقط الكؤوس والفناجين المبعثرة ثمّ تمضي. شيرا تحافظ على رشاقتها وأناقتها، والحقّ أنّها لا تهمل مظهرها، ينبغي أن يكون المظهر لائقًا دومًا، تنصحني باستمرار، لذلك فهي لا تتوقّف عن الاعتناء ببشرتها البيضاء وشعرها الأسود. وككلّ صباح تصلّي أمام الإطار الكبير الذي علّقت فيه صورة إليف، تدمع عيناها، ثمّ ترسم ابتسامة مشرقة لحبيبها الذي رحل، لكنّه لا يرحل من قلبها أبدًا.

ما حدث مع شيرا في سنتها الثانية بحيّ لو بانير كان مؤسفًا، بل كارثة، فقد مات أبوها وأمّها معًا وهي لم تبلغ بعد سنّ الثّامنة عشرة بعد، ماتا نتيجة حادثِ سيّارةٍ مروّع قرب الميناء، بعد أن صدمهما شابّ مخمور في مساء صيفيّ حزين. نشجت شيرا يومها وأحنت

رأسها كمدًا، فلم يكن من السّهل أن تفقد أباها وأمّها في رمشة عين. وفي ذلك اليوم الحزين، لفّها إليف بذراعيه وهو يبكي معها بحرقةٍ وشملتهما معًا ملامح الجحيم. لا أحد في تلك الظّروف كان واثقًا من أنّ شيرا ستنهض من حالة الغيبوبة. مضت ثلاثة أيّام على ذلك الوضع في المستشفى، وإليف بجوارها ليلَ نهار. وفي صبيحة اليوم الرّابع استفاقت شيرا وعرف إليف أنّ الربّ أعاد إليه قلبه، وعندما تزوّجا بعد أشهر من تلك الحادثة أصرّت شيرا على أن تكون المراسم عاديّة. اكتفت العائلة بعشاء مساء الجمعة على ضوء الشّموع، وقد أهداها سيمون حينها قلادةً ذهبيّة نُقش عليها اسمها. في الحقيقة، تلك الهديّة فاجأت الجميع، وأعطت انطباعًا بأنّ لسيمون قلبَ رجلٍ استثنائيّ، فهو منقذ العائلة وهو، بلا شكّ، رمز التّضامن بين اليهود، هذا التّضامن الذي أنقذ آلاف العائلات من الجوع والتشرّد. تاريخنا كان حزينًا ومؤلمًا، لكنّه، كما قال إليف، علّمنا كيف نصبر ونتضامن ونحبّ. فالحبّ هو الكلمة السحريّة التي سرت في عروقنا، بل هو السرّ العظيم الذي جعلنا نتحمّل أوجاعنا ونقاوم.

لا تذهبي إلى ميناء فيوكس، تقول لي شيرا ووجهها متعرّق، لا تذهبي إلى هناك، إنّ دمنا لا يزال على الرّصيف. وعندما كبرتُ صرتُ بالفعل أتفادى الذّهاب إلى الميناء. كان إيزاك يغريني بالتنزّه في تلك الواجهة البحريّة السّاحرة وتناول حساء غلال البحر، ويظلّ يطاردني ويحاصرني بنظراته، وكنت أهرب من قبضته. طباعه غريبة وحادّة ولم أكن أتحمّله إلاّ من أجل العزيز سيمون. وفي أعماقي كنت أضحك من غبائه وتهوّره وهو يحاول تقبيلي مثل مُراهقٍ مرتبك.

كان يكتب لي رسائل بلهاء مقرفة ومقزّزة خالية من كلّ إحساس، والأدهى من ذلك أنّه كان يرفقها بصور خليعة وفاضحة، مُعتقدًا أنّي سأسقط في حضنه بمجرّد أن أتطلّع إلى تلك الصّور. البائس! كان كذئب ينتظر اللّحظة الحاسمة للانقضاض عليّ. وفي الواقع، كنتُ أعيش لحظات رعب حقيقيّة وهو يعترضني مخمورًا في أنهج الحيّ الضيّقة وفي كلّ مرّةٍ أنجو من جحيمه، أركض وأحتمي بمنازل الغرباء، ولم أكن أشكو أمره لأحد، كنت أنزف في صمت حتّى لا تتعكّر علاقة إليف بسيمون.

في أيّامي الأخيرة أصبحتُ مدمنةً على تناول حبوب النّوم، لا أنام إلّا مخدّرة، يستعصي عليّ أن أخلد إلى نوم طبيعي مثل البشر، تسحبني الذّكريات إلى أيّامي البعيدة، إلى طفولتي، إلى حضن أبي، إلى ضحكته، إلى ارتعاشة يديه قبل أن تسقطا أمامي وتنطفآ للمرّة الأخيرة. لم أكن أعرف الموت، كنت أجهل ذلك المارد، ولمّا مات إليف تغيّرت نظرتي إلى العالم، لم يعد العالم زهرةً جميلة، أصبح جرحًا نازفًا، جرحًا مروّعًا مثل تاريخنا المرعب.

أذكر تلك السّنة المروّعة التي مات فيها إليف. كان في تلك الفترة يشكو من أوجاع في القلب، ولم نكن نحسّ بما كان يحسّ به من ألم، وقد أرهقه كثيرًا موت الأمّ أمايا. كنت أسمع صرخاته في بعض اللّيالي ويحزنني نشيجه المرّ، كان يبكي على صدر شيرا ويرتعش: «أدريان.. أمايا.. أدريان»، يتمتم، ثمّ يشهق باكيًا. كان أبي مقاتلًا بحقّ. بعد أن اشتغل في متجر سيمون خيّر أن يفتح محلًّا صغيرًا لبيع الذّهب، والحقّ أنّ سيمون ساعده لكي يحقّق حلمه، وهو يعرف أنّ

المسألة على غاية من الأهمّيّة عند إليف. وكان إليف يرغب في إحياء ذكرى جميلة، ذكرى أدريان، تاجر الذّهب في سوق القرانة، فالزّمن لم ينسه تلك الأيّام، ولا غابت صورة أبيه عن ذاكرته يومًا. وفي فترة وجيزة تمكّن من تحقيق أرباح جيّدة وأصبحت مصاغته مشهورة في شارع سانت فيريول. «المصاغة هي هديّتي لشيرا»، كثيرًا ما يردّد إليف، «وهي عربون وفاء للمرأة التي ساندتني في كلّ عثراتي ولم تيأس». والمصاغة لم تنجح كذلك إلّا بجهود شيرا، فقد امتلكت مهارة التّجارة بالفطرة، وكانت تحمل معها نماذج ممّا يبدعه إليف من خواتم وأساور وقلائد وتبيعها في الأحياء القريبة، تنتقي زبائنها بدقّة وتنجح في إقناع النّساء بجودة ما يصنعه حبيبها. والحقّ أنّ إليف كان بارعًا كما تقول شيرا. لم تكن له موهبة فحسب، بل كانت له إرادة خارقة في صنع أشكالٍ مبهرة من الذّهب.

كنتُ أمضي وقتًا طويلًا مع إليف عندما تنشغل شيرا بالمصاغة، ألحظ إرهاقه الشّديد، ولطالما انتابني الإحساس بأنّ جرحه لا يتوقّف عن النّزيف. وعندما يحكّ ذقنه بأطراف أصابعه، أعرف في تلك اللّحظات أنّ أبي يفكّر ويتذكّر. وكثيرًا ما كان يأخذ كفّي بين يديه وتشعّ عيناه بفرح غامر وهو يتلاعب بأصابعي. يُحدّثني طويلاً عن ذكرياته في سوق القرانة وعمّا عاشه اليهود من أيّام بائسة. فيوقظ في داخلي أسئلةً مربكة: *لماذا كان الأمر كذلك مع اليهود؟ ولماذا عرفوا تلك المحارق؟ هل كانوا يحملون ذلك الإثم الذي يستحقّون بسببه التّنكيلَ والعقابَ؟* لم يكن الأمر متعلّقًا بمحرقة الهولوكوست الشّنيعة فحسب، بل بمجزرة أوديسا ومجزرة بابي يار، وغيرها

وغيرها من المجازر، إنّها العتمة التي تلاحقنا يا ابنتي وتحاصرنا في كلّ مكان.

ذات يوم، ولا أنسى ما قاله إليف، كان يُثير شعري وهو يحدّثني:

- لا أعتقد أنّ أجدادنا كانوا مخطئين، قد يُخطئ واحد أو اثنان، لكن، أن يخطئوا جميعًا فهذا مستحيل. في تلك السّنوات التي هاجروا فيها من مدينة قرنة ليفورنو نحو تونس كانوا يعيشون أحلك أيّامهم، أيّام الخوف والمهانة والفقر. ويؤكّد الأجداد أنّ بعض العائلات دفنت الكثير من الذّهب في الأرض التي تعرف اليوم بحمّام الذّهب، فعلوا ذلك نتيجة تلك الظّروف القاسية. أرض الحمّام كانت بستانًا مهملًا، تُلقى فيه الفضلات والأشياء القديمة، وكانوا يتسلّلون ليلًا إلى ذلك البستان ويُخفون مجوهراتهم في شكل مدافن ويضعون إشاراتٍ خاصّة بها. والغالب على الظنّ أنّهم كانوا يفعلون ذلك في اللّيالي العاصفة والممطرة، كما حدّثني أدريان.

ما لفت انتباهي أنّ شيرا أيضًا كانت كثيرًا ما تحدّثني عن أمر تلك الدّفائن. النّساء اليهوديّات كنّ يخفين مجوهراتهنّ وكلّ ما يملكن من ذهب في الأرض التي بني عليها حمّام الذّهب، كنّ يخشين على ذهبهنّ من سرقة الأوغاد واللّصوص ويرسمن في زوايا تلك المدافن شكل سمكة من بلّور، أعتقد ذلك. وعندما أمر الباي محمّد باي المرادي ببناء حمّام في تلك الأرض لم تقدر النّساء على سحب ذهبهنّ وبقي عالقًا هناك. وبالفعل، لم يكن اليهود الذين حلّوا بتونس في القرن

السّابع عشر كلّهم فقراء، تؤكّد شيرا وتثير انتباهي. لذلك عرفت أنّ الحكاية التي تقول إنّ فتاة أنزلتها أمّها في فتحة بالحمّام لإخراج الذّهب ثمّ انغلقت عليها تلك الفتحة الأرضيّة وابتلعتها حكايةٌ صحيحة، ولا أعتقد مُطلقًا أنّها أسطورة أو خرافة كما يعتقد النّاس في تونس.

تلك الحكايات جعلتني حقًّا منشغلة بحمّام الذّهب، ولأجل ذلك عدتُ إلى كُتب التّاريخ للبحث عن تاريخنا في تونس، ووسّعت البحث مع بعض معارفنا من أصدقاء إليف. في الحقيقة لم أصل إلى نتيجة حاسمة ومريحة، وكان عليّ أن أحسم قراري وأسافر إلى تونس لدراسة التّاريخ وتوسيع أبحاثي حول حمّام الذّهب الذي ظلّ هاجسًا يوميًّا، والأمر لا يتعلّق بالكنوز فحسب، وإنّما يتعلّق بتاريخنا المنسيّ.

بعد ثلاثة أيّام من رحيل إليف عاد إيزاك إلى مطاردتي بضراوة أشدّ وعنف أكبر، كنت فريسة صاغرة في نظره، ولن أقوى على المقاومة بعد أن رحل أبي. هكذا كان يعتقد البائس. فكان يترصّدني في تلك الظّروف المشحونة بالفراغ والحزن، نظراته تخترقني وتعرّيني، وكنت أعرف ما يريد. الخسيس، يشتهي أن يسحقني بوجهه القبيح وبرائحته النّتنة. لن أنسى ذلك اليوم الذي صادفني فيه عند الدّرج، رمقني بعينين ثاقبتين، ناريّتين، لم أرَ من قبل مثل ذاك الحقد الذي عشّش فيهما، وضع يده على فمي أوّلاً وطوّقني باليد الأخرى بشدّة. وعندما عجزت عن مقاومته، تماوتُّ أمامه ثمّ تحيّنت الفرصة وتحرّرت منه ونزلت الأدراج بسرعة. وفي تلك اللّحظات القاسية أنقذتني شيرا، ارتعشتُ وبكيت في حضنها مصعوقة. لم أكن واثقة

أيّامها أنّي سأنجو، كان متعفّنًا إلى درجة لا تطاق، وكلّما مررتُ أمامه أطلق ضحكة داعرة وهتف:

-ستسقطين قريبًا أيّتها الهرّة، أعرف أنّك لن تقاومي طويلًا.

صديقتي ماريا، تلك الشّقراء الجميلة تعرّضت إلى مضايقات إيزاك، وهي تعيش ما أعيش من توتّر حتّى إنّها لا تستطيع النوم إلّا بعد تناول الحبوب المهدّئة. إنّه حيوان، تقول لي ماريا بكثير من الحنق والانزعاج. والغريب أنّه لا يملك إحساس بشر، يُمضي كامل اليوم نائمًا ويستفيق في المساء ليشنّع بي وبماريا، حتّى شيرا انتبهت إلى ذلك المعتوه ولاذت بالصمت، بل لا أدري لماذا فكّرَتْ للحظةٍ في أن أوافق على الزّواج منه؟ «سيمون لمّح لي»، كانت تقول لي ضاحكةً ثمّ تضيف:

-إيزاك شابّ متهوّر، لا أحد يشكّ في هذا.. وفي مقابل ذلك سيمون طيّب، ثمّ نحن لا ننسى ما فعله معنا، إنّه رجل كريم واستثنائيّ.. إليف، العزيز إليف أيضًا لم يكن ليمانع هذه الزّيجة.. والزّواج يا هيلين يغيّر سلوك الرّجل بشكل لافت.

تميل عليّ بصدرها ثمّ تستأنف مازحة:

-يا قطّتي الجميلة، أنت ستعيدين تربية إيزاك على النّحو الأمثل.. فماذا نفعل لهذا الشّباب المندفع؟

لا أدري لماذا كنت أربط بين صورة إيزاك وتاريخنا المعذّب؟ صحيح أنّه يهوديّ، لكنّه لم يحمل من اليهوديّة تلك القيم الرّاقية التي تميّز سيمون على الأقلّ. الابن العاقّ، الملدوغ بالحمق، كانت

هي صورة إيزاك من وجهة نظر سيمون. وأنا كنت أعرف أنّ إيزاك لم يكن قدَري، لا أدري لماذا كان في باطني إحساس مجنون يقودني إلى بلد الأجداد، ولم أكن أنتظر البتّة أن أصادف سعدًا في يوم حزين مثقل بالخيبة.

أنتبه إلى رنين الهاتف، أقفز باتّجاهه وهو بين كتابين، أقرأ على الشّاشة اسم لارا ثمّ أفتح الخطّ:

- ماما، اشتقت إليك كثيرًا.. كيف حالك يا قطّتنا الجميلة؟
- بخير حبيبتي، فقط بعض الإرهاق، وأنت تعرفين...
- الأمر متعلّق بسعد؟
- لا أدري ماذا يحصل معه هذه الأيام، هاتفه مغلق، وهو لا يردّ على رسائلي أيضًا.
- وماذا أيضًا؟
- أنت تعرفين يا لارا، تعرفين كلّ شيء.
- طيّب، في نهاية الأسبوع سأزورك يا قطّتي وانتظري مفاجأة منّي. لا تسأليني الآن أرجوك ولا تفكّري في الأمر طويلًا. الأهمّ من ذلك فكّري في العزيز سعد، إنّه يحتاج الآن إلى الكثير من الاهتمام.. إنّك تنشغلين طويلًا بالتّاريخ وبالمصاغة وتهملين قلبك.. عِديني ماما، عِديني أن تفكّري أكثر في سعد.. باي ماما.. قبلاتي..

تغلق لارا الهاتف ضاحكة، كدأبها دومًا، تشاغبني ثمّ تهرب، بل هي تنفض الغبار عن مغلّف أجّلت فتحه لسنوات وسنوات، ما

الذي كان يخيفني؟ كنت أسأل نفسي، ما الذي كان يربكني؟ وهل كان عليّ أن أنقاد إلى توصيات شيرا بذلك الشّكل؟ لا أعتقد أنّي على درجة كبيرة من الجبن، دموع شيرا سحقتني تمامًا، وكنت أنقاد إليها كهرّة صغيرة.

يوم 13 مارس من سنة 1992 مثّل منعرجًا في حياتي، وهو اليوم الذي يوافق عيد ميلادي. بعد سنتين تقريبًا من ارتباطي بسعد، لم أكن أخفي شيئًا عن شيرا، بل كنت أمكّنها من كلّ التفاصيل، إلى حدّ الثّرثرة. أحكي لها عن الرّجل الذي انتشلني من هشاشتي وقادني إلى تلك الأحاسيس المبهرة التي تقول لي: أجل، يوجد حبّ في هذا العالم. بجانب طاحونة الموت ثمّة سنابل سرّيّة، لا نراها بعيوننا، فقط نبصرها بقلوبنا، سنابل سامقة، لا تذبل ولا تنحني، وتظلّ تقاوم في مواجهةٍ ضارية مع طاحونة الموت تلك.

في ذلك اليوم زارنا سعد لأوّل مرّة في شقّتنا، بعد ثلاث سنوات من موت إليف. في الحقيقة، مهّدتُ لتلك الزّيارة وتحدّثت طويلًا مع شيرا، وكان عليها أن تتخلّى عن أفكارها السّوداويّة المحبطة وتدرس اختياري بحكمة. كنت أعرف انطباعاتها عن سعد، الأمر يتعلّق بكونه مسلمًا، وهو ما يثير انزعاجها ومخاوفها. ماذا بعد الحبّ؟ تقطّب جبينها وتسألني، أمّا أمر الزّواج فكان مستحيلًا ولا يقبل النّقاش. وفي الأثناء كانت شيرا تعيد على مسمعي مسجّل إيزاك، تحاول بكلّ الحجج أن تقنعني بهذه الزّيجة. وسيمون لم يبق صامتًا، فاتح شيرا في الموضوع، قال إنّه يطلب ذلك وفاءً لروح إليف، ووعد أيضًا بتغيير طباع ابنه المزعجة، «إيزاك لا بدّ أن يزور طبيبًا نفسيًّا»، يؤكّد سيمون.

كانت شيرا تحدّثني وعيناي مغمضتان. كنت أركض مندفعة نحو سعد، وأعتقد أنّ الرّيح التي كانت تدفعني إليه لم تكن مسمومة.

الحقّ أنّ شيرا استقبلت سَعدًا بابتسامة مشرقة لا تتخلّى عنها في العادة مساء الجمعة. وقبل ذلك كانت مبتهجة وهي تعود من السّوق محمّلة بما يلزم لإعداد عشاء لائق بضيفنا. وقد جلب سعد من جهته كرتونة من النّبيذ الأحمر وأكياسًا صغيرة من التّوابل والبهارت والهريسة التونسيّة التي تحبّها شيرا. أوصيت سعد بأن يجلب كلّ ذلك معه، وأعترف أنّي كنت أعدّ مخطّطًا في رأسي لتكون انطباعات شيرا الأولى مشجّعة. بدا سعد على غير عادته خجولًا ومقلًّا في الكلام معي، وهي المرّة الأولى التي ألاحظ فيها ذلك، وبين فينة وأخرى يغمزني بعينه اليسرى ثمّ ينشغل بتأمّل صورة إليف في أعلى الجدار المواجه له.

أعدّت شيرا مائدة تفوح منها رائحة تونس كما هتف سعد، كسكس باللحم والخضار وشرائح من اللّحم المطبوخ وتشكيلة من السلطات والفواكه. أمّا أنا فأشعلت الشّموع في زوايا الصّالون وأحضرت قارورةً من النّبيذ الأحمر. شموع شباط تضيء قلبي وتسكرني بتلك السّكينة التي أحتاج إليها في نهاية الأسبوع. في صحّتك، هتف سعد باتّجاه شيرا، ثمّ ابتسم لي وهو يرفع كأسه. وفي الأثناء استغرقت شيرا لبعض اللّحظات في الدّعاء وترديد صلاتها في صمت ثمّ قالت:

-رائع هذا النّبيذ يا سعد، وأظنّ أنّنا سندمن عليه.

في الواقع، الطّبخ هو مجال شيرا، تعتبره من مهامّها النّبيلة داخل البيت. منذ العاشرة من عمرها وهي مغرمة بالطّبخ الذي تراه فنًّا من الفنون العظيمة، وهو عندها مزيج من الثقافات، إسبانيّة وإيطاليّة وفرنسيّة وتونسيّة بالخصوص. عندما تدخل المطبخ تلفّ رأسها بمنديل وتغيب، كأنّها تقوم بواجب مقدّس. تربَّتْ شيرا في حيّ الحارة حيث تتعالى صيحات تجّار التّوابل والخضراوات، وهناك تدرّبتْ على روائح المأكولات. لا أحد ينافس شيرا في الأطباق اللّذيذة، أمّا أنا الكسولة فأكتفي بتقشير البطاطا وإعداد السّلَطات، وفي أحسن الحالات أعدّ العجّة، ولا أجعلها حارّةً كما يحبّها سعد بطبيعة الحال.

ظلّ الحديث يقظًا طوال الوجبة التي انبهر بها سعد، لاحظت ذلك على الأقلّ من انهماكه في الأكل بشراهة. في العادة، سعد يشرب النّبيذ أكثر ممّا يأكل، وهذا مضرّ بالصحّة في ما أعتقد، هو أيضًا يعتبرها عادة سيّئة كبرت معه. «الفقر الكافر يا هيلين، يجعلنا لا نأكل كما يجب، ونحن الفقراء نأكل الخبز كثيرًا لنوهم المعدة بأنّنا أكلنا بالشّكل اللّازم»، هكذا كان يقول كلّما وبّختُه.

همست في أذن سعد:

- من الواضح أنّك ستدمن على أكلات شيرا.

قال ضاحكًا:

- الحقّ أنّ للسيّدة شيرا لمساتٍ سحريّةً.

كانت شيرا تدرس بطرف عينها نظرات سعد وحركاته وطريقته في الأكل، تتابعه بدقّة وتسجّل ملاحظاتها في رأسها.. «سعد منسجم

تمام الانسجام مع مائدتنا الملكيّة، وهو لا يندهش من أيّ شيء، وبطبيعة الحال هيلين هي من علّمته عاداتنا في شباط، ولا ينقصه إلاّ أن يعلن يهوديّته، وهو أمر غير مستبعد إذا كان يحبّ هيلين ويرغب في الاقتران بها»، تقول شيرا في سرّها. المهمّ أنّ شيرا كانت على غاية من الارتياح وهي تجالس سعدًا لأوّل مرّة، وذاك ما أعطاني انطباعًا أوّل بأنّ شيرا لن تصفني بالحمقاء لأنّي عشقت صاحب الوجه الأسمر المستدير.

فاجأتني شيرا وهي تسأل سعد:

- لماذا لا تلتزم بتعاليم الإسلام يا سعد؟ أنت تشرب الخمرة وهي محرّمة في شريعتكم، ثمّ إنّك لا تصلّي.. أرجوك، لا تغضب منّي، فقط أريد أن أفهم.

على غير ما توقّعت، لم يرتبك سعد ولم يحمرّ وجهه في مثل هذه المواقف المحرجة، قال وهو يسحب نفسًا عميقًا من سيجارته:

- سؤالك مهمّ جدًّا، سيّدتي شيرا.. ولا أخفي عنك، أنا طرحته على نفسي في مناسبات كثيرة. ما معنى أن أكون مسلمًا ولا أقوم بواجباتي الدّينيّة، ما معنى ذلك بالفعل؟ المسألة في رأيي مرتبطة بكوننا في تونس نمارس حياتنا بحكم العادة، وبحكم تنشئتنا وتربيتنا، وعندما نكبر نفعل ما كان يفعله الكبار. أبي لم يصلّ إلّا في سنواته الأخيرة، قبل أن يموت، وكذلك أمّي. عندما يكبرون يعودون إلى الله، هكذا يعتقدون، ليس إيمانًا خالصًا، بالتّأكيد، إنّه الخوف من العقاب وتلهّفًا على الجنّة..

بالفعل، ظلّت علاقتنا بديننا علاقة سطحيّة وبراغمتيّة، طبعًا أنت تفهمين ما أعني بالبراغمتيّة، أتحدّث هنا عن الصّلاة والصّوم وعن مناسباتنا الدينيّة. أغلبنا يفعل كلّ ذلك بحكم العادة، لا أكثر ولا أقلّ، بل إنّ كثيرًا منّا في تونس يصلّون ويشربون الخمرة ويصومون ويرتكبون الفاحشة ويخرجون الزّكاة ويقهرون المساكين ويعطفون على الفقير في تناسق غريب، إنّها الفوضى، الفوضى الخلّاقة يا سيّدة شيرا. وعندما تسألين أحدهم لماذا كلّ هذا التناقض لا يستطيع بالفعل أن يجيبك. يبحلق في وجهك ويضحك ثمّ يؤكّد لك أنّه مسلم، وهو غير مستعدّ لأن يترك دينه إلى اليهوديّة أو المسيحيّة، ثمّ يسألك وهو منفعل: هل تريدني أن أكون ملحدًا؟

تشهق شيرا وتقول:

-ليس إلى هذا الحدّ يا سعد.. أنت تبالغ وتتحدّث عن شريحة ضيّقة من المسلمين.

-بل أؤكّد لك أنّها الشّريحة الواسعة، أعني بذلك عامّة النّاس. النّظام ضيّق الخناق على العباد في المساجد وفي كلّ المنابر، وفي هذه الحالة لن ننتظر غير اليأس واللامبالاة والتطرّف.

يشرب سعد كأس النّبيذ ويسترسل:

-لو نتحدّث مثلًا عن حادثة باب سويقة التي جرت في السّنة الماضية، ليلة 17 فيفري.. حادثة القتل والحرق كانت بغاية انتقام الإسلاميّين وتشفّيهم من النّظام بعد كلّ ما حدث إثر

الانتخابات التّشريعيّة منذ ثلاث سنوات.. نحن نعرف كلّ شيء، والقفز إلى الأمام دون معالجة الخلل ينتج العنف، وفي الأخير المواطنون الأبرياء فقط يدفعون الثّمن.

-أجل، أوافقك يا سعد، وفي كلّ الحالات لا بدّ من علاقة واضحة بالدّين، ليس بحكم العادة وإنّما نتيجة الإيمان.

-المسألة لا تتعلّق بالإسلام فحسب، وإنّما تتعلّق بالدّيانة اليهوديّة أيضًا. أنت تعرفين أكثر منّي الصّراع بين المتديّنين وغير المتديّنين.. بالإضافة إلى الممارسات العنصريّة بين اليهود الغربيّين الشّقر (الأشكيناز) واليهود الشّرقيين (السّفارديم).

-أجل، أجل يا سعد، أنت محقّ في هذا، ونحن اخترنا المنطقة الوسطى، الحقيقة نحن لا نطبّق التوراة بشكل كامل مثل جماعة الحريديم الذين يُغالون في التديّن.. وأنت على اطّلاع، لاشكّ، بالأيّام العاصفة التي مرّت بنا، وكان علينا أن نتأقلم مع الأوضاع مع عدم التّنازل عن اليهوديّة بكلّ تأكيد.

-كذلك نحن، بلادنا معجونة بتاريخ غريب، تاريخ الغزوات والخيانات، الانتصارات والانكسارات، لكنّ الهزائم هي السّائدة، ما تعرّضتم له من مذابح تعرّضنا له نحن أيضًا على مرّ التّاريخ، ولا أدري من يقود هذا العالم البائس؟

لعلّ ما فاجأني أكثر، بل أذهلني، هو ما طلبته شيرا من سعد. ماذا أرادت شيرا بالضّبط؟ هل أرادت اختبار سعد بالشّكل الكافي؟ أم أرادت أن يكون لنا رجل نثق به في حياتنا؟ ونحن بالفعل نحتاج إلى رجل حقيقي يبدّد مخاوفنا ممّا سيأتي.

قالت شيرا وهي تنظر عميقًا في عيني سعد:

- ماذا لو طلبت منك يا سعد أن تدير مصاغتنا في شارع سانت فيريول؟ سنكون، أنا وهيلين، سعداء بكلّ تأكيد.

ما قالته شيرا شكّل مفاجأةً لسعد، العرض كان على غاية من الأهميّة، سعد، في المقابل لا يزال يتابع دراسته في كليّة الآداب بمنّوبة، كيف سيكون الموقف؟ والأمر كما لاحظت، مهمّ عند شيرا، وكما خمّنت، سترتبط به كلّ القرارات التي سترد لاحقًا.

ظلّ سعد مُطرقًا للحظات ثمّ قال:

- في الحقيقة، أنا سعيد بثقتك سيّدتي شيرا، أنت تعرفين مسألة الدّراسة وانشغالاتي أيضًا في تونس والقصرين.. ومع ذلك، سنعود إلى هذا الموضوع.. سأناقش الاقتراح أيضًا مع هيلين، لا يمكن طبعًا ألّا أسعد قلبها الجميل.

ماذا حدث بيني وبين سعد في تلك اللّيلة، ماذا حدث في غرفتي؟ هل أسرفنا في الشّرب إلى درجةٍ جعلتنا نذوب تمامًا كما ذابت الشّموع؟ لا أدري كيف حدث ذلك. أعدّت شيرا غرفة الضّيوف لينام فيها سعد، وأنا مسكته من يده وأغلقت باب غرفتي. في تلك اللّحظات، لم نفكّر أنا وسعد في أيّ شيء، غمرني بسمرته ورائحة عطره، اخترقتني تيّارات مثيرة وعنيفة لا فكاك منها. كنّا على عتبة الرّغبة وفي جوفها، والإعصار لم يشأ أن يمرّ، اشتدّ وغمر أعماقي. تشمّمتُ رائحة سعد، تضوّع عطره أكثر وأغمضت عينيّ كأنّي في حلم. ما أذكره أنّ أصابعي راحت بكلّ نهم تتحسّس وجهه وشعره.

وقد طهّرني سعد وهو يقبّلني بجوعٍ خرافيٍّ من ظلمةٍ مقيتة كانت ترتديني، ظلمة ثخينة في أعماقي رحلَت دفعةً واحدة. كنت في تلك اللّحظات الملتبسة أكتشف ملمس جسد رجل لأوّل مرّة، وعرفنا ليلتها أنّ السّعادة ممكنة، وفي صميم الصّخب والهدير صعدنا إلى السّماء ولم نعرف الاكتفاء.

بعد تلك الليّلة غاب سعد لمدّة خمس سنوات، غاب بشكل أخافني وأرعبني. هل حقّق الغرض الذي عرفني من أجله؟ كنت أسأل وأهذي. بحثتُ عنه وانتظرت في كلّ لحظة أن يظهر، أن يخرج من المتاهة ويقول لي: «كيف تعتقدين أنّي أهرب من حضنك الذي غسلني وجعلني أعرف الحبّ؟ كيف؟ كيف؟» لا أثر له في الكليّة ولا في شوارع تونس، ولا أحد كان يعرف مكان سعد، أصدقاؤه أيضًا كانوا في غاية القلق بسبب غيابه المفاجئ. مضت تلك السّنوات حزينة، خاوية، وكنت وحيدة، أدرس في الكليّة وأشتغل في السّفارة الفرنسيّة وأنتظر أن يظهر سعد، كنت فقط أنتظره لأسأله ثمّ أمضي: لماذا هربت منّي؟

وكانت تلك السّنوات الخمس امتحانًا عسيرًا لارتباطنا، أنا وسعد. كانت سنوات ثقيلة، وأعتقد أنّنا نجحنا في ذلك الامتحان المضني والخانق. ففي سنوات الجمر تلك عادت شيرا لتقنعني بإيزاك، بل تخاصمنا من أجل هذا الملفّ الذي لا يرحل. «حاول اغتصابي يا شيرا، أتفهمين ما معنى ذلك؟» كنت أتململ في حضنها وأنشج بارتياع. خرج سعد من السّجن، ولا أحد علم بمسألة السّجن غيري، مثلما تعذّبت سعد في سجن 9 أفريل. أحبّ

أن يتلقّى الدّرس القاسي لوحده بعد تلك الحماقة التي ارتكبها في حقّ نفسه. قال لي وهو يسرد الحكاية: «امتنعتُ فعلاً عن إخبارك بما حصل، وما حصل كان شبيهًا بكابوس. أجل كنت أتاجر بالآثار، لم أكتف بوادي الدّرب مثلما كان يفعل أبي، فقد دفعني البحث عن الخلاص نهائيًّا من الأوضاع البائسة إلى اقتحام عالم التّنقيب عن الآثار في سبيطلة وحاجب العيون، وفي كهف قريب من مدينة حاجب العيون عثرتُ على رؤوس تماثيل وقناديل ولوحات وقطع نقديّة ثمينة، عثرتُ على كنز وهرّبته إلى تونس العاصمة. طبعًا، أنت لا تعرفين حاجب العيون، هذه المدينة التي كانت تُسمّى مسكيلياني في العصر الرّوماني، وهي مدينة عائمة على حضارات آلاف السّنين. لا أدري كيف تعقّب أعوانُ الشّرطة خطواتي وقبضوا عليّ وحدث ما حدث معي. كيف كنتُ سأتجرّأ على إخبارك في ظروفي السّافلة؟ كيف؟ حدستُ أنّ مجرّد علم السيّدة شيرا بالحادثة سيعصف بحبّنا إلى الأبد. تجنّبتُ أيضًا أن تريني في السّجن، فلا شيء أقسى على المحبّ من تلاشي صورته المشرقة في عينيْ حبيبته».

أنتبه إلى رنين الهاتف، بحركة ساهية ينسكب رشيش القهوة على كتاب بجانبي، تاريخ معالم التّوحيد في القديم وفي الجديد لمحمّد بن الخوجة. ماريا الرّائعة تذكّرني بموعد الحمّام يوم الجمعة. طبعًا أنا لا أنقطع عن حمّام الحريم كلّ أسبوع برفقة ماريا التي لا تفارقني، لقد أرسلها الربّ لي لتكون صديقتي ورفيقتي في حيّنا الصّاخب. المرأة المغربيّة ساندرين مالكة الحمّام، وهي من أصل يهوديّ، تسعد لحضورنا وتشاركنا الاستحمام. وبالفعل، نعيش أوقاتًا منعشة في غرفة البخار،

نشتهي هناك أن نضحك ونثرثر ونتطهّر. وبعد الاستحمام نخرج إلى غرفة الاسترخاء المزيّنة بلوحات موزاييك ونتناول فطائر ساخنة، تلك عادتنا الجميلة أنا وماريا. وساندرين تلحّ دومًا على حضورنا الأسبوعيّ لتخفّف هي أيضًا من وطأة غربتها.

أفتح بريدي الإلكترونيّ، وأعثر على رسالة جديدة من سعد، هذا المذهل بمفاجآته. كما توقّعت، لم يتأخّر في الكتابة رغم أنّي كنت قاسية معه، ولم أردّ على رسائله. كان عليّ أن أرتّب قراراتي بشكل يريحني، لذلك، ومنذ سنتين كنت على مسافة من الجميع، من شيرا ومن سعد. أمّا لارا فالأمر معها مختلف، كنت أحرص على الاقتراب منها، أفعل ذلك حتّى أذيب الجليد بيننا. هي تعارضني في مسألة رفضي الزّواج بسعد، بل أحسست بغضبها بسبب موقفي الغريب، وهو موقف شيرا في نهاية الأمر. وما عكّر الوضع هو تلك الفترة اللّعينة التي قضّاها سعد في السّجن، كادت تجنّ بسبب ذاك الهروب، واعتقدت جازمة أنّه داسني بقدميه وهرب. «إيهه قولي لي، ما هو الشّيء الذي يجعلك تتشبّثين بسعد، بهذا الشّكل؟ وإيزاك هو الأجدر باهتمامك»، كانت تصرخ في وجهي.

أفتح رسالة سعد وأقرأ:

«حبيبتي،

مضت سنتان خاويتان ومضجرتان إلى حدٍّ ذبتُ فيه كشمعة حزينة لم تعد قادرة على توفير الضّوء، في كلّ يوم كان وجع الغياب يعوي في داخلي ويقهرني. لا أخفي عنك، تجاوزت أخيرًا حالة الخراب

التي داهمتني وأنت تُعلمينني بعد خروجي من السّجن بأنّك عشت تجربة زواج فاشلة انتهت بجنين. عشتُ إحساسًا مريعًا صاعقًا، ولم أحدّثك عنه في لقاءاتنا السّابقة، أجل، لم أستطع أن أصدّق ما رويته لي، والغريب أنّك لم تحدّثيني عن ذاك الرّجل الذي عشت معه لأيّام، كما قلت لي. لارا، عزيزتي لارا، هي أيضًا تهرب من إجابتي ثمّ تغرق في صمتها وأعرف أنّها تبكي وتخفي عنّي دموعها. أدركت في الأخير أنّك كنت على حقّ عندما تزوّجت وحدث ما حدث.. أعترف، غيابي كان مريبًا وكان لا بدّ أن تتواصل حياتك بشكل مريح، لا بأس، أنت تزوّجت عندما كنت أنا في السّجن، ومن الأفضل ألّا نعود الآن إلى الماضي، علينا أن نرمّم معنويّاتنا ونستعيد أحاسيسنا الجميلة، وأعتقد يا هيلين أنّ تلك الأحاسيس لن تموت. في الأيّام الأخيرة فهمت حقيقة معنى الاختراق، اخترقتني يا هيلين وامتلأت بك إلى حدّ المرض والإنهاك. أدركت أن لا أحد يغسلني غيرك، بنظرة منك، بلمسة، بقبلة خاطفة، وبحضنك العاصف. وكنتُ ممدّدًا في كفّك، هاجعًا ومتجمّدًا أنتظر كلماتك. وها إنّك، الآن، تسمحين للمطر بأن يهطل بعد طول انحباس. أجل، الآن بإمكاننا أن ننظر إلى الأمام في اتّجاه واحد.

حبيبتي،

أدرك اهتمامك بحمّام الذّهب، وأذكر أنّك حدّثتني عنه، أذكر بالفعل، كنت منتبهًا إلى ذاك الاهتمام بتاريخك المنسيّ والمجهول. لذلك قرأت تلك الأوراق التي أرسلتها مع جوهر بكثير من التّركيز. أمّا مسألة جوهر، هذا الرّجل الغريب، فسنعود إليها لاحقًا. قصّة

الحمّام مؤثّرة حقًّا يا هيلين، ولا أعلم مدى صحّة تلك الوقائع، لا بدّ أن أبحث أنا أيضًا وأتأكّد من حقيقة ما جرى، وخاصّةً ما يتعلّق بتلك الفتحة في الحمّام. أعتقد، حسب تجربتي، أنّ تلك الفتحة تخفي كنزًا ثمينًا، الأمر مثير للانتباه حقًّا. وفي ظنّي أنّ أسرار الحمّام كثيرة ولا مفاتيح لها، على الأقلّ الآن أقول ذلك، وبعد البحث سنناقش الموضوع.

قبل أن أنسى يا هيلين، لارا كتبت لي رسالة رائعة. وأخبرتني أنّها تعدّ لي مفاجأة، ولا أدري ما إذا كنت على علم بذلك.

قبلاتي.»

أُغلق الحاسوب وأفتح النّافذة، أُطلّ على العالم الصّاخب وأنا أفكّر في كلمات سعد وأتساءل أنا أيضًا عن مفاجأة لارا. في الأسفل شجار بين رجلين، أحدهما جارنا والآخر غريب عن الحيّ، أرفع رأسي قليلًا وأدقّق في ملامح جارنا، كان غاضبًا، يداه تنتفضان وتحكمان مسك حقيبة يدويّة صغيرة.

صاح جارنا:

-لا داعي للنّقاش أكثر، لن أسلّمك الحقيبة قبل تسليمي الأموال كاملة.

عقّب الثانّي:

-ولماذا هذه الشّروط المجحفة؟.. تعوّدنا في معاملاتنا السّابقة على أن تتسلّم نصف المبلغ الباقي بعد بيع البضاعة.

-إنّها أوامر يا جورنو، أوامر.. وأرجوك، لا تلحّ.

كنت أعرف ما تحتويه تلك الحقيبة اليدويّة. لقد أصبح حيّنا في السّنوات الأخيرة مرتعًا لعصابات المخدّرات. وها إنّي أتفاجأ بجارنا، لم أكن على علم بكونه فردًا من تلك العصابات، أصبح حيّنا مخيفًا بسبب هذا الاختلاط المريب. أرفع عينيّ نحو آخر الشارع، أدقّق في الوجوه، أتفاجأ بملامح إيزاك وهو يمشي مترنّحًا بوجهه النّحيف والمستطيل صوب عمارتنا. توقعّت أن يعكّر حضوره يوم سيمون، ويجعل ضحكته الصباحيّة تنقلب إلى قرف. أنا أيضًا لا أحتمل أن أرى تلك الملامح المقزّزة، أحبس أنفاسي وأسارع بغلق النّافذة.

(6)
جوهر

في ديسمبر أبدأ العمل عند العاشرة أو بعد ذلك بقليل، لا وجود لأمزجة رائقة تقدّم أحذيتها للمسح والتّلميع في الصّباح الباكر، الوجوه لا تبتسم في ذلك الوقت. هكذا خبرت الناس، تكون لهم أمزجة سيّئة، على نحو غريب يكثر الصّراخ والانفعال، تعوّدت على هذا النّسق منذ سنوات وأنا أرى الوجوه الصباحيّة التي تمرّ في شارع الحريّة. وبطبيعة الحال عندما تغيب الابتسامة تنعدم فرص الشّغل وتمرّ الأحذية أمامي مثقلة بأتربتها وغبارها. أجلس على الكرسيّ الخشبيّ وأمامي طاولتي، أحرص دومًا على حسن تنظيفها وتنظيمها، علب التّلميع في صندوق خشبيّ صغير، علب اللّصاق وخيوط الأحذية وقطع القماش في صندوق آخر. أمّا الرّاديو الصّغير فخصّصت له صندوقًا يناسب حجمه، لا أحبّ أن أعرّضه للغبار أو للمطر. الرّاديو، يلازمني دومًا ويزوّدني بأخبار العالم، ليس بإمكاني طبعًا أن أقرأ الجرائد، ذاك عبث وسوء تقدير، وضعيّتي تفترض الاستعداد في كلّ لحظة لتلقّي حذاء، أعرف أنّ الأمر لا يكون متواترًا ومنتظمًا، وفي كلّ الأحوال، عليّ أن أكون على أتمّ الاستعداد في كلّ لحظة. قهوة الفيلتر تنعشني أيضًا، تدغدغني رائحتها وتنشّط في

داخلي كلّ الخلايا، ماذا أفعل لهذه العادة التي لم أنقطع عنها منذ فترة الشّباب؟ رحل الشباب ولم ترحل عاداته. كلّ يوم، يحيّيني رجلا الأمن المرابطان أمام الكنيس، فأحيّيهما أنا أيضًا بحركة ممتنّة من يدي ثمّ أحدّق عاليًا في مبنى الكنيس وأصلّي في خشوع. مهنتي لا تحرجني كما يتحرّج ماسحو الأحذية في شارع باريس أو شارع الحبيب ثامر، هم أصدقائي، أعيب عليهم امتعاضهم من مهنتهم، وأحيانًا أوبّخهم وأقول لهم: «إمّا أن تشتغلوا بحبّ وإمّا أن تتركوا كراسيكم لمن ينتظرها». وبمرور الأيّام استطعت أن أكسب صداقات ثمينة مع العابرين يوميًّا في شارع الحرّيّة، وليس من السّهل على شيخ مثلي أن يحظى بثقة النّاس.

في يومي الأوّل، أذكر ذلك جيّدًا، منذ عشر سنوات، أو أقلّ، لا أدري، جئت إلى هذا المكان مع طاولتي وأدوات العمل، كنت مبتهجًا في ذاك الصّباح بعملي الجديد، وفي سرعة البرق هجم عليّ أعوان الأمن، ولا أدري من أين خرجوا. لم يكلّفوا أنفسهم استفساري أو طلب وثائقي، هشّموا طاولتي وبعثروا علب التّلميع ثمّ اقتادوني إلى قبو مظلم في وزارة الدّاخليّة.

خاطبني المحقّق بعصبيّة:

- اعترف أيّها الحقير، من جنّدك للجلوس أمام الكنيس؟ نحن لا يمكن أن نصدّق أنّك ماسح أحذية.. وأنت تعرف أنّه يمنع الانتصاب في ذلك المكان.

هل كانت ملامحي قميئة إلى درجة معاملتي باحتقار وقسوة؟

دهشت لسيل التّهم التي وجّهت إليّ وابتلعت غصّة عميقة. لأوّل مرّة أحسّ بالعجز وتملّكني شعور بالمهانة. لم أنتظر قَطُّ أن أوصف بالمشبوه الّذي يخطّط لعمل إرهابيّ. حاولت في تلك اللّحظات أن أحافظ على هدوئي وقدّمتُ لهم بطاقة التّعريف، وكان من الغريب ألّا يطلبوها منّي.

قرأ المحقّق:

-الاسم: أوري.

اللّقب: ساسون

الجنسيّة: تونسيّة

اسم الأمّ: إليورا

المهنة: عامل يومي.

العنوان: 29 نهج الذّهب تونس.

قدّمت أيضًا وثيقة تكليف من الجالية اليهوديّة بتونس لحراسة الكنيس في الفترة الصباحيّة من كلّ يوم.

صاح المحقّق بعد أن قرأ التّكليف:

- لقد كنّا على حقّ، فأنت لا يمكن أن تكون بطبيعة الحال ماسح أحذية، هكذا لوجه الله.. الأمن لا يمزح في هذه الأمور يا سيّد أوري.

ترشّف من فنجان القهوة وتابع:

- أنت أيضًا مخطئ، كان عليك أن تتّصل بنا وتكشف لنا هويّتك.

عمومًا نحن نأسف لأنّنا تعاملنا معك بمنتهى القسوة.. وأنت تفهم طبعًا ظروف عملنا.

اسمي أوري، وأمّي إليورا هي آخر من نطق بهذا الاسم. كانت تُحشرج به وهي تتلقّى آخر الركلات من ثلاثة جنود ألمان. في ذاك الصّباح الحاقد، بعد أن هشّموا باب بيتنا أطلقوا النّار على أبي، أطلقوا عليه رصاصتين في مستوى القلب، فتهاوى مثل جبل. صرخَتْ أمّي في وجوههم مفزوعة وقذفتهم بفردتي حذائها وهي تزمجر غاضبة، ولكنّ أحد الجنود سحَلَها بكلّ برودٍ نحو غرفة النّوم، وعنّفها بشدّة ثمّ اغتصبها. العالم في تلك اللّحظات كان صراخ أمّي واستغاثة أمّي، اغتصبها الثّاني ثمّ سدّد لها ضربات على رأسها ببندقيّته، رأيت أمّي بعد ذلك وهي تفرّ من رعب غرفة النّوم، ولم أعرف ساعتها ماذا فعلوا بها، كانت تزحف غارقةً في دمها وتُحشرج:

-أوري.. أوري.

وماذا سيفعل أوري؟ لقد كنتُ هشيما وأنا أرمقها تنزف من فمها وأنفها، وأشلاؤها متناثرة أمامي. لا أحد منّا كان قادرًا على الحراك، قتلوا أبي أمامي ثمّ اغتصبوا أمّي ونهشوا لحمها بأرجلهم وبنادقهم، وظلّوا يرمقونني بحقد. لعلّهم فكّروا في قتلي، أنا الشّاهد الوحيد على جريمتهم البشعة، ولعلّ صراخ جيراننا هو ما دفعهم إلى الانسحاب. لا أدري، كيف يمكن أن أنسى؟ في تلك اللّحظات كنت غير قادر على احتضان أمّي وتقبيلها من جبينها وخدّيها، كنت ساهمًا، مصعوقًا، إلى أن سقطتُ كما سقطَتْ.

عندما استفقت جالت عيناي في غرفة غريبة عنّي، كانت أكثر اتّساعًا من غرفتي، وسمعت لغطًا في الخارج. الأصوات متداخلة، تأتيني من قريب ومن بعيد، قراءة قرآن، أصوات أطفال ونساء، ضحكات ونداءات، خمّنت أنّ هناك أطفالًا يلعبون ونساء يتحدّثن ويقهقهن. أصخت السّمع لأميّز الأصوات بعضها من بعض، لم أسمع صوت أمّي، ولا صوت أبي.. كنت كأنّي في حلم، بل كنت سجين كابوس، لم أستطع أيضًا أن أرى بشكل واضح، فركت عينيّ وأنا أتطلّع في وجه طفلة صغيرة تتسلّل إلى الغرفة، شهقت الطّفلة ثمّ جرت وهي تصرخ:

-لقد استفاق، لقد استفاق أخيرًا.

فزعت وجوه كثيرة إلى الغرفة، وجوه نساء وأطفال، لم يسبق لي أن رأيت وجهًا منها، التفّوا حولي بكثير من الإشفاق، نظروا إليّ مطوّلًا وباندهاش. كنت في تلك الوضعيّة صامتًا، وفي حالة توتّر، والطّفلة زينب -عرفت اسمها فيما بعد- تقفُ قبالتي دامعةً، صامتةً، وزائغة العينين مثلي تمامًا. كانت تقاربني في السنّ، عمرها سبع سنوات أو أقلّ بسنة. أمّا الوجوه الأخرى فلم أستطع أن أميّز ملامحها، كانت نظراتي غائمة، وقد منعتني غشاوة في عينيّ من الإبصار مثلما تعوّدت. كدت أصرخ، ضغطت بيدي على الغطاء الصّوفي ولم أصرخ، تململت في فراشي، وتحوّل صمتي إلى نشيج. لمس كفٌّ رقيقٌ جبيني، كفّ شبيه بكفّ أمّي، لكنّه ليس كفّها، وسرعان ما صاحت المرأة:

-حرارته مرتفعة جدًّا.

قالت امرأة أخرى:

-الحمد لله أنّه استفاق بعد ثلاثة أيّام من تلك النّكبة.

عقّبت أخرى بصوت منخفض، ربّما اعتقدت أنّي لن أسمعها:

-المسكين، قتلوا أباه أمامه.. ثمّ شنّعوا بأمّه.. إنّهم وحوش.

قالت المرأة التي وضعت كفّها على جبيني:

-الملاعين، أحرقوا المنازل والمحلّات واغتصبوا النّساء. ماذا يريد الألمان من جيراننا اليهود، يا ربّي، إنّهم طيّبون، لماذا كلّ هذه العجرفة الحاقدة؟

دخل رجلان إلى الغرفة وظلّا يتطلّعان إليّ، انسحبت النّساء بسرعة البرق، زينب ظلّت ثابتة أمامي، لا تكترث لأحد. تفحّصني أحد الرّجلين، تحسّس جبيني وعنقي ثمّ كشف عن صدري، بعد ذلك فتح حقيبته الصّغيرة وناولني جرعة من مشروب مرّ. طلب منّي أن أفتح فمي وأخرج لساني، حدّق في فمي بانتباه وطلب أن أتنفّس، ثمّ ألحّ عليّ مبتسمًا لكي أتنفّس بعمق.

قبل أن يخرج قال الرّجل الذي فحصني، موجّهًا الكلام إلى الرّجل الثّاني، الشّيخ بلحسن، وهو يحاول قدر الإمكان أن يخفض صوته لِكَيْلاَ أسمعه، لكنّي سمعت ما قاله:

-أعتقد أنّ فترة علاجه ستطول، الصّدمة عنيفة.. ويجب أوّلًا أن يعود إلى رشده. عظّم الله أجرك يا سي بلحسن، هذا الطّفل يحتاج إلى عناية كبيرة لكي يشفى.

ربّما اعتقدوا في تلك الأيّام أنّي فقدت عقلي، وأنا كنت أعتقد ذلك فعلًا، تشعرني الهمسات التي تسري في الغرفة بالكثير من المرارة، ولكنّ زينب كانت تواسيني بكلّ ما تملك من إحساس. لم تكن نظراتها مشفقة، بل نظرات أخرى، لم أستطع تفسيرها. كنت أحبّ أن تبقى بجواري، ولم أعد أرى غيرها، كأنّنا وحيدان في البيت.

قبل أن يهشّموا باب بيتنا كنت في حضن أمّي حافيَ القدمين، وكانت تبكي، لا أدري لماذا؟ وبين الفينة والأخرى تمسح دموعها وتحاول أن تضحك في وجهي. وكان أبي قلقًا هو أيضًا، لا يضحك مثل عادته الصباحيّة. ظلّ جيسي يتفقّد الباب بعد أن أحكم إغلاقه ويسأل أمّي هل أغلقت النّوافذ، هذا كلّ ما سمعته من أبي، آخر مرّة. جيسي في العادة، يخرج للعمل صباحًا، لكنّه في ذلك اليوم لم يخرج، ولم يجلس معنا، بل ظلّ يدخّن بقلق ونظراته لا تراني. لم أفهم في ذاك الصّباح ما كان يجري في الخارج، وكلّ ما أتذكّره أنّي لم أسمع أصوات الباعة ولا صوت المنادي وهو يتعالى في السّوق، ولم تسمح لي أمّي بالخروج، قالت لي وهي تضمّني مرتعشة: «ستخرج، ستخرج غدا يا أوري وستلعب مع إليف وشيرا». ولم أكن أفهم شيئًا، فاقتنعت بحركة من رأسي، وأحسست بالفعل أنّ شيئا ما سيحدث. ثمّة صمتٌ غير طبيعيّ في حيّنا، وبعد دقائق سمعت ضجيجًا حادًّا في كامل أرجاء الحيّ، وكان الصّخب يكبر ويكبر ويتناهى إليّ صدى صرخات واستغاثات.

عندما كبرتُ عرفت كلّ ما جرى في ذلك اليوم الحزين، بعد أن قتلوا أبي وأمّي أشعلوا النّار في بيتنا، وأنقذني الجيران من ألسنة اللّهب

بمعجزة، أخرجوني بمشقّة، لعلّهم يئسوا من نجاتي، واعتقدوا أنّي متّ. غطّوني بلحافٍ أبيض وتركوني تحت أحد الجدران وانشغلوا بإطفاء الحرائق في بيتنا وفي بيوت الحيّ. وعندما استفقت -وكم أحببت أن أموت يومها- هرّبني الشّيخ بلحسن إلى منزله في نهج الباشا، لم يشأ أن يتركني في حيّ الحارة مخافة أن يعود الألمان لقتلي، إذ اعتقدوا أنّي متُّ، وشاء قدري أن أنجو من المحرقة.

عاش حيّ الحارة أيّامًا عصيبة لمدّة ستّة أشهر، كانت الحرب دمويّة بين الحلفاء والألمان، بل كانت حرب شوارع يوميّة. المؤلم أنّ الألمان كانوا ينكّلون باليهود، لم يأتوا إلى تونس لقتال قوات التّحالف فحسب، بل جاؤوا لاضطهاد كلّ يهوديّ في حيّ الحارة، وفي كامل جهات البلاد كما سمعنا. الشّرطة السريّة الألمانيّة عاثت فسادًا في الحيّ، مطاردات وقتل واغتصاب واختطاف رهائن ومصادرات وتعذيب وترحيل نحو المعسكرات. أنشؤوا عشرين معسكرًا خاصًّا بالشّباب اليهود. كان الألمان قلقين من الحرب ويائسين، فلم يجدوا متعةً غير الانتقام من اليهود، يروّعونهم ثمّ يقتلونهم وقد يحرقونهم أحياء. ولو لم يهزم الحلفاء الألمان في شهر ماي سنة 1943 لأمكن للجنود الألمان تصفية كلّ يهود تونس، كلّ اليهود بلا استثناء.

عشت خمس سنوات في منزل سي بلحسن، الرّجل الكريم الذي آواني وعطف عليّ. في أيّامي الأولى كنت منكمشًا، خائفًا من كلّ شيء. لا أغادر غرفتي الصّغيرة وكنت أفضّل البقاء وحيدًا في الظّلام. أذكر، وقد قاربت على الشّفاء، أنّ سي بلحسن دخل إلى غرفتي مبتسمًا، وضع بجانبي كيسًا من الحلوى ثمّ قال لي:

- منذ اليوم سيكون اسمك جوهر، هذا أحسن يا ابني.

لا أحد عرف اسمي الحقيقيّ في منزل سي بلحسن، وأوري أصبح من ذكرياتي القديمة. زينب هي أوّل من نطقت باسمي الجديد، جوهر. كانت تدعوني إلى الخروج إلى صحن الدار، وفي مرّات كثيرة تلحّ عليّ كي أرافقها لاقتناء بعض الحاجيات. كنت أخفض رأسي وأمتنع في حالةٍ من الارتباك، لم أحبّ أيّامها أن أغضبها، لكنّي كنتُ حقًّا في حالة ذعر ولا أحبّ الخروج من المنزل، كنت خائفًا بالفعل كأنّ الألمان يتربّصون بي. عليّ ابن الشّيخ بلحسن كان أصغر من زينب، لاحظت منذ الأيّام الأولى أنّه لا يستسيغ وجودي في منزلهم، بل هو لا يحتمل النّظر في وجهي. للّا منيرة زوجة سي بلحسن يداها رقيقتان مثل يدي أمّي، لم أشعر يومًا أنّها متضايقة من وجودي، تجتهد ما أمكن لتسعدني، تمامًا كما تُسعد ابنها. وكان عليّ- وقد أحسست بذلك- في غاية الغضب والانفعال، بل كان يصرخ في وجه للّا منيرة عندما تقتني لي ثيابًا جديدة من سوق القرانة. كلّ ذلك لم يمنع مرافقتي له إلى «كُتّاب» جامع الزّيتونة لحفظ القرآن وتعلّم القراءة والكتابة. الشّيخ بلحسن كان حريصًا على أن نتعلّم هناك، ففي كلّ صباح يشتري لنا فطيرتيْن ساخنتين ثمّ نسير خلفه باتّجاه جامع الزّيتونة. انتبه المؤدّب أيّامها إلى أنّي سريع الحفظ لما يتلوه علينا من آيات، كنت أفهم أيضًا ما يُلقى أمامنا من دروس، بل كنت أطرح أسئلة يتعجّب منها شيخنا، أذكر أنّي سألته ذات مرّة عن الله: «أين يوجد الله، سيدنا الشّيخ؟»، فكشّر في وجهي وصرخ: «لا تسأل مثل هذه الأسئلة، هل أنت مجنون؟» وقد يكون نقل ذلك

إلى سي بلحسن، وسي بلحسن لم يُعِر تلك الشّكوى اهتمامًا، أهملها لعلمه بحقيقتي. حدست أنّ المؤدّب لو علم أنّي يهوديّ فإنّه سيطردني شرّ طردة من «الكُتّاب».

عليّ كان مختلفًا تمامًا عنّي، لا ينتبه إلى الشّيخ ولا يحفظ ما يسمعه، وكثيرا ما يغضب منه مؤدّبنا فيرفع ساقيه عاليًا ويضربهما بعصًا غليظة. فزاد «الكُتّاب» في سوء معاملة عليّ لي، كان يحتقرني ويتحيّن فرص الوشايات الكاذبة. وذات مساء، أذكر ذلك جيّدًا، كنّا نلعب بالكرة في النّهْج، وكم كنّا نراه ملعبًا واسعًا رغم ضيقه اليوم. وعندما تمرّ امرأة نوقف اللّعب، كنّا نعرف أنّ النّساء اللّاتي يرتدين السّفساري يسكنّ نهج الباشا أو الأنهج القريبة، أمّا النّساء أو الفتيات اللّاتي يرتدين لباسًا أروبيّا -هكذا تقول للّا منيرة- فهُنّ من الأغراب. كنّا نبحلق في وجوههنّ طويلًا باندهاش وبملامح طفوليّة. وفجأةً، ودون أيّ سبب ودون أن أسيء معاملته، صرخ عليّ في وجهي:

-يا يهودي.

وظلّ الأطفال إثر ذاك يهتفون باتّجاهي: يا يهودي.. يا يهودي. أحسست باختناق وكدت أنهار، وقفت متخشّبًا والدّموع تترقرق في عينيّ. تذكّرتُ أمّي في تلك اللّحظات العاصفة. كانت أجمل نساء حيّ الحارة، وكانت امرأةً صلبة، شامخة كما يقول أبي. لا أدري كيف اتّخذت ذلك القرار المجنون، جريت في النّهج بكلّ طاقتي، كنت أركض ولا أرى أحدًا. التحقَتْ بي زينب في رأس نهج الباشا، كانت

مثلي لاهثة ودامعة، تطلّعت إلى وجهي متوسّلة أن أعود، لم تتكلّم، لم أتكلّم أنا أيضًا، عيناها قالتا لي كلّ شيء. أبقيت يدي في يدها طويلًا حتّى صرنا وحيدين في هذا العالم، وأحسست بخدرٍ ساحرٍ في كفّي. وفي الأخير، لا أدري كيف فعلتُ ذلك، هربتُ من زينب ومن نهج الباشا وعرفتُ يومها حمّى الحبّ الأوّل.

إثر هروبي من نهج الباشا في أيّام النّار تلك لم أعرف إلى أين أتّجه، كنت منهارًا، وفكّرت في أن أبحث عن بيت عمّي أدريان. شعرت بانقباض وأنا أتذكّر بيتنا وأتذكّر كلّ شيء، لاحقتني الصّور مُوحشةً وممزّقة، وبتّ ليلتها جائعًا ومرتعشا في إحدى زوايا سوق القرانة. كانت القطط تقفز بجواري ثمّ تنطّ صوْبَ وعاء القمامة، وكنتُ أهذي وأنتظر مجيء الصّباح.

بعد عثوري على حيّنا القديم، اكتشفتُ أنّهم قتلوا عمّي أدريان بدمٍ بارد كما قتلوا الكثير من جيراننا، ولكنّهم لم يُحرقوا بيت عمّي مثل بيتنا، وانتبهتُ أيضًا إلى أنّ بيتنا الذي احترق اختفى تمامًا، وبني على أنقاضه مستودع وضعت فيه الأقمشة. أحد التّجار في سوق القرانة استولى على بيتنا مثلما استولى تجّار آخرون على بيوت من قتلوا أو من رحلوا، هكذا قال لي إليف ابن عمّي.

كنت في سنّ الثالثة عشرة عندما عدت إلى حيّ الحارة، والحقّ أنّ الأمّ أمايا استقبلتني ببهجة وخصّصت لي فراشًا مريحًا في غرفة منفردة. إليف أيضًا كان سعيدًا بعودتي إلى الحيّ، يُربّت على كتفي ويعيد السّؤال نفسه: «أين كنت يا أوري؟ لقد غبتَ عنّا طويلًا،

ويئسنا من العثور عليك». شيرا أيضًا راحت تتفرّسني بدهشة وهي تراني، ربّما كنت في عداد الأموات، وكان من الغريب بالنّسبة إليها أن أعود بعد خمس سنوات. بعد ثلاثة أيّام من عودتي- أذكر ذلك جيّدًا- دخلت الأمّ أمايا إلى غرفتي وسلّمتني صندوقًا صغيرًا. كانت تحاول إخفاء دموعها وهي تسلّمني الصّندوق الذي شممتُ فيه رائحة أمّي، فتحتُه بلهفة وأوّل ما وجدت صورة أمّي، قبّلتها وأنا أبكي بحرقة، أبكي وأنتفض. لم أعثر على صورة أبي، عثرت على وثائق تخصّني، وعرفت في ذاك اليوم أنّ الصّندوق الصّغير هو كنزي الذي سينير أيّامي القادمة.

كانت تلك الفترة حاسمةً في حياتي، كنت في حالة قلق وحيرة، وفي كلّ يوم أطالب نفسي بأن أحسم أمر هويّتي، لم يكن بإمكاني أن أدرس في المدرسة الإسرائيليّة ثمّ ليسي كارنو كما هو الشّأن بالنّسبة إلى إليف وشيرا. بل كان عليّ أن أعوّل على إرادتي في حبّ التعلّم. ولم أجد بابًا مفتوحًا أمامي غير جامع الزيتونة، فكنت أتردّد عليه لحفظ المتون وتعلّم قواعد اللغة. وعندما اشتدّ عودي وزاد نهمي للإحاطة بها، حرصت على قراءة القرآن والأحاديث النبويّة مثل حرصي على قراءة التّوراة والتعمّق في أسفار موسى الخمسة وكأنّ قدري أن أعيش هويّة مزدوجة وذاكرة مزدوجة واسمًا مزدوجًا. لا أنسى أوّل يوم ولجتُ فيه الكنيس، كنيس أور تورا بالحفصيّة، رفقة إليف. أحسست بما أحسّ به وأنا أدخل جامع الزّيتونة، بالفعل، كان إحساسًا مفعمًا بالطّمأنينة والرّاحة، وبعد ذلك عرفت الكنيس اليهوديّ بشارع الحريّة. في تلك الفترة خامرتني أسئلة كثيرة متعلّقة

بالاختلاف بين الإسلام واليهوديّة. كنت نهما في القراءة والبحث واقتنعت بأنّ النّقاط التي تجمع اليهود بالمسلمين أكثر من النّقاط التي تفرّقهم، أو يمكن أن تفرّقهم.

ما ثبت عندي في تلك الرّحلة الحائرة أنّ هويّتي تونسيّة، واستطعت أن أحسم الأمر وأحافظ على ديانتي اليهوديّة التي ولدت عليها، وهي ديانة أمّي وأبي ولا يمكن أن أعتنق غيرها. ما وجدته في الصّندوق وجّهني الوجهة الصّحيحة، الوجهة التي تحافظ على وفائي لأبي وأمّي. والحقّ أنّي لم أشأ أن أجاهر بذلك، لم أكن خائفًا ولا متردّدًا مطلقًا، كنت أفعل ذلك لأحترم جيراننا المسلمين.

زينب لم تنسني، ولم تيأس من عودتي، ويبدو أنّها أرسلت خادمتهم المالطيّة أغاثا للبحث عنّي، فليس من الصدفة أن تقف أغاثا أمامي ذات صباح وتسلّمني رسالة قصيرة من زينب. رأيت أغاثا مرّة واحدة في منزل سي بلحسن، ولم أنس ملامحها، لم تنظر في وجهي، سلّمتني الرّسالة ثمّ أدارت لي ظهرها وغابت في السّوق. ركضت في تلك الأثناء وتسلّلت إلى غرفتي لأقرأ كلمات زينب الأولى:

«ربّما تقول إنّي جريئة، أو ربّما تندهش من رسالتي يا جوهر، لكن، قل لي، لماذا لا تفكّر في العودة إلى منزلنا؟ إنّه منزلك وأنت تعرف. ما حدث كان حماقة من عليّ، وقد عوقب كأشدّ ما يكون العقاب من قبل والدي، أمّي أيضًا حزينة.. حزينة لأنّك لست معنا.. وماذا أقول لك أيضًا لتفهم؟...».

أعترف بأنّ تلك الرّسالة رجّتني، تعرّقَتْ يدي وأنا أمسك بها، كان هناك صوت في باطني يدفعني إلى العودة، لكنّه صوت خاضع

ومتردّد، صندوق أمّي كان يمنعني، ولا أعرف بالتّحديد كيف كان يمنعني ولماذا؟ وظلّت أغاثا تأتيني برسائل زينب، كلّ شهر ثمّ كلّ ثلاثة أشهر، ثمّ توقّفت رسائل زينب. كانت تكتب لي بألم وحيرة وغربة أيضًا. وكان قلبها مثل قلبي، يتقلّب في عاصفة الحبّ الأوّل، عاصفة لا تهدأ ولا تكلّ، كنّا ننبض عشقًا، لكن، في نهاية المطاف كنّا نعرف أنّه حبّ ممنوع. فكّرت في الأمر، أيقنت أنّي بهذا الحبّ سأكون سببًا في دموع إضافيّة لزينب، ولا أحد سيسمح لنا لاحقًا بالحبّ، ولا بالزّواج. أدركت أنّ الأمر حماقة كبرى، لذلك بقيت صامتًا، مهزومًا، وبسبب ذلك كلّه خذلت زينب. وعندما توقّفت رسائلها أيقنت أنّها تزوّجت، هكذا كان إحساسي، وكان إحساسًا مؤلما.

تواردت الأيّام حتّى حلّت سنة 1967، وفي تلك السنة السوداء عاش حيّنا أحداثًا مروّعة، فاقتحم ذاكرتي مجدّدًا مشهدُ قتل أبي وأمّي أمام عينيّ، وانتظرت رعبًا مجهولًا سيحلّ بنا. في ما مضى، كرهت النّازيّة، ليس لأنّها قتلت أمّي وأبي وأحرقت بيتنا فحسب، بل لأنّها- وهذا جرمها الأكبر- سمّمت العالم. غزت ألمانيا أوّلاً ثمّ مدّت أياديها القذرة إلى العالم. وبعد ذلك كرهت الحقد العنصريّ وتلك الدّسائس التي كانت تحاك ضدّنا لطردنا من حيّنا. الأمر لا يتعلّق بالإسلام والمسلمين، فقد كان جيراننا طيّبين معنا، بل يتعلّق بعصابات منظّمة، ففي كلّ مرّةٍ يهاجمنا ملثّمون مجهولون ويروّعوننا ويدفعون أغلبنا للهروب. لا أنسى ما حدث لشيرا في ليلتها القاسية، فقد نجت بأعجوبة من قبضة ذاك الرّجل الملثّم الذي حاول اغتصابها. كنّا في البيت، أنا وإليف، عندما دوّت صرخة شيرا، لم

نفهم ما حدث، حبسنا أنفاسنا وجرينا إلى غرفتها كما جرى آخرون وأنقذناها من قبضة ذاك الرّجل الذي كان يحمل ندبةً في أعلى وجهه، كانت ملامحه فظّة ومخيفة، وفي الأخير هرب كفأر ملدوغ. وظلّت شيرا طوال اللّيل تبكي بقلبٍ واجف، ليلتها عرفنا أنّ حياتنا -هكذا كُتب لنا- أصبحت جحيمًا لا يُطاق.

لا يمكن أن أنسى صور ذاك اليوم الحزين، يوم رحلت الكثير من عائلات حيّنا إلى مارسيليا وباريس، لا أحد منهم كان يعرف الوجهة لكنّهم خيّروا الرّحيل. الأمّ أمايا طلبت منّي السّفر معهم غير أنّي امتنعت، دمعت عيناي وقلت لها: «آسف يا أمايا، آسف حقًّا، لا أحبّ الابتعاد عن رائحة أمّي وأبي، لا أستطيع فعل ذلك، أنا لا أحتمل يا أمايا». يومها، رفعت عينيّ في وجهها لأوّل مرّة وقبّلتها من جبينها وأنا أنشج. إليف وشيرا أيضًا يئسا من إقناعي بالسّفر معهما، ولا أدري لماذا كنت متشبّثا بالبقاء، كنت، في الحقيقة، متوجّسًا ممّا هو أسوأ في أيّامي القادمة، ولكنّي بقيت وحيدًا في بيت عمّي أدريان.

في الظّهر وككلّ يوم أقود عربتي نحو الجهة الخلفيّة للكنيس وأُودعها في حجرةٍ صغيرة بالسّقيفة. ثمّ أمضي إلى باب سويقة، وقبل أن أصل إلى شقّتي في نهج الذّهب، لا بدّ أن أطرق باب جارتي خافا لأسأل عنها، لا أحد يعرف اسمها الحقيقيّ غيري، الجيران يسمّونها دليلة، وأحيانا لا تنتبه حينما ينادونها بهذا الاسم. خافا هربت من القيروان سنة 1967 رفقة عائلتها، واستقرّوا في حيّ الحارة. عائلة تاهرتي، المشهورة بالتّجارة، صادروا أموالهم ثمّ طردوهم كما فعلوا مع المئات من العائلات. خافا وحيدةُ عائلتِها ولم تتزوّج مثلي، وتلك

قصّة أخرى. تفتح خافا باب شقّتها مبتسمة، ما تزال هذه المرأة جميلةً محافظةً على نعومة بشرتها البيضاء رغم محنها وثقل السّنوات. تطلب منّي أن أشاركها الغداء وفي العادة أعتذر، فما كان يهمّني هو أن أطمئنّ على صحّتها ثمّ أغلق باب شقّتي لأتناول غدائي الذي أقتنيه من باب سويقة وأتمدّد على سريري. هكذا أحبّ بعد الظّهر، أن أنفرد بنفسي لأشتمّ روائح الماضي، تلك الرّوئح لا ترحل أبدًا، ولا تتجمّد في ذاكرتي، تشحنني بانفعالات متداخلة، إنّه الحزن والحنين، حقًّا لقد مضى زمن الحبّ ولن يعود.

في المساء لا أغادر شقّتي إلّا عندما يخاطبني صديقي إيف لأداة الصّلاة في الكنيس، ما عدا ذلك، أفتح الشّرفة وأجلس ساعةً أو أكثر لتأمّل المباني الممتدّة، المباني العتيقة المتصدّعة، تحاصرها أخرى حديثة بلا ذوق في الغالب، وفي الجهة الأخرى تعلو الصّوامع وقباب سيدي محرز. الحركة في الحيّ تكون على أشدّها، تُفتح النّوافذ والشّرفات، يتفاقم الضّجيج، صرخات أطفال يلعبون الكرة، صيحات الباعة، ضجيج درّاجات ناريّة، حلقات نسائيّة لا تتوقّف عن الثّرثرة، جارتنا الداوديّة تظلّ تصرخ، بسبب أو دون سبب. شجارها مع الجارات عادتها اليوميّة، لا تفتح شرفتها إلا لتشتم، وشتائمها مضحكة في الغالب، لذلك تمعن جاراتها في إثارتها واستفزازها. والدّاوديّة لا تصمت، تكيل لهنّ الصّاع صاعين وتفضح الكثير من أسرارهنّ، وعادةً ما يتعلّق ذلك بترهّل أجسادهنّ وارتخاء نهودهنّ. كثيرًا ما يتجمّع الأطفال في الأسفل، ويظلّون فاغري الأفواه، يتابعون مسلسلاً غريبًا وجريئًا لا تتوقّف حلقاته.

يمتدّ بصري إلى نهج الباشا، أتذكّر أروقته وأقواسه وأبوابه الشّاهقة وجدرانه المزخرفة. لا شكّ في أنّ زينب تجلس الآن على كنبةٍ في سقيفة بيتهم، كدأبها كلّ مساء، تترشّف قهوتها «العربي» التي تحبّ، وأحيانًا ترفع رأسها لترى مَنْ يمرّ مِنَ النّهج. بعد أن تُوفّي زوجها الهادي، تاجر القماش وسافر ابنها سعيد إلى باريس بقيت وحيدة. خادمتها عائشة تظلّ متكوّمةً في ركنٍ بعيدٍ عنها، زينب لا تحبّ الثّرثرة، إنّما تحبّ فقط أن تترشّف قهوتها على مهل وفي صمت.

بعد سنوات طويلة، اتّخذتُ قراري الذي انتظرته طويلًا وسرت متسارع الخطى متّجها إلى منزل سي بلحسن. رحل سي بلحسن بعد سنوات من هروبي، أمّا عليّ فقد هاجر إلى إيطاليا وانقطعت أخباره. جلست بجوار زينب في السّقيفة، يومها كان الطقس ماطرًا، لكنّه دافئ. عندما تلاقت عيوننا، لا أدري كيف أفسّر ذلك، أحسسنا معًا بكثير من الدّفء. التقطتُ وميض الدّهشة والسّعادة في عينيها، تلك السّعادة التي حُرمنا منها. بدت لي زينب شاحبةً وحزينة، ولمّا انتصبتُ أمامها شهقَتْ بكثير من الاندهاش، وربّما بكينا معًا، وربّما ضحكنا، وربّما ارتبكنا، كنت أحمل رائحتها في باطني، وكنت واثقًا فعلًا من أنّنا سنلتقي ذات يوم. في تلك اللّحظات، تمنّينا معًا أن نُفرغ ذاكرتينا ونقفز بخفّةٍ بين الأزقّة التي تتعرّج وتتداخل ونركض بين الأعمدة مثلما فعلنا في ذلك اليوم البعيد المعلّق في سماء لاهبة. نركض، كفّي في كفّها، متعرّقين، تتعاقب علينا الألوان والأضواء. قالت لي عيناها: «زينب انتظَرَتْكَ يا جوهر، انتظَرَتْكَ أكثر ممّا ينبغي». بقيت زينب في نظري كما هي، بشعرها الطّويل وعينيها الخضراوين،

ولم يتغيّر شيء فيها سوى تلك التّجاعيد التي تفاديت أن أراها. هل استعدنا يومها أحاسيس الحبّ المحموم الذي عشناه أيّام شبابنا؟ ماذا حدث لنا بالضّبط، ماذا حدث ونحن نعترف، ونحن ننتفض، ونحن نبكي؟ وبّختُ نفسي وزينب تبكي على كتفي، وارتعشت يدي وهي تلامس يدها، تلامسها بلهفة وشوق. انتظَرَتْ طويلًا ذلك اليوم لتُشفى منّى، وربّما شُفيت، ولم أشف أنا. تساءلتُ أمام دموعها: «لماذا هربتُ؟ وكيف تجرّأتُ على فعل ذلك؟ لماذا.. لماذا كسرتُ قلبًا طاهرًا ونبيلًا أحبّني؟»

أفتح درجًا صغيرًا في مكتبي وأُخرج رسائل زينب، يتوقّف في أذني ضجيج الخارج، أجلس على الكنبة وأعيد بشكلٍ مختلفٍ قراءة الكلمات التي غزاها الألم. دموع زينب -هكذا أحسست- لا تزال ساخنة في الأوراق الصّفراء، لا تزال تنوء بعاطفة جيّاشة، بل هي متمرّدة على كلّ شيء، لم تكن رسائل حبّ فحسب، كانت رسائل انكسار وخيبة وخوف لكلينا. فكّرَتْ زينب في جميع الاحتمالات بشجاعةٍ وجنون، إمّا أن أعتنق أنا الإسلام، وإمّا أن نسافر وإمّا أن نكافح من أجل أن نقنع عائلتها بزواجنا. سي بلحسن، كان في الأخير سيقتنع. لم أتحمّس في أيّام الرّعب الباردة لأيّ احتمال وخذلت زينب، خذلتها وما أشقى إحساسي بذاك الخذلان!

في تلك الأيّام الخاوية أحبّتني خافا واعتبرتني هبةً من السّماء، كانت مُتاحة أمامي، بلا قيود ولا موانع، طلبتني للزّواج أيضًا بجرأةِ امرأةٍ عاشقة، امتنعت، كنتُ ممتلئًا بزينب، وكنت مريضًا بها. خافا، العزيزة كانت تدرك ذلك وعرفت في الأخير أنّي لا أستطيع أن أتحرّر

من زنزانة الحبّ، لا أستطيع فعلًا أن أكذب وأحوّل الكذبة إلى حقيقة. وبقينا، أنا وخافا مغمومين ومنكسرين، ولا أحد منّا استطاع أن يُنقذ الآخر.

ذات مساء، منذ سنتين تقريبًا، كنت في شقّتي، في حضرة رسائل زينب، عندما استمعت إلى طَرْقاتٍ على الباب، ظننتُها خافا، ففي العادة لا أحد يزورني أو يسأل عنّي غيرها. قد تُحضر لي صحن كسكس ساخنًا، أو تدعوني لمشاركتها كأس نبيذ. وعندما فتحتُ الباب فاجأتني ملامح امرأة ثلاثينيّة، زرقاء العينين ومشرقة الوجه، تلك هي الملامح الأولى التي انتبهت إليها. ألقت المرأة التحيّة ثمّ قالت:

–أعتذر سيّد جوهر عن إزعاجك.. أنا هيلين ابنة إليف وشيرا.

سلّمتني هديّة ثمّ تابعت ضاحكة:

–لا أحد هنا يعرف أوري، والحقّ، اهتديت إلى شقّتك بكثير من الحظّ.

لهيلين كثيرٌ من ملامح شيرا، في شعرها الأسود الطّويل وأنفها النّحيف. ورثت عن إليف عينيه الزرقاوين، ضحكتها أيضًا ذكّرتني بضحكة شيرا الطّفوليّة. بحضورها المباغت فتحت لي هيلين بابا مضيئًا، كنت أحبّ أن يُفتح منذ سنوات. حزنت لموت العزيز إليف، وصلّيت لروحه، فهو لم يكن ابن عمّي فقط، بل كان صديقي الذي خفّف عنّي حزن تلك الأيّام. كان يشاركني كلّ أشيائه الثّمينة، «لا تنكمش يا أوري بهذا الشّكل، كلّ ما في غرفتي متاح لك»، هكذا كان يقول لي ضاحكًا.

هتفتُ نحو هيلين وأنا أشاركها شرب كأس نبيذ أحمر:

-على صحّتك أيّتها العزيزة.

شربت هيلين كأسها ثمّ قالت:

-لا أعتقد أنّ هذه الشقّة هي بيت العائلة القديم.

ندّت منّي زفرات طويلة:

-بالفعل يا هيلين، بعد سفر عائلاتنا إلى فرنسا صادروا الكثير من المنازل، الأغراب أيضًا افتكّوا بالقوّة منازل أخرى ومنها منزل العائلة. وبعد سنوات استطعت أن أقتني هذه الشقّة بمساعدة رجل طيّب لم يشأ أن أغادر هذا النّهج الممتدّ الذي سُمّي بنهج الذّهب.

نظرت إليّ بانتباه وقالت:

-أجل، أجل نهج الذّهب، مررتُ أيضًا بحمّام الذّهب في رأس النّهج. وكم أحبّ يا أوري، أو يا جوهر، لا أدري ماذا أسمّيك يا عزيزي.

-أوري.

قلتُ لها متحمّسًا.

-أحبّ يا أوري أن أعرف حقيقة حمّام الذّهب وأريد الحكاية الحقيقيّة لهذا الحمّام. إنّه يحمل تاريخنا يا أوري، تاريخنا الذي لا يحقّ لنا أن نهمله. الكتب التي اطّلعت عليها لم أعثر فيها على أشياء مهمّة، ولا أدري لماذا كتبوا التّاريخ بتلك السطحيّة

والتسرّع؟ والأصدقاء لم يضيفوا شيئًا إلى ما قرأت. أنا، إن سمحت، يا عزيزي أرغب في أن أشقيك معي في هذا البحث، وسيكون الأمر مُهمًّا لنا جميعًا.

لم تنقطع علاقتي بهيلين منذ ذلك اللّقاء، وتأكّدتُ أنّها كانت مُحقّةً في رحلة بحثها عن حقيقة حمّام الذّهب، فهو يقترن، بالنّسبة إلينا على الأقلّ، بتاريخنا العاصف الذي ظلّ مجهولًا، ولا أحد تجرّأ على النّبش في أغواره. هيلين قامت بخطوةٍ مهمّة لأتجاوز غربتي القاتلة، زيارتها رفعت كثيرًا من معنويّاتي وهذا أسعدني جدًّا. ما أحلى أن تشرق الشّمس في سماء ملبّدة بغيوم سوداء وغير ماطرة، الشّمس ألغت حقًّا كلّ ذلك السّواد، وما أحلى أن يستفيق عبق الماضي بكلّ صوره وروائحه وألوانه! ضممتها بين ذراعيّ وأنا أودّعها، وقبّلتني هي من جبيني، كانت قبلتها ساخنة، أتاحت لي أن أتذكّر للحظات قبلات أمّي ورائحتها. ومنذ ذلك اليوم، قرّرت أن أجنّد نفسي للبحث عن حمّام الذّهب. وللدقّة أقول، خيّرت أن أبحث بشكلٍ سرّيٍّ، أفعل ذلك حتّى لا يكون الأمر مثار شبهة.

سألت خافا أوّلًا، وربّما لم تنتظر سؤالي، أو هي لم تتهيّأ بالشكل الكافي للإجابة، فقالت لي بشيء من التردّد:

-أووه يا أوري، الحكايات كثيرة حول حمّام الذّهب، وأكثر الشّائعات تردّد أنّ الحمّام سُمّي ببلّاع الصّبايا لأنّه شهد اختفاء فتاة شابّة جميلة في ظروف غامضة وغريبة.. ويقال إنّ الأمر متعلّق بكنزٍ وبجان.. هذا كلّ ما أعرفه يا عزيزي.

أدركتُ ساعتها أنّ البحث عن الحقيقة لن يكون أمرًا سهلًا، وليس من اليسير حقًّا أن تتوفّر تفاصيل مهمّة، بالإضافة إلى ذلك، بدا لي أنّ حمّام الذّهب يلفّه الكثير من التّعقيد.

طرحتُ حكاية حمّام الذّهب بعد ذلك على زينب. الحقيقة أنّها اندهشت هي أيضًا وربّما تأمّلتني بنصفِ نظرة لتتأكّد بها لا يدع مجالًا للشكّ أنّي سألتها عن حمّام الذّهب، ولمّا تأكّدت أنّي جادّ في سؤالي المثير ضحكت وهي تقول:

-كلّ نساء نهج الباشا يعرفن حكايات حمّام الذّهب، هي حكايات كثيرة يردّدنها على مسامع الصّبايا حتّى يحافظن على شرفهنّ ولا ينزلقن في أيّ علاقة محرّمة.. وحتّى لا يفكّرن أيضًا في الذّهاب إلى حمّام الذّهب أو حتّى في المرور أمامه. والثّابت يا جوهر أنّ قصّة الحمّام مُزجت بالكثير من الخرافات، وسأروي لك إحدى القصص الشّائعة عند نساء نهج الباشا.

ترشّفت من فنجان القهوة ثمّ تابعت:

- «القصّة تعود إلى زمنٍ بعيد، لا أحد يعرف بالتّحديد متى حدث ذلك. فقد أُغرم شابّ وسيم بابنة عمّه الّتي كانت فائقة الجمال، بل هي درّة مكنونة لم تعرف المدينة لها نظيرًا. الشّابّ الوسيم، هادئ الطّباع، لم ينشغل عنها يومًا ولا غفل عن أدقّ تفاصيل حياتها، كانت تشغل تفكيره ليلَ نهار. وقد كانت ابنة عمّه تبادله الأحاسيس نفسها، فنشأ بينهما حبّ وهيام لم يعرفه النّاس في زمانهما. وأصبحت حياة الشّاب بيد الله ثمّ بيد عائلة الفتاة، فإن زوّجوه من ابنتهم كان لها نعم الزّوج والحبيب

وإن رفضوا ذلك كان مستعدًّا للموت. وقد عرف الشّاب، والحمد لله بدماثة أخلاقه ونبله وشهامته وكان أيضًا فارس أحلام فتيات المدينة. فلمّا تقدّمت عائلته لخطبة ابنة العمّ حظي طلبه بالقبول، ولحسن الحظّ لم تكن ثمّة عداوة بين العائلتين. وعائلة الفتاة كانت تعرف أنّ ابنتهم جميلة ومحطّ أنظار الرّجال ولا شيء يصون البنت الفاتنة غير الزّواج الصّالح، وابن عمّها رجل صالح.

وبعد أيّام تمّ الاتّفاق بين العائلتين على يوم العرس، فدُعي الأهل والأحباب وقُرعت الطّبول وحضر الفرسان وركب العريس صهوة جواده مرتديًا أفخر الملابس وقدّم استعراضًا سحر كلّ الحاضرين ثمّ قدّم لعائلة العروس هدايا كثيرة تتمثّل في أغطية وألبسة وحليّ من الذّهب الخالص بالإضافة إلى ناقتين وكيسَي حبوب. وأقيمت في الأثناء حفلات رقص وغناء في منزلَي العريس والعروس. وفي العادة، يحتفل الرّجال في الحوش أمّا النّساء فيُقمن احتفالاتهنّ في صحن الدّار أو داخل الغرف، فالعفّة كانت رمزًا أساسيًّا في ذلك الزّمان.

ولم يخطر ببال العروس أن يطلب منها حبيبُها وابنُ عمّها مثل ذلك الطّلب الغريب، فقد دعاها إلى أن ترتدي بذلته في طريق ذهابها إلى الحمّام حتّى لا يتحرّش بها الرّجال ولا تترصّدها أعين السّوء. اندهشت أوّل الأمر لطلب حبيبها ثمّ أدركت بعد تفكير أنّ حبّه الجارف لها هو ما يدفعه إلى صيانتها من كلّ سوء وحسد.

وبالفعل ارتدت الفتاةُ ملابس ابن عمّها وأحضرت عُدّة الحمّام من طاس وصابون ومناشف استحمام وملابس داخليّة وتوجّهت صوب الحمّام متنكّرة بحلّة صبيانيّة. وبعد دخولها صحبة مجموعة من الفتيات اتّجهت صوب المطهرة واختلت بنفسها وهي تسرّح شعرها الأسود الفاتن الطّويل الذي كان مثار حسد الفتيات. وبعد فترة من الزّمن، تعجّبت الفتيات من طول اختلاء العروس بنفسها داخل المطهرة، فطرقن الباب ولم يسمعن جوابًا. ويا للمفاجأة التي ألجمت الأفواه! لقد اختفت العروس من المطهرة، بحثت الفتيات عنها في جميع الحجرات وبحث عنها كلّ من كان في الحمّام ولا حياة لمن تنادي، كأنّها تبخّرت ولم يبق منها أيُّ أثر.

في جوّ من الصّراخ والعويل والثّرثرة والقيل والقال فزع العريس إلى الحمّام ولم يصدّق ما حدث، أخليت المطهرة وكلّ الحجرات من الفتيات ولم يبق غير العريس مصعوقًا ومشوّش الأنفاس. شرع يصرخ وينادي حبيبته بأعلى صوته، والأمر الغريب هو أنّ حبيبته أجابته في تلك اللّحظات دون أن يتمكّن من رؤيتها، قالت بصوت مبحوح إنّها مسجونة داخل الجدار والجنّ يحكم قبضته على شعرها. كانت تستغيث وتبكي وتئنّ والجدار يطبق عليها ويبتلعها. جرى حبيبها كالمجنون وراح يضرب بالفأس على الحائط السّميك، ظلّ يحفر ويحفر بكلّ ما أوتي من قوّة لكن دون جدوى، فحيطان الحمّام كانت أقوى من ضربات الفأس، وكلّما حفر كان صوت حبيبته يبتعد ويبتعد

إلى أن اختفى تمامًا. وفي تلك الآونة المروّعة أيقن العريس أنّه فقد حبيبته إلى الأبد، واختلطت الصّور أمامه وسط البخار المتصاعد. لبث لوقتٍ طويل مصعوقًا، مبلّل الشّعر والثّياب، يمسك بالجدار ويهذي بكلمات مبهمة إلى أن سقط . وبعد أيّام تحدّث النّاس في المدينة عن ذلك العريس الذي فقد عقله بسبب حماقته وغيرته الكبيرة، تلك الغيرة التي تسبّبت في ابتلاع الحمّام لحبيبته.»[1]

أنهت زينب سرد القصّة وأنا مندهش ممّا جرى من أحداث، غير مصدّق لما آل إليه مصير العروس. حرّكت زينب يدها أمام عينيّ ضاحكة ومازحة لتخرجني من حالتي السّاهمة، ضحكت أنا أيضًا ثمّ سألتها:

-لكن، يا زينب، كيف فسّر النّاس ما وقع؟ وماذا حدث بعد ذلك؟

-ما سمعته من أمّي، وقد سمعته بطبيعة الحال من الجدّات، هو أنّ الجنّ الذي كان يسكن الحمّام خطف الفتاة لسببين لا ثالث لهما، فإمّا أن يكون ذلك بسبب شدّة جمالها وشعرها الطّويل وإمّا لتنكّرها بملابس رجل. والغريب أنّ الجدار الذي ابتلع الفتاة خرج منه شعر أسود بعد أيّام من الحادثة، خرج بشكل كثيف وسريع، وكان ذلك مثار رعب لصاحب الحمّام. وفي كلّ ليلة كان يقصّ الشّعر المتدفّق بغزارة ويوقد به

(1) حكاية شعبيّة حول حمام الذّهب متداولة في نهج الباشا.

النّار في فرن الحمّام. استمرّ بذلك الجهد لفترة من الزّمن حتّى اختفت تلك الظّاهرة الغريبة، وربّما توقّف تدفّق الشّعر، كما روت الحكايات، بعد موت الفتاة داخل ذاك الجدار السّميك. والأهمّ من ذلك أنّ النّساء امتنعنَ منذ تلك الحادثة عن الذّهاب إلى الحمّام بسبب خوفهنّ من الجنّ.

قلت لزينب محاولًا تفسير الحكاية:

-يمكن أن يكون ما وقع صحيحًا فعلًا، لكن، ثمّة احتمالات أخرى تظلّ مطروحة. اختفاء الفتاة، هذا أمر محسوم فيه، وقد تكون تعرّضت للخطف أو القتل بسبب جمالها وفتنتها، وعلى الأرجح بسبب شعرها الأسود السّاحر، كما سمعت في القصّة.. ولعلّها أيضًا هربت بإرادتها. من يدري!

لم تتوقّف رحلة البحث عن حمّام الذّهب بعد ذلك، ولم أكن أعرف ما إذا كنتُ سأصل إلى نتائج يمكن أن تسعد هيلين. وبعد حكاية زينب لم أعثر على حكاية مهمّة يمكن أن تفيدني، لهذا فكّرت في تغيير مسار البحث نحو كتب التّاريخ.

تردّدت أيّامًا كثيرة على سوق الدبّاغين وقلّبت الكتب القديمة باحثًا عن عنوان يمكن أن يفيدني، ويتحدّث عن حمّام الذّهب أو حمّام الرّميمي. عثرت على مخطوط بعنوان: حمّامات مدينة تونس، تصفّحته ولم أعثر فيه على ما يمكن أن يفيدني، اقتصر البحث على التّخطيط البنائيّ للحمّام ووظائف مؤسّسة الحمّام ودراسة المكوّنات المعماريّة لبعض حمّامات مدينة تونس وغيرها من الأبواب الفرعيّة. اقتنيت في

الأثناء كتاب تاريخ معالم التّوحيد في القديم وفي الجديد، قالت هيلين إنّها تحتاج إليه للاطّلاع على تاريخ جامع محمّد باي المرادي، أو جامع سيدي محرز كما يسمّى الآن.

تطلّب الأمر جهدًا كبيرًا في تقليب الكتب وتصفّحها، وفي إحدى المرّات وأنا مستغرق في البحث بين أكداس الكتب، انتبه إليّ الشّيخ الذي كان يعرض كتبه القديمة أمام دكّانه الصّغير المزدحم بالكتب والمجلّات والأوراق الصّفراء، تفحّصني من وراء نظارته الطبيّة ثمّ خاطبني مستفسرًا:

- أظنّ أنّك تبحث عن كتابٍ معيّن، يمكن طبعًا أن أساعدك.

قلت له دون أن أنظر إليه:

- أجل، أنا أبحث عن كتابٍ يتعلّق بحمّام الذّهب، أنت تعرف ذلك الحمّام بلا شكّ.

صمت الشّيخ برهة وهو يفرك ذقنه ويفكّر ثمّ قال:

- كأنّي مررت ذات يوم بأوراق تتحدّث عن الحمّام، حمّام الذّهب أعني. وإن شئت عد إليّ بعد ثلاثة أيّام، أظنّ أنّ هذه المدّة مناسبة لأجد تلك الأوراق.

عدت بعد ثلاثة أيّام إلى ذاك الدّكان الضّيق والمزدحم في سوق الدبّاغين، وطالعني الشّيخ بابتسامة عرفت من خلالها أنّه لم ينسني، وبطبيعة الحال لم ينس تلك الأوراق التي أشار إليها.

قال الشّيخ وهو يسلّمني حزمةً من الأوراق الصّفراء:

-لقد عثرت على هذه الأوراق مطويّة في أحد الكتب القديمة، وأحمد الله أنّي لم أرمها في حاوية القمامة. وأعتقد أنّ صاحبها لم يتفطّن إليها وهو يبيع كتبه القديمة.

أمسكت بالأوراق كأنّي أمسك بكنز، وطبعًا كان لا بدّ أن أدفع ثمنها الذي قُدّر بثلاثة دنانير. وقبل أن أسير تحت شمس حارقة باتّجاه شقّتي في نهج الذّهب دقّقتُ النّظر في الأوراق الصّفراء وقرأت في أعلى الصّفحة الأولى: «حمّام الذّهب.. بلّاع الصّبايا..». بحثت في الصّفحة الأخيرة عن اسم الكاتب، بحثت في كلّ الصّفحات، ولم أعثر على أيّ اسم أو إشارة يمكن أن تساعدني على معرفة صاحب الأوراق الصّفراء. فقلتُ في سرّي: ستظلّ هذه القصّة لكاتب مجهول فرّط في كنز. وهو بالتّأكيد كنزٌ حقيقيٌّ أضاعه في لحظة سهو.

(7)
حمّام الذّهب
3 ديسمبر 2010

وصلتُ إلى نهج الذّهب ظهرًا، كان الطّقس باردًا ولم يحمني المعطف من لفحاته، أحسست بأصابعي غارقة في الثّلج. وقفت أمام باب حمّام الذّهب ذي المصراعين، تؤطّر الباب عضادة يعلوها طاق نصف دائري، أمّا الألوان فهي فسيفساء من الأحمر والأصفر والأسود. أبواب الحمّامات، على وجه التّقريب متشابهة في أشكالها وألوانها، مع اختلاف طفيف، فقد يعوّض اللّون الأخضر باللّون الأزرق، وما عدا ذلك فإنّ هذا التّشابه يعطي انطباعًا بأنّ حمّامات مدينة تونس على الأقلّ تخضع لنموذج مشترك.

لمّا هممت بالولوج إلى السّقيفة الموصلة إلى المحرس انتبهت إلى صوت يخاطبني:

-إن كنت تبحث عن لوازم الاستحمام فهي عندي.

التفتُّ ورائي فطالعتني ملامح شيخ يضع غطاءً صوفيًّا على رأسه ويوسّع ابتسامته. بدا مرتعشًا وهو يجلس على كرسيّه ويتفادى لسعات البرد، البضائع تتكدّس أمامه بشكل فوضويّ، قرأت اللّافتة

البارزة في الأعلى: «بيع الحرقوس والحنّة العال العال عند الصّحبي».
طلبت منه علبة شامبو وقطعة صابون من النّوع الجيّد، تابع الصّحبي النّظر إليّ في وضعيّة ترقّب لما سأختاره أيضًا من بضائعه، وأغلبها بضائع نسائيّة، فابتسمتُ وقلت له بنبرةٍ لا تخلو من مزاح:

- بضائعك نسائيّة مع أنّك تعرف أنّ النساء لا يدخلن حمّام الذّهب.

ضحك الصّحبي بصوتٍ عالٍ وقال:

- أووه من حكايات هذا الحمّام التي لا تنتهي.. نحن نسمّيه حمّام الرّميمي، والتّسمية الغالبة هي حمّام الذّهب. النّاس كذبوا كذبة ثمّ صدّقوها وكلّ الحكايات شائعات يا ابني ولا أحد يصدّقها اليوم.
- على أيّ حال، النّساء يخفن من حمّام الذّهب.
- ليس صحيحًا ما تقول يا ابني، صاحب الحمّام اختار أن يكون زبائنه من الرّجال.. وتلك عادة بقيت سارية منذ سنوات.

ناولني الصّحبي الشّامبو والصّابون وانشغل بامرأةٍ كانت تسأله عن أنواع الحنّة، تلحّ عليه لكي يعطيها حنّة قابسيّة ممتازة، وتوصيه بألاّ يغشّها بحنّة تُتلف شعرها، «يا عمّ الصّحبي راني بنتك»، تقول له. وفي تلك اللّحظة لمحتُ جوهر وهو يسير بتثاقل. في الحقيقة، اندهشتُ عندما رأيته، لم يتفطّن إلى وجودي وإلّا لكان تسمّر أمامي بوجهه الجامد. خمّنت أنّه مثلي يبحث عن حكاية من حكايات حمّام الذّهب. إنّها هيلين، لا ريب، أعرف جنونها، لا تقتنع ببحثٍ

واحد، المسألة ليست مسألة ثقة بطبيعة الحال، «لا بدّ أن أنظر إلى الزّوايا الأربع لأعرف الحقيقة، كلّ الحقيقة»، تقول هيلين وهي تنجز بحوثها ثمّ تُخرج لي لسانها بحركة مشاكسة، ولطالما كانت تشاكسني لتحثّني على القراءة والبحث. هي لا ترى التّاريخ، في أغلب ما كتب، أمينًا ولا محايدًا، بل كان يخضع للابتزاز والأجندات التي تستغلّ كلّ شيء. تاريخ تونس، على سبيل الذّكر، لم يُكتب بشكل دقيق، وسكت عن الكثير من الوقائع الصّادمة، «المحرقة النّازيّة ضدّ اليهود مثلًا»، تقول هيلين، غير أنّها تستحضرها دومًا بكآبة وحقد، وفي مقابل ذلك تؤكّد أنّ المؤرّخين ضخّموا وقائع تافهة، نفخوا فيها واحتفلوا بأبطال وهميّين.

استغربت من تجاوز جوهر للحمّام وسيره في نهج الذّهب دون التفات، وساورتني رغبة في اقتفاء أثره. فسرتُ وراءه بكثير من الفضول حتّى تعمّقت في النّهج المسقّف. دخل جوهر من باب «وكالة» قديمة، سمعتُ وقع أقدامه على الدّرج، وبعد ذلك استمعت إلى طَرْقات على أحد الأبواب، سمعت جوهر يتحدّث مع صوت نسائيّ، كان حوارهما منخفضًا، لم يطل الحديث وسرعان ما أُغلق الباب ثمّ فُتح باب آخر وران الصّمت.

تأكّد لي أنّ جوهر يقيم في «الوكالة». مشيتُه المتثاقلة والهادئة رجّحت لي هذا الاحتمال، إضافة إلى ذلك، لم ألحظ في ملامح الوجوه التي مرّت به ما يدلّ على كونه غريبًا عن النّهج، وعلى العكس، ظلّت امرأة مهتاجة النّظرات تبحلق في وجهي وكأنّي قادمٌ من «الوقواق». بدت لي «الوكالة» مختلفة عن وكالتنا في صبّاط الدّزيري، لا تحفل

بذاك الصّخب المزعج. الشّقق في الواجهة الأماميّة محافظة على جدرانها المتينة، أغلب نوافذها مغلقة، وحتّى المفتوحة منها فإنّها غير مزدحمة بالغسيل والأغطية المتكدّسة بلا حسّ ولا احترام للذّوق العامّ. في نوافذ شققنا يمكن أن تعرض ملابس داخليّة نسائيّة بمنتهى الوقاحة، وهو ما يُشعر كلّ من يمرّ بحالةِ خجل أو يُوقظ دُودته النائمة بين فخذيه، فيشتم أو يرسل صفيرًا مشاكسًا. هاجر لا تتوب عن ثرثرتها وهي تحدّثني عن صدريّات نساء «الوكالة»، تقول لي بنبرتها الشّبقة: «الصّدريّات هنا على كلّ لون وحجم.. ونحن ننتقيها بعنايةٍ وراحة بال من سوق الحفصيّة. حمّالة النّهدين هي مكمن الدّاء، هي الفتنة والمتعة يا سعد، والمرأة في ذروة الاهتياج تحبّ ذلك القرص المثير. لذلك، وأنت لا تفهم النّساء يا سعد، حين تضع المرأة حمّالة نهديها في النّافذة تعلن بمنتهى الجرأة أنّها تحتاج إلى من يقرصها».

وقفَتْ أمامي امرأة مُسنّة، بدت لي مرهقة وهي تحمل قفّة ممتلئة بالخضر، أعادت ترتيب السّفساري الذي سقط عن كتفها ثمّ تطلّعت إلى وجهي:

- هل تنتظر أحدًا هنا؟

قلت كاذبًا وقد أحسست بكثير من الحرج:

- أبحث عن شقّة للكراء في هذه الوكالة.

ردّت المرأة دون تفكير:

- لا أظنّ يا ابني أنّك ستجد ضالّتك هنا، كلّ الشّقق على ملك

اليهود، اليهود القدامى أقصد، وهم لا يفرّطون في شققهم لأحد.. يمكن أن تسأل عن شقّةٍ في النّهج المقابل.. هناك، أعتقد ، ستجد من يساعدك على كراء شقّة مناسبة.. أسمعت يا ابني؟، لا فائدة من وقوفك هنا.

تسلّلتْ من باب الوكالة امرأةٌ ذات بشرة بيضاء، تخطّتني دون أن تنظر إليّ، أمكن لي أن أشتمّ عطرها الباريسيّ، فقد ذكّرني بعطر السيّدة شيرا، الرّائحة متشابهة فعلًا، سارت المرأة على عجل وحقيبتها الصّغيرة تتدلّى من كتفها حتّى اختفت في زحمة السّوق. جوهر من اليهود القدامى إذَن؟ تساءلت في سرّي، لكن، لماذا أخفَتْ عنّي هيلين هذه الحقيقة؟

عندما دخلت إلى المحرس استقبلني عمّ رزوقة –هكذا سمعتهم ينادونه– بابتسامة خفيفة، تأمّل ملامحي من خلف نظّارته الطبيّة، وعرف وهو يتفحّصني من الأعلى إلى الأسفل أنّي أكتشف الحمّام لأوّل مرّة. كنت مأخوذًا بالقُبّة، زخارفها على غاية من التّناسق، ترسو على حنايا قوامها عقود نصف دائريّة وأربعة أقواس محمولة هي أيضًا على أربعة أعمدة تزيّنها تيجان ذات ألوان فاتحة. وحوت رقبة القبّة نوافذ مقوّسة الشّكل، وهي تضيء القاعة بشكل طبيعي. وفي أسفل القبّة نافورة من الرّخام الأبيض، يحيط بها حوض رخاميّ، حدست أنّ النّافورة معطّبة منذ سنوات طويلة، تمامًا مثل الجدران العالية التي تقشّر طلاؤها. اقترب منّي عمّ روزقة ووضع أمامي ملحفتي حمّام، ظلّ ينظر إليّ وينتظر أن أطلب منه شيئًا آخر، ابتسمت في وجهه شاكرًا وأشار هو بحركة من يده إلى الرّكن الذي صُفِّفَتْ فيه

القباقيب وعاد إلى مكانه. وعندما طلبت منه قارورة ماء لم يُعرني أيّ انتباه، فجرى الرّجل الذي كان يروزني بعينيه ومدّني بواحدة:

-رزوقة سقيفته طويلة، ونحن هنا نتخاطب معه بالإشارات حتّى نتجنّب الصّياح.

رشاد، الرّجل الخمسينيّ، طيّاب الحمّام، يظل يتفرّس في الوجوه الوافدة، ناشرًا ابتسامةَ مودّةٍ لا تزول من وجهه، وبين فينة وأخرى يتفقّد اللّحاف المشدود إلى حزامه، كأنّه يخشى أن يسقط في غفلة منه. جسمه ممتلئ وكفّاه كبيرتان ومتحمّستان للدّلك، الأجساد العارية هي ثروته، يدقّق في تفاصيلها، وهو يفصل بين من يستنجد بخدماته ومن تعوّد على الاستحمام بسرعة لإدراك الصّلاة في جامع سيدي محرز. ومن المفترض أنّه عرف طولي ووزني، «هذا رجل غريب عن الرّبَطْ، أوساخه تغطّي بشرته السّمراء، لكن، لا بأس، أعرف كيف أجعله يدفع أكثر ممّا سأطلبه»، يقول في سرّه. شخصيّة رشاد مثيرة للانتباه، كنت أنزع ملابسي وأصفّفها في الخزانة الخشبيّة الصّغيرة وأتابع حركاته التي لا تهدأ.

ظلّ عمّ رزوقة -الجميع، ينادونه عمّ رزوقة- يراقبني وأنا أتّجه إلى الرّكن الذي صُفّفت فيه القباقيب، القوالب الخشبيّة التي اصطفّت أمامي كانت على مقاسات مختلفة، وهي مزدانة بقطع جلديّة سوداء مشدودة بمسامير. تساءلت في سرّي: أيّ القباقيب لبسته حبيبة؟.. القباقيب قديمة جدًّا، وطبعًا لا يمكن أن يعود قدمها إلى قرابة أربع مائة سنة. خيالي جنّح بعيدًا وتخيّلتُ حبيبة وهي ترتدي أحد القباقيب

ثمّ تمشي وهي تشدّ اللّحاف على خصرها وتتمايل على صدى دقّات القبقاب ثمّ تعبر الممرّ متّجهة إلى كامل أرجاء الحمّام لتشعل الشّموع. ولا أدري كيف وصلني صدى دقّات محمومة وأنا أتخيّل حبيبة تمشي لاهثةً باتّجاه «بيت السّخون» بعد أن وصلتها صيحات أمّها.

«بيت السّخون»، في الواقع، لا يختلف بشكل كبير عن الوصف الذي قدّمه الكاتب المجهول في قصّته، يقع في مؤخّرة الحمّام وحجمه صغير بما يسمح بالمحافظة على الحرارة المرتفعة. حوض الماء السّاخن يوجد على اليمين وهو مزدان بقطع رخاميّة ذات ألوان فاتحة. الجديد فعلًا هو القبو الإسمنتيّ المسطّح الذي أضيف تحت القبو الدّائري على مسافة مترين، وطبعًا ألغيت الفتحات الصّغيرة بفتحة مستطيلة كبيرة توجد في أعلى المدخل المنخفض. وطبيعيّ أنّ هذه القاعة الصّغيرة ملاصقة للحوض الأعلى أو ما يعرف بالنّحاسة التي تفضي إلى الفرن. فرنُ أتون لم يعد موجودًا هو أيضًا فقد استبدل التّسخين التّقليدي في الحمّام بأنابيب الغاز الطّبيعيّ، وبالطّبع لم يبق من أثر لغرفة أتون ولا لشجرة التّين الكبيرة، فقد بنيت في تلك الجهة ميضة جامع سيدي محرز.

الرّجل الملتحي الذي جلس أمامي وغطّس رجليه إلى مستوى الرّكبة في الحوض سمّر نظراته في خلقتي ولم يتوقّف عن متابعتي وأنا أدقّق في تفاصيل القاعة. تطلّعتُ إليه بارتياب ولم أسمح له بمشاركتي الحديث. كنت أحتاج إلى التّركيز وتخزين المشاهدات في دماغي، ثمّ إنّ نظراته المساريّة كانت دليلًا صارخًا على أنّ الحديث معه غير مريح، بل سيكون مزعجًا. لذلك لم أفكّر بتاتًا في استفساره

عن أيّ شيء حول الحمّام، ماذا سيضيف لي هذا المقرف الذي لا يُنزل عينيه من وجهي؟ في ذلك الوقت لم يكن الحمّام مزدحمًا، وحسب كلام رشاد، فإنّ الحمّام لا يشهد ازدحامًا إلاّ في الصّباح الباكر أو في المساء، أمّا في الظّهر، فلا يدخله عادةً إلّا كبار السنّ، وأنا طبعًا كنت حالة استثنائيّة. قلت في سرّي: من المفروض أن يغادر الرّجل القابع أمامي نحو «البيت الباردة»، فقد تعرّقت لحيته المرتخية وطفقت حبّات العرق تسيل من صلعته نحو مجريين في خدّيه، وبعد ذلك تتجمّع في اللّحية المرتخية لتتقاطر مثلما تتقاطر حبّات الماء الصّفراء من جوف حنفيّة معطّبة.

غادر الرّجل أخيرًا وقد يئس من وجود مُرافق ثرثار، وفي تلك الأثناء ارتفعت درجة الحرارة وتصاعد البخار عاليًا حتّى أصبحت الرّؤية أمامي غائمة. غطّى العرق كامل جسدي، نزّ من جبيني وكتفيّ ثمّ انزلق على رقبتي وظهري وصدري. أحسست أنّي أذوب وأتلاشى وأطفو كالبُخار تمامًا، فقدتُ الإحساس بكلّ من حولي وران صمت مطبق. لم أعد أسمع الأصوات في القاعة المحاذية ولا خرير المياه التي ذكّرتني للحظاتٍ بخرير المياه في وادي الدّرب، قفزتْ إلى مخيّلتي تلك الصّورة ثمّ تلاشت. أحسستُ بحالةٍ من الاسترخاء والذّوبان وكنت أطير وأطير كما يطير البخار حتّى اختفت جدران الحمّام تمامًا.

نظرت إلى البقع السّوداء التي كانت تتناثر على القطع الرّخاميّة، تأمّلتها وسط ذاك البخار الكثيف وتراءى لي أنّ شَعْرًا أسود كثيفًا ينزّ من تلك البقع السّوداء، وظلّ الشّعر يتدفّق ويطفو حتّى طوّقتني خصلاته السّوداء وتعالت نحو القبو وباتّجاه الفتحة. تلهّفَتْ أصابعي

للمس خصلةٍ كانت متناثرة على كتفي، كوّرتُ قبضتي لأُحكم الإمساك بها فلم أُمسك بشيء. أحسستُ برعشةٍ ناعمة تُدغدغ كلّ مسام جسدي، وتراءت لي فتحة كبيرة داخل الحوض، تلاشى الماء تمامًا من الحوض وقفزت امرأة وهي تلتقط خصلات شعرها المتماوجة في أرجاء القاعة. استطعت أن أرى عينيها السوداوين الواسعتين، كانت تنشج ودموعها تسيل على وجنتيها مثل شلّالين. وعندما أوشكَتْ على مدّ رقبتها خارج الفتحة تراجعت بشكل سريع كأنّ قوّة ما تجذبها نحو القاع. لم أحسّ بالخوف وحاولت أن أمسك برأس المرأة ثمّ بعنقها، مددتُ يديّ بإصرار وعناد ولم أمسك بشيء، كان رأسها الصّغير، كامل رأسها في متناول يدي، ولم ألمس شيئًا. لم تصلني دموعها أيضًا ولم تلامس وجهي، وإنّما كانت تتعالى وتتماوج مثل البخار تمامًا. بعد ذلك سمعت أنّات المرأة ثمّ صراخها: «يامّي طلّعني، طلّعني يامّي راني تعبت.. راني تعبت يامّي».. تماوجت من الفتحة سبائك من الذّهب، تخاتلت أمامي بمختلف ألوانها، بيضاء ووردّية وصفراء، حاولت أن أمسك بسبيكة بيضاء لامعة، وبغتة، غابت تلك الفتحة، أحسستُ بحرارةٍ لا تُحتمل وبحركةٍ سريعة سحبتُ يدي من حوض الماء السّاخن. حبستُ أنفاسي ووقفتُ بجانب الباب، شبكتُ ذراعيّ وأنا أعيد التأمّل من بعيد في تلك البقع السّوداء المتناثرة على الرّخام، ظلّت جامدة أمامي، لا حركة فيها ولا صراخ ولا لمعان يخلب الأبصار. لم أكن مرتبكًا بالمرّة، ولا مرتعبًا من الجان، فحكاية الجان هذه لا يمكن أن تنطلي عليّ، وإن كانت صحيحة فَلْيواجهني، وَلْيقبض عليّ ويخطفني كما يعتقد النّاس.

رفعت عينيّ نحو الفتحة التي تضيء القاعة، ولا أدري كيف تناوبت عليّ الخيالات، لبثت العينان مصعوقتيْن، تُطلّان عليّ في حالةٍ من الذّهول والذّعر. العينان ضيّقتان، مصرّتان على التّحديق، متسمّرتان بمنتهى الوقاحة دون تحريك الرّموش، كأنّهما محنّطتان. أحسست بنعاس وأنا أرفع عينيّ نحو تلك الفتحة وأتفرّس بكلّ عناد في تَيْنك العينين الضيّقتين.

كنت في سنّ الثالثة عشرة، أو أكثر من ذلك بقليل، أصعد كلّ ليلةٍ إلى سطح منزلنا، ومنه أعبر إلى سطح جارتنا سعديّة. أمّي تكرهها، وتشتمها أمامي وأمام أبي: «قهرمانة، صيّادة الرّجال»، وأبي يخفي ضحكته بحركة من يده ولا يعلّق على كلامها. وبعد أن ينتهي من تناول الغداء يمضي إلى وادي الدّرب حتّى لا يسمع شتائم أمّي، يرعى أغنامه ثمّ ينعس تحت شجرة التّوت، الشجرة الوحيدة التي سمّاها النّاس بعد موت أبي بـ«توتة إبراهيم». أنا كنت أحبّ سعديّة آنذاك، أنكمش قرب نافذة بيت نومها وأظلّ أراقبها كلّ ليلة، كنت حذرًا مخافة أن تتفطّن إليّ وتشنّع بي أمام أمّي. زوجها يعمل حارسًا ليليًّا، لذلك كان متاحًا لي أن أختلس النّظر في ظروف مُريحة ومثيرة في الوقت نفسه. كانت أسعد الأوقات لديّ أن أتابع سعديّة وهي تتخلّص من فستانها أو تنّورتها في غالب الأحيان ثمّ قميصها القصير ثمّ صدريّتها ثمّ «كَلْسُونها»، حتّى إنّي أصبحت أعرف كلّ ألوان «كَلاسِينها»، وفي الغالب، هي بيضاء أو ورديّة. كنت أقول في سرّي: تلك القطعة الصّغيرة من القماش تخفي شيئًا عجيبا تحت سُرّتها، وكان ذلك الشّيء غريبًا عندي، لم يسبق لي أن رأيته إلّا في

صور المجلّات التي كنّا نتخاطفها ثمّ نخفيها في وسط ضلف التّين الشّوكي.

في اللّيالي الأولى، لم أر شيئًا ذا بالٍ، كنتُ ألمح في لحظات خاطفة ذلك الشّيء الذي يتلف أعصابي أو ألمح مؤخّرتها الممتلئة الشديدة البياض واللّمعان، أو نهديها الصغيرين، رغم أنّي كنت أراهما كبيرين من خلف الفستان. وفي ليلة من اللّيالي، تخلّصت سعديّة من كلّ ملابسها وطفقت ترقص بجنون على أنغام موسيقى صاخبة، ترقص وتتثنّي وترفع ساقها وتدور وتدور وترفع ساقها الأخرى ثمّ تتلاعب بشعرها في حركات رشيقة، وتُحرّك خصلاتها في كلّ الاتّجاهات، تظلّ ترقص وتلهث وتزفر طويلًا طويلًا إلى أن تسقط على سريرها. لبثتُ مشدوهًا، فاغر الفم في ذلك الوقت الوجيز، كدتُ أغيب عن وعيي وانتفضت معي دودتي فأحسستُ بلذّةٍ خفيفة حتّى تبلّل سروالي، ولم أكن أرتدي تبّانًا آنذاك. وفي لحظة الانسحاق تلك، اقتنصتني عينا سعديّة، التقت عيناي بعينيها في لحظةٍ خاطفة فشعرتُ بارتجاج في عظامي وجريت بين الأسطح مصعوقًا.

أغرب ما في الأمر أنّ سعديّة كتمت السرّ ولم تشنّع بي عند أمّي، وذات مساء التقطتني أمام بيتها وأدخلتني إلى غرفة نومها، «إيجا لهنا يا قطّوس الرّماد» همست لي. أرخيت عنقي والتقطت أنفاسي بصعوبة وأنا أرى سعديّة تنزع ملابسها ببطء أمامي ثمّ تمرّر يديها على نهديها بحركات أثارتني. لأوّل مرّة أرى ضحكة امرأة مهتاجة وهي ترفع نهديها بيديها، عيناها متوقّدتان ولامتعتان ولعطرها رائحة عجيبة. «من أين تأتي سعديّة بعطر السّعادة المجهول؟»، تساءلت وأنا أتابع

رقصاتها وجنونها على السّرير وهي تدسّ وجهها قريبًا من وجهي ثمّ تسحقني بقبلاتها المحمومة وشهقاتها وزفراتها. الشّيء الأكيد، في ذلك الوقت، أنّي كنت فعلًا مثل قطّوس الرّماد، على قدر كبير من التّراخي، لم أستطع أن أتخلّص من شعوري بالخوف، كان الخوف قويًّا في داخلي، وإضافة إلى ذلك كان إحساسي مُقرفًا وأنا أطبّق أوامر الذلّ تحت الغطاء. لم أحسّ بتلك اللّذة الخفيفة التي أحسست بها حينما تابعت سعديّة في رقصتها المجنونة، من بعيد، من تلك النّافذة الصّغيرة.

بعد تلك اللّيلة، لم تنقطع عادتي في التلصّص على سعديّة من النّافذة، وكانت هي تقتنص عينيّ، ولا يصدر منها أيّ ردّ فعل، بل هي لا تكترث بي. وذات مرّة عوت في رأسي عاصفة الغضب، وحدث ما جعلني أكره سعديّة وأحقد عليها وأتجنّب السيّر أمام باب بيتها. كيف أنسى ذلك؟ كانت ردّة فعلي غريزيّة عندما كسرت زجاج النّافذة في اللّحظة التي لمحت فيها أبي داخل غرفة نوم سعديّة. ولا أدري بعدها كيف جريت وركضتُ مكدّرًا ومغمومًا وبتّ ليلتي الأولى وسط كهفٍ في وادي الدّرب.

حرّك رشاد يديه أمام عيني وهو يسألني:

-هل نمت؟.. جسدك تعرّق بما يكفي، هيّا اتبعني.

أجلسني رشاد أمامه على الدكّة وشرع يدلك جسدي بيديه، بدأ بالعنق ثمّ الظّهر ثمّ ضغط على الصّدر والجنبين والذّراعين، دلك جسدي عضلةً عضلةً بحركاتٍ منتظمة ومتتابعة وبتركيزٍ شديد حتّى أحسست بالارتخاء. «استلق على ظهرك، ناولني ظهرك، أغلق

فمك، نم على وجهك»، كان يأمرني بوجه جامدٍ، و بعد ذلك ارتدى القفّاز الجلديّ في يده اليمنى وشرع يدلك بضغطٍ منتظم، مركّزًا أوّلًا على العمود الفقري.

سألني لاهثًا:

- منذ متى لم تذهب إلى حمّام؟

- منذ سنوات طويلة، آه، منذ سنة 1992، تحديدًا في حمّام الحريم بمارسيليا.

صرخ رشاد وهو يضغط على رقبتي:

- حمّام الحريم؟.. وماذا تفعل أنت في حمّام الحريم؟ هل كنت تشتغل طيّابًا لنساء فرنسا هناك؟.. هاهاها..

لم تتوقّف قهقهته، الحكاية أثارت فضوله، وأشعرته بلا شكّ بأنّ في حمّام الحريم كثيرًا من الإثارة.

قلت ضاحكًا وأنا أسلّمه ذراعي اليمنى:

- لا يا رشاد، لا تجعل خيالك يذهب بعيدًا، ذهبت إلى هناك في مناسبة واحدة، وكنت برفقة هيلين، حبيبتي هيلين.. تأكّد أنّ حمّام الحريم لا يشبه حمّام الذّهب في شيء، هو يصلح للاسترخاء أكثر من الاستحمام. وليطمئنّ قلبك هاهاها.. لا يوجد طيّاب في حمّام الحريم.

لم يعقّب رشاد على ما قلت، و في تلك الآونة سنحت لي الفرصة بأن أسأله عن حكاية حمّام الذّهب:

-قل لي يا رشاد، الأكيد أنّك تعرف قصّة حمّام الذّهب.

تنفّس بعمقٍ وقال:

-طبعًا، ومن لا يعرف قصص حمّام الذّهب في برّ الرّبَطْ؟ والحكايات كثيرة يا صاحبي.

-ارْوِ لي واحدة، إن سمحت طبعًا، الشّائعات التي سمعتُها كثيرة وأريد أن أعرف الحقيقة منك.

صمت رشاد، وربّما كان يفكّر في الأثناء، أو ينتقي إحدى الحكايات.. ثمّ قال:

«هيّا يا سيدي، بمختصر الكلام، الحكاية من الحكايات الشائعة في «باب سويقة». يروى أنّ امرأةً بسيطةً مات زوجُها وترك لها فتاةً في ريحان الشّباب، فتدهور وضعها بعد وفاته، ودفعتها حالتها الاجتماعيّة المزرية إلى غزل الصوف وبيعه في سوق «المدينة العربي»، لكسب بضع ليرات[1] تقيها الجوع وتحميها من التسوّل. وفي الحقيقة، لم تكن تلك الليرات تفي بالحاجة. ولكنّ المرحوم زوجها عندما مات ترك لها «دارا كبيرة» تأويها هي وابنتها. وفي يوم من الأيّام زارتها إحدى الجارات وقالت لها: « يا للّا منيرة، دارك تبارك الله، فيها غرف كثيرة وزائدة عن النّصاب، لماذا لا تكتفين بغرفتين وتخصّصين البقيّة للكراء؟ وهكذا تضمنين مبالغ ماليّة محترمة، وأنت تعرفين، الرّزق الحلال لا عيب فيه». أُعجبت المرأة بالاقتراح فعلاً، ولم تفكّر في أنّها ستُدْخِل إلى بيتها أغرابًا، وهذا يتنافى مع العُرْف والتّقاليد،

(1) الريال التونسي: عملة تونسية قديمة، عُوّضت بالفرنك التونسي في 1 جويلية 1891.

بل فكّرت فقط في الريالات التي ستغنمها وفي الرّبح الوفير الذي سيُنسيها الفقر.

هيّا يا سيدي، بمختصر الكلام، ذهبت المرأة إلى المنادي أو الدلّال كما نقول في برّ الرّبط وأعلمته برغبتها في كراء غرفتين من دارها. ومن ذلك الحين بدأ المنادي جولته في السّوق بحثًا عن تجّارٍ أو عابري سبيل يحتاجون إلى غرفٍ للإقامة . يا سيدي بدأ الأغراب يتوافدون، ويطرقون باب السّقيفة: «أنا فلان الفلاني، من البرّ الفلاني، أرغب في كراء غرفة لليلة واحدة». وفي الغد يطرق الباب غريبٌ آخر: «أنا فلان، تمّار من الجريد أحبّ كراء غرفة لأيّام». المفيد، في أحد الأيّام، طُرق الباب عند المغرب، فأسرعت المرأة لفتحه ، قابلها رجلٌ عرفت من لهجته أنّه مغربي، قال لها: « أختي، أنا أرغب في كراء غرفة لثلاثة أيّام» ثمّ أعطاها ليرتين من الذّهب. فرحت المرأة بهذا الكنز وجرت نحو ابنتها لتخبرها بأيّام السّعد. أمّا المغربي فقد دخل الغرفة وأحكم إغلاق الباب، وبقي هناك لمدّة يومين، لا صوت يصدر منه ولا باب يفتح. وفي اليوم الثّالث خرج مُبكّرًا ولم يعد إلّا مع المغرب وبرفقته رجلان، أحدهما كان أسود البشرة. دخلوا إلى الغرفة وأغلقوا الباب دون أن تصدر منهم حركات أو أصوات كأنّهم أخلدوا للنّوم.

ومع منتصف الليل وعلى ضوء القمر الذي أضاء الحوش خرج المغربي ومعه الرّجلان وساروا نحو نقطة ما في الحوش. المرأة، قلبها دليلها، لم تستطع النّوم، سمعت أصواتًا مكتومة وغريبة فلبثت تتابع ما يجري في الحوش من شبّاك غرفتها. رأت الرّجل المغربي وهو يجرح الرّجل الأسود في مستوى يده اليمنى والدم ينزّ وينزّ ولا يتوقّف. بعد

ذلك ملؤوا صحنًا متوسّط الحجم بالدّم، ثمّ أشعلوا شمعةً أرسلت لسانًا من النّار ووضعوها وسط الصّحن . شرعوا بعد ذلك في القيام بتعاويذ وطلاسم وحركات غريبة كما صدرت عنهم أصوات غير مفهومة. وبعد لحظات، هكذا قدّرت المرأة، تشقّقت أرضيّة الحوش وانفتح شقّ كبير. نزل الرّجل الأسود إلى جوفه وبدأ في إخراج سبائك الذهب، انهمك في إخراج الذّهب في خفّةٍ، أمّا المغربي ومرافقه فقد استغرقا في جمع قطع الذّهب داخل أكياس صغيرة. وحينما امتلأ كيسان بالذّهب تسلّلوا بكنزهم وهربوا.

تأكّدت المرأة من أنّ المغربي قد فرّ بالذهب مع مرافقيه ولن يعود. وعندما تطلّعت إلى الفتحة وجدتها ماتزال مفتوحة، والشّمعة التي تتوسّط الصّحن المملوء بالدمّ ماتزال تضيء الجوف. تسارعت أنفاسها وتخبّلت وهي تجري نحو ابنتها فأيقظتها ثمّ توجّهتا إلى تلك الفتحة التي تنبعث منها بهرة تخلب الأبصار. اندهشت المرأة أكثر وهي ترى الذّهب يلمع، فقالت لابنتها: «انزلي يا ابنتي بسرعة، انزلي و أخرجي الذّهب». فنزلت الصبيّة حافيةً إلى جوف الفتحة وبدأت تُسلّم أمَّها قطعَ الذّهب من كلّ الأحجام، طفقت تُخرج الذّهب قِطعًا قِطعًا ثمّ قطعتين قطعتين ثمّ قطعةً قطعةً إلى أن بدأت الشّمعة تنطفئ وبدأت الفتحة من حيث لا تدري الأمّ ولا ابنتها تنغلق شيئًا فشيئًا. وفجأةً أخذت الصبيّة تصرخ «يامّي، الفتحة ستنغلق عليّ، هاتي يدك، يامّي أخرجيني.. أنقذيني يا ميمتي، يد غريبة تقبض عليّ ، يا ميمتي الشمعة توشك على الانطفاء».. أمّا الأمّ فظلّت تقول وكأنّها أصيبت بلوثة جنون، ولا تسمع ولا ترى: «اخرجي الذّهب، اخرجي

الذّهب».. وعندما انطفأت الشّمعة تمامًا انغلقت الفتحة على الصبيّة وآخر ما قالته لأمّها وهي تنشج وتتلوّى: «يامّي، يعيشك، ابني لي بالذّهب حمَّامْ هنا».

هيا يا سيدي، بمختصر الكلام الفتحة انغلقت ولم يبق لها من أثر، وابتلعت الأرضُ الصبيّة ولم يعد يُسمع لها نشيج ولا صراخ. أمّا المرأة فقد استفاقت أخيرًا من جنونها ومن لوثة الذّهب التي قضت على زهرة من زهرات «بَرّ الرّبَط» وشرعت تبكي وتصيح وتمزّق خصلات من شعرها وتلطم خدّيها حزنا على هلاك ابنتها «[1]

بعد أن غادرتُ حمّام الذّهب سرتُ في سوق سيدي محرز الصّاحّ، كنت على قدرٍ كبير من الانتعاش وزال إحساسي بالبرد. توجّهتُ إلى مقهى الشوّاشين، حيث اعتدت أن أجلس مع هيلين، حبيبتي تضع رأسها على كتفي وتهمس: «في هذا المقهى أجد رائحة عائلتي، أستنشقها في الجدران والزّخارف الرّائعة، إنّه الحنين إلى الماضي يا سعد، الحنين الجارف الذي يسري في عروقي». يأتيني بعد ذلك صوت حبيبة من بعيد وأنا أمشي، كأنّه يأتيني من نفق : «يامّي طلّعني، طلّعني يامّي راني تعبت.. راني تعبت يامّي».. يخفتُ صوت حبيبة لأسمع صوت صبيّة أخرى: «يامّي، يعيشك، ابني لي بالذّهب حمَّامْ هنا».. وفي الصّوتين، أحاول أن أميّز الحقيقة من الخيال، الأسطوريّ من الواقعيّ.

أمعنتُ في تحليل وقائع الحكايتين، من المؤكّد أنّ كلّ الحكايات قد انطلقت من حدث اختفاء فتاة، ومع كلّ روايةٍ تُضاف إلى الحدث

---

(1) إحدى الحكايات الشّعبيّة المرتبطة بأسطورة حمّام الذّهب وهي متداولة في باب سويقة.

الأصليّ بهارات كثيرة وخرافات شتّى جعلت منه بعد فترة من الزمن أسطورةً ساهم كلّ الرُّواة في حياكتها، والأسطورة عندما تتقادم تصبح حقيقة، مثل التّاريخ تمامًا. ما يُكتب هو ما يعتبره النّاس تاريخًا، أمّا ما وقع بالفعل وجرى بين الناس ولم يدوّن فليس سوى مَجازٍ مَيّت، وتلك مهزلة أخرى. مسألة الذّهب مسألة متكرّرة في الحكايات تزيد في روعتها وتشويقها وشهرتها، ومن الواضح، بل من اليقين أنّ الكنوز موجودة في أرض حمّام الذّهب.

يبقى مقهى الشوّاشين مريحًا لي دومًا، في ذلك الجوّ العابق بروائح البخور والقهوة والشّاي الأخضر، اللّوحات الفنيّة تمنحني إحساسًا غريبًا بأنّي أحيا في عمق ذاك الزّمن الجميل، بهدوئه وعاداته الحميمة. لم يكن المقهى مكتظًّا مثل العادة، بحثتُ عن صاحبة الصّوت التي تُردّد كلمات أغنية للشّيخ العفريت، كانت على مقربة من الوجق[1]، تغنّي وهي محاطة بمجموعة من أصدقائها:

«الأيّام كِيفْ الرّيح في البرّيمَهْ   غَرْبي وشرقي ما يدومش ديمَهْ
صبّرت قلبي للصبر ما باشي   نا صابرة والنّار لهبت جاشي
يا عين كوني صابرة عزّامَهْ   الصبر كلمة والفرج قدّامَهْ
الصّبر ما كيفه دواء لِلّيعه   كميان سرّه خير من تطليعَهْ[2]»

رفعتُ رأسي عندما مرّ بي النّادل وطلبت «قهوة عربي»، وتلك عادتي عندما أجلس مع هيلين في المقهى. وفي تلك اللّحظة انتبهتُ

(1) موقد صغير جدّا كان في القديم تغلى عليه القهوة التي تقدّم للعاملين في السّوق وللمارّة من المتبضّعين.
(2) مقطع من أغنية «الأيّام كيف الرّيح» للشّيخ العفريت.

إلى المرأة التي تجلس قبالتي، هي دون أدنى شكّ المرأة التي خرجت من وكالة جوهر، هكذا أسميتها، توضّحت أمامي كلّ ملامحها، بشعرها الأبيض القصير، وبعينيها الزّرقاوين الواسعتين، وبشرتها البيضاء. حدستُ أنّها تجاوزت السّتّين بكثير ولكنّها تحافظ على أناقتها، وحسب خبرتي في قراءة الوجوه والحركات تأكّدت أنّها يهوديّة، كانت تقرأ كتابًا وبين فينة وأخرى تترشّف من فنجان الشّاي الأخضر أمامها.

انتبهت إليّ المرأة، ابتسمت وحيّتني بحركة من عينيها، حيّيتها أنا أيضًا واستسمحتها في مشاركتها طاولتها. الشّيء الذي لفت انتباهي أنّها دعتني إلى طاولتها دون تفكير، قالت لي وهي تُقرّب محفظتها الصّغيرة منها وتفسح لي المجال للجلوس:

- أنا لا أملّ من الاستماع إلى أغاني الشّيخ العفريت، إنّه مذهل.

قلت لها وأنا أحرّك فنجان القهوة:

- فعلا يا سيّدتي، وقد عُرف بذلك الصّوت القويّ والمؤثّر، إضافة إلى ذلك، له قدرة عجيبة على الارتجال.

- والدتي كانت تعرفه بشكل جيّد، كان يسكن بجوار بيتنا القديم في حارة الشّرف بالحفصيّة.

- الحقّ أنّ الشّيخ العفريت وحبيبة مسيكة أثّرا تأثيرًا كبيرًا في الأغنية التونسيّة، والأهمّ أنّهما قدّما، بكثير من الجرأة، نوعًا جديدًا من الأغاني الخفيفة المرتبطة بحياة التونسيّين اليوميّة.

- ولا تنسَ أيضًا روول جورنو.

أغلقت المرأة صفحات رواية «L’insoutenable légèreté de l’être» ووضعتها أمامها على الطّاولة بعد أن مرّرت خيطًا أبيض على الصّفحة التي كانت بصدد قراءتها:

-اسمي خافا.

-سعد، طالب قديم وفاشل في التّاريخ.

قلت مبتسمًا وأنا أرمق الكتاب وأنتبه إلى أنّ هيلين كثيرا ما حدّثتني عن ميلان كونديرا، «هل قرأت روايته غراميّات مَرِحة؟» كانت تسألني بطرف عينها مازحة.

قالت خافا ضاحكة -وربّما أضحكتها غرابة الصّفة التي قدّمت بها نفسي: طالب قديم وفاشل في التّاريخ.. والغريب أنّها لم تستفسرني عن الأمر-:

-أنا لا أقرأ لكونديرا بالفرنسيّة فقط، أقرأ له ولغيره أيضًا باللّغة العربيّة، الحقّ أنّي أجد صعوبة في فهم كلمات كثيرة، اللّهجة الدّارجة أتكلّم بها بطلاقة، وعربيّتكم صعبة ومعقّدة.. أضف إلى ذلك أنّ أغلب التّرجمات رديئة وبلا روح، كيف يترجمون تلك الأعمال العظيمة بلا روح، وبمنتهى القرف؟

هزّت كتفيها وتابعت:

-أقرأ أيضًا تاريخنا، وخاصّةً ما تعرّض له اليهود من اضطهاد قريبٍ وبعيد.. ما استرعى انتباهي أنّ المؤرّخين في تونس سكتوا عن المحرقة النّازيّة ضدّ اليهود في حيّ الحارة.. حسب اعتقادك يا سعيد، عفوًا، عفوًا، يا سعد، لماذا سكتوا عن ذلك؟

- في رأيي، المسألة ليست عنصريّة بالأساس، الأمر يعود بشكل بارز إلى غياب الأمانة التّاريخيّة. وجرت العادة، أنّ المؤرّخين، أو فلنقل أغلبهم، لا يكتبون التّاريخ إلّا تحت الطّلب.. بدقّة أكبر أقول لك مثلًا، في سنة 1942 حرّرت قوّات الجيش الألمانيّ الأراضي التّونسيّة مرفوقة بوحدة تابعة للإس إس، هذه الفرقة كانت مهمّتها أساسًا تطبيق السّياسة المناهضة لليهود في تونس، وقد بلغ عدد اليهود الذين تمّ ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال في أوروبا نحو 13 ألف يهوديّ. ولا أحد من المؤرّخين تحدّث عن ذلك، فقط هي كتابات جافّة ومتسرّعة، وهذا مؤسف.

- تلك الأرقام يا سعد غير دقيقة، فقط هي أرقام رسميّة لا تستند إلى حقيقة ما جرى.. وجرائم القتل والاغتصاب والحرق، من تكلّم عنها؟ من فضحها بربّك، من؟ أبي أحرقوه، قيّدوه ثمّ أحرقوه أمامي بدم بارد، كيف يمكن لي أن أنسى ما فعله النّازيون بنا، كيف؟

بحثت خافا عن منديل أبيض في محفظتها، مسحت دموعها وهي ترسل زفرات حارقة ثمّ تابعت:

- منذ العهد الرّوماني لم يسلم اليهود من القمع، حدث ذلك في قرطاج وأوتيكا وهدروناتوم (سوسة) ونيابوليس (نابل) وكلوبيا (قليبية). لم يبق شبر في هذا البلد لم يضطهدونا فيه. وما فعله النّازيّون بنا لم يفعله الرّومان، لم يفعلوا مثله رغم جبروتهم.. إنّها قمّة التوحّش والحيوانيّة المفترسة.. أسمعت

بالحيوانات الجائعة والمفترسة؟ أسمعت يا سعد؟ إنّهم النّازيون، كلاب التّاريخ المسعورة.. كنّا في حارة الشّرف، في حماية سيدي محرز، حامي حمى اليهود، كانت حياتنا بسيطة مع جيراننا المسلمين، ألعب مع البنات كلّ يوم، نلعب الغمّيضة ونقفز على الحبل ونُحدث جلبة في الحيّ، وتنهرنا الأمّهات: «اِلعبن الغمّيضة ولا تقفزن على الحبل». كانت حياتنا بسيطة، نتبادل أكلاتنا وملابسنا، ونمرض ونشفى معًا، ونمشي في سوق البلاط وسوق العطّارين بمنتهى الانشراح، ونمرّ ببائعي الخبز واللّبن والتّمور والبخور والعطور والصّوف والقماش ونشتمّ روائح الشّواء والتّوابل وروائح الكسكس والملوخيّة ونحسّ بالجوع والشّبع معًا. وغير بعيد من هنا، كنّا نمرّ بالسّوق الحفصيّ والسّوق الصّغير والسّوق الكبير، ويتبعنا فتية، لا نخاف منهم، يسترقون إلينا النّظر ثمّ يضحكون لنا ويمرّون. ونعود معًا إلى بيوتنا عندما يرتفع صوت الأذان، كنّا نسمعه بقلوبنا، لا بآذاننا، في جامع سيدي محرز وفي جامع الزّيتونة. القتلة، غدروا بنا، بلا رحمة ولا شفقة، بدم بارد ورخيص أحرقوا أبي أمامي.

دموع خافا أحرقت وجهي، وأغرقتني في كآبة غريبة، لا أدري ما إذا كانت خافا قد انتبهت إلى أصابعي التي ترتعش وأنا أتذكّر أبي. أيقظوني كما أيقظوا أختي نور وقالوا لنا إنّ أبي مات، وسمعتُ لغط النّساء في حوش دارنا ثمّ سمعت نواح أمّي.

تاريخ أبي هو تاريخ رجل عظيم..

لم يصدّق أبي ذات مساء وهو يتأمّل صندوقًا غريبًا في أحد كهوف وادي الدّرب، اكتشفه بالصّدفة. حينما كان يرعى أغنامه سمع صوتًا غريبًا داخل كهف قريب منه. اقترب من الكهف ورفع بصره باتّجاه الأتربة الّتي تهاوت واكتشف هيكل صندوق قديم. حبس أنفاسه وهو ينبش بيديه حتّى استطاع إخراج الصّندوق الغريب. ولكنّه لم يتمكّن من فتحه، خمّن وهو يعاينه أنّه يحتوي على أسلحة قديمة، فكّر في بادئ الأمر أن يُعلم الأمن، وتراجع عن ذلك في آخر لحظة. رجال الأمن، بكلّ تأكيد، سيحاصرونه بالأسئلة ويدرجون اسمه في سجلّات المراقَبين، أضف إلى ذلك أنّ أبي لا يحبّ وجع الرّأس. حمل ذلك الصّندوق على متن عربة جارنا إلى منزلنا، أحكم إخفاءه تحت كوم من القشّ وقاد الحمار نحو حيّ الزّهور. أمّي كاد يغمى عليها بعد أن فتح أبي الصّندوق، لم يُصدّق أبي بدوره وهو يُخرج من الصّندوق قطعتيْ ذهبٍ صغيرتين ومُسدّسًا وخرائط من الجلد، ذلك الصّندوق غيّر مجرى حياتنا في حيّ الزّهور، طبعًا لم نتحوّل إلى أثرياء، فالثّراءُ كما حصل مع قِلّةٍ من المحظوظين يحتاج إلى سبائك من الذّهب، إلى كنز علي بابا كما تقول أمّي. ومنذ ذلك اليوم ظلّ أبي ينبش في كهوف وادي الدّرب. وكنت أنا، مثل قطّوس الرّماد، أنبش مثلما ينبش أبي، وأحيانا يلتفت إليّ مُنبّهًا: «لا تستعمل الفأس إلّا عند الضّرورة يا سعد، انتبه وإلاّ هلكنا داخل الكهف».

عندما كبرتُ عرفت أنّ تلك الكهوف المحفورة في وادي الدّرب كانت مساكن قديمة حفرها اللّاجِئون الإسبان الذين فرّوا من الحرب الأهليّة الإسبانيّة في الفترة الممتدّة من 1936 إلى 1939،

تلك الحرب التي جرت بين حكومة الجبهة الشّعبيّة والمتمرّدين العسكريّين وكان يقودهم الجنرال فرانكو.. اللّاجؤون الإسبان فرّوا من جحيم فرانكو وقصدوا شمال إفريقيا ومنها القصرين، واضطرّوا إلى الإقامة في تلك الكهوف بناء على رغبة من المقيم العام الفرنسيّ إريك لبون في استخدامهم كعَمَلة مجنّدين لإنشاء مركز استعماريّ بجهة القصرين.

حيّنا هو حيّ الفقراء، حيّ المعذّبين، «الحاكم» ربط أقدامنا بكرات من الوهم لنموت فقراء، وذلك الصّندوق الغريب، في سنوات الجوع تلك لم يبقنا فقراء. عشت طفولتي كـ«قطّوس الرّماد»، أسير خلف أبي، وأنبش كما ينبش أبي، ولم أكره أبي عندما رأيته في غرفة نوم جارتنا سعديّة ولم أكرهه عندما سمعت في الحيّ أنّه يتسلّل إلى بيوت جاراتنا في بعض اللّيالي. كانت تلّفني حالة من الامتعاض من تلك الألسن الثّرثارة وتشملني حالة غضب ثمّ سريعًا ما أنسى وأركض نحو وادي الدّرب ولا أبالي بشيء. كنت أحبّ ضحكة أبي، وأحبّ الأكل معه، وكنت أحبّ استنشاق رائحة الدّخان التي ينفثها في الهواء. أوّل سيجارة دخّنتها كانت من علبة سجائر أبي، وأوّل كأس نبيذ شربته كان من قارورة أبي. وكان أبي يتفطّن إلى كلّ شيء ولا يقطّب جبينه ولا يصرخ في وجهي، إنّما يحيطني بذراعيه ويضمّني بقوّة. كان اعتقادي راسخًا أنّ العالم الذي لا أرى فيه وجهه هو عالم مخيف، عالم تعوي فيه ذئاب، تحاصرني ثمّ تنهش لحمي. وعندما كنت أهرب إلى نزواتي وحماقاتي كان لديّ إحساس عميق بأنّ ذلك يحصل برعاية أبي، ولم أكن أملك الجرأة لاستفساره، ولا أذكر أيضًا أنّي قلت

له كلمة «أحبّك»، كنت أردّد الكلمة في صمتي ولا أدري لماذا لم تكن تلك الكلمة تصل إلى شفتيّ؟

مات أبي تحت شجرته، توتة إبراهيم، مات ضاحكًا وعندما حملوه إلى بيتنا لم أبك مثلما بكت أختي، ولم أصرخ مثلما صرخت أمّي. ظلّ أبي طوال تلك اللّيلة ممدّدًا أمامي، ظلّ ضاحكًا وظلّ جسمي مخدّرًا لا يصدّق أنّ أبي مات، كنت أنظر إليه في توسّل لكي يلفّني بذراعيه كما كان يفعل ثمّ يضمّني بقوّة، ويهمس في أذني: «اتبعني يا سعد».. ثمّ يضحك وهو يمازحني: «لا تنسَ الفأس يا قطّوس الرّماد»..

غادرت مقهى الشّواشين كما غادرت خافا، قالت وهي تصرّ على دفع ثمن القهوة:

- أنا أُمضي أغلب مساءاتي هنا في القراءة والتمتّع بأجواء المالوف وعبق الماضي، باستثناء يومَي الجمعة والسّبت.. لا تنسَ يا سعد، إن فكّرت طبعًا في العودة إلى مقهى الشّواشين، لا تنس أن تأتيني بأحد الكتب التي تتحدّث عن المدينة العتيقة.. وإن عثرت على كتاب يسرد وقائع المحرقة النّازيّة ضدّ اليهود فإنّ تلك المفاجأة ستكون رائعة..

انتبهت في أثناء ذلك إلى أنّ نادية هاتفتني مرارًا وأنا في حمّام الذّهب، ولمّا يئستْ من مخاطبتي كتبت لي رسالة قصيرة باللّغة الفرنسيّة :

Demain, le mort sera enterré, commençons à creuser tôt[1]

(1) غدًا يُدفن الرجل الميّت.. علينا بالانطلاق في الحفر مُبكّرًا.

غادرت المقهى وصوت تلك الفتاة الجالسة بجوار الوجق يتناهى إلى مسمعي ويشحنني بانفعالات غريبة..

«يا فاطمة بعد النّكد والغُصَّهْ يدور الفلك ونروّحو للمرسى

يا فاطمة بعد النّكد والكشره يدور الفلك ونروّحو للدّشـرة

ونقابلو الأحبـاب آه يا بشره باللي جرى نكافيك ليس ننسى[1]»

---

(1) مقطع من أغنية «يا فاطمة» للشّيخ العفريت.

(8)

هيلين

موت سيمون كان الحدث الأبرز في الأيّام الأخيرة، فقدنا جارًا عزيزًا في ظروف غامضة وخيّم علينا الحزن. شيرا تغيّرت كثيرًا منذ حدث الموت، لزمت الصّمت واختفت وراء وجهها الشّاحب، لم تعد تهتمّ بنباتاتها الخضراء في الشّرفة وانقطعت عن الذّهاب إلى المصاغة. وبطبيعة الحال لم تعد تفتح نافذة غرفتي المطلّة على شرفة شقّة جارنا الرّاحل، بقيت الشّرفة حزينةً ومغتربة، ومن المؤسف أن تموت كلّ زهورها. أسمع نشيج شيرا في اللّيل، ولم يكن في وسعي أن أخفّف عنها حالة الاكتئاب، لم تعد تأكل مثل العادة، تنكمش في غرفة النّوم وتكتفي بكأس حليب أو بعض الغلال. شيرا، رغم قوّتها وصلابتها تنقلب إلى امرأة هشّة ويائسة عند حدث الموت. يوم مات إليف ظننت أنّها تلاشت تمامًا، كانت تتنفّس بعسر وتسعل بشكل مخيف، داهمتها أيضًا حالة هستيريّة وهي تودّع أبي. بقيت طوال الليل تعانق جسده المسجّى في غرفة النوم، تهمهم بكلمات مسحوقة ثمّ ترشق عينيها في السّقف في حالة وجوم غريبة. يوم مات أبي، لم أكن على يقين أنّ شيرا ستنهض من فراش اليأس. أنا فعلًا أشفق عليها، أقرّب وجهي من وجهها وأحضنها بقوّة. ذاكرتها هي ذاكرة الموت،

مشاهد الحرق والاغتصاب والقتل في طفولتها، مقتل أبيها وأمّها في حادث مروّع، وموت إليف وأخيرًا موت العزيز سيمون.

كنت في غرفتي عندما سمعت طرقات عنيفة على باب شقّتنا، شيرا هي من فتحت الباب وتلقّت خبر موت سيمون، إيزاك ظلّ يصرخ مرتعشًا في حضنها: «مات سيمون.. مات أبي.. وأنا من قتله، أنا قتلت سيمون».

بعد الشّجار الأسبوعيّ بين سيمون وإيزاك، الشّجار الحادّ الذي كنّا نتابعه بحيرةٍ في شقّتنا، سقط سيمون مغمًى عليه، الطّبيب الذي فحصه في المصحّة بحضور شيرا وإيزاك قال يائسا: «لقد أصيب بجلطة دماغيّة حادّة، وفي سنّه لم يكن من الممكن إنقاذه». بعد ذلك أصيب إيزاك بنوبة عصبيّة ونقلناه إلى المصحّة. قال الأطبّاء إنّ المخدّرات أتلفت أعصابه، وحدث الموت زاد في تعقيد المسألة، ولذلك فإنّ إيزاك يحتاج إلى سنوات ليشفى.

لم يكن من المفيد أن نحقد على إيزاك أو نغضب منه، لا أدري، ربّما هو ضحيّة المحيط المسعور الذي سقط في جحيمه وبدّد فيه ثروة والده. سيمون في أيّامه الأخيرة صرّح لنا أنّه يوشك على الإفلاس بسبب حماقات ابنه مع مافيا المخدّرات والقمار. حين زرت إيزاك في المصحّة رفقة ماريا بدا لي كطفل، وربّما فقد ملامح ذلك الوحش الذي جعله فظًّا، ظلّ ساهمًا يحدّق في الفراغ، ولم تتيقّظ عيناه عندما لمحني ولمح ماريا بجواري. أحسستُ في تلك اللّحظات القصيرة أنّ الإنسان عندما ينتهي إلى اليأس المطبق يتخلّص بإرادته من قناعه المرعب ويعود إلى ملامح طفولته الأولى، يستغرق في استرجاع

الماضي بحميميّة. وأعتقد أنّ إيزاك فقد توحّشه الذي تسبّب في موت سيمون، وهو يعيش حالة حنين تعيده إلى حضن والده وهو طفل يحبو ويكتشف الحياة. إيزاك، يحتاج إلى سنوات ليشفى، وحينما يشفى سيبكي أباه وسيتعذّب كثيرًا في ما أظنّ.

علمت لارا أيضًا بالخبر المؤسف وقاطعت دراستها، لارا لا تنسى عطف سيمون عليها ولا تلك الكلمات الرّقيقة التي كان يدغدغ بها سمعها. عانقتني بحُرقةٍ وهي تبكي ثمّ أغلقت باب غرفتها في حالة حزن. بعد ذلك انشغلت بالمطبخ لمّا لاحظت انكسارنا، أنا وشيرا. ولا أعرف لماذا كنت أحسّ بشكل طاغٍ أنّ لارا ترغب في الحديث معي، تأتي إلى غرفتي ملويّة العنق، في حالة وجوم، وعندما تكتشف حزني العميق تسبل عينيها ثمّ تعود إلى غرفتها.

في مثل هذه الظّروف بطبيعة الحال لم أذهب مع ماريا إلى حمّام الحريم ولا إلى سوق الفاكهة والخضر. انشغلت بالقراءة والبحث ومتابعة سير العمل في المصاغة. في الحقيقة، لست متضلّعة في معرفة سعر الذّهب سواء كان مستعملًا أو جديدًا، ولا أميّز أنواع الذّهب بعضها من بعض ولا أعرف تفاصيل الغرام والعيار الذي حدّثني عنه ماثيو، الصّائغي الذي تدرّب على يد أبي. يحدّثني أحيانًا بملامح جادّة فأصغي بغير اكتراث وبين فترة وأخرى أستحسن الأمر بحركة من رأسي وأمتنع عن طرح أسئلة تقتضيها تفاصيل حكاياته. أعرف في الواقع بعض المعلومات العامّة، مثلا، عندما يرتفع سعر النّفط يرتفع بالضّرورة سعر الذّهب وفي مقابل ذلك ينخفض سعر الذّهب كلّما ارتفع سعر الدّولار. بشكل آخر لا تهمّني المعادلات والأرقام،

شيرا تفهمها وتتناقش فيها مطوّلًا مع ماثيو. «ماثيو رجل يهوديّ دقيق في عمله»، كما تقول شيرا، أتابعه من خلف مكتب أبي في المصاغة فأتذكّر تلك الأيام التي كنت أرافق فيها إليف إلى مصاغته الصّغيرة. كان يمضي السّاعات في العمل ولا ينتبه إليّ، وكنت أستغرق في القراءة إلى أن يغلبني النّعاس. أبي كان يذوب في عمله مثلما يذوب الذّهب تمامًا، وكنت أعرف أنّ إصراره هو ما جعله ينجح. حتّى عندما تعرّض إلى مضايقات من تاجر مسيحيّ بجواره ظلّ يقاوم إلى أن حازت المصاغة على ثقة الجميع في مارسيليا. لا أميّز هنا بين الأديان، العمل المتقن، في كلّ الأحوال يعشقه الجميع، بلا تطرّف أو عنصريّة أو حقد.

مكتب أبي في المصاغة ظلّ كما هو، لم تشأ شيرا أن تستبدله بمكتب جديد، أبقت أيضًا على ترتيبه ونظامه، تمامًا كما تركه إليف، فقط أضافت إطارًا صغيرًا على الجانب الأيمن للمكتب فيه صورة أبي وهو يضحك، ضحكته رائعة لا تتجمّد في ذاكرتي ويصاحبها رنين محبّب لديّ، هو رنين الحبّ. كما حافظت شيرا على عادة إليف في استبدال الزّهور كلّ صباح، يا لروعتها! رفضت أن تستبدل المزهريّة البيضاء المزدانة بأشكال مذهّبة، قالت بكثير من الحسرة: «لقد اقتنيناها من الهند، بعد رحلة ساحرة قضّيناها أنا وإليف، وتلك المزهريّة من عطر أيّام حبّنا». إضافة إلى ذلك، وبمنتهى الدقّة، تتابع شيرا العائلات التي كان يرعاها إليف في مختلف المناسبات، وهي عائلات يهوديّة ومسلمة. إليف كان يهمّه أن يُسعد من يطرق بابه، وتتساوى عنده أعياد «الغفران» و«بوريم» و«الفصح» مع عيدي

الفطر والأضحى. وفي عادته، كان يوزّع الألبسة وكراتين بها موادّ غذائيّة بالإضافة إلى مبالغ ماليّة، يفعل إليف كلّ ذلك بشكل سرّي، ويخفي كلّ تلك الحقائق عنّا. وبعد وفاته اكتشفنا تلك التّفاصيل في كنّش صغير بدرج المكتب، لا أنسى ذلك المساء حين وقفت أمامي فتاة قمحيّة البشرة وسألت عن أبي، وحين أعلمتها أنّه توفّي انخرطت في بكاءٍ مُرّ، أحسستُ بألمها وهي تبكي وترتعش. ليليا، فتاة جزائريّة مسلمة عادت لتشكر إليف بعد أن تخرّجت مهندسة ديكور، قالت وهي تضع باقة الزّهور بالقرب من صورة أبي:

- السيّد إليف أنقذني، كما أنقذ عائلتي، لم تصدّق أمّي أن يصادفها رجل في مثل شهامة السيّد إليف، لقد أنقذنا بشهامة وظلّ يسدّد معلوم كراء شقّتنا في حيّ لو بانير.. كان يتابع أيضًا دراستي ودراسة إخوتي، وعندما التحق أخي بالعمل، حاولت أمّي أن تعيد بعض المبالغ. والدك امتنع بشدّة، أجل، السيّد إليف كان رجلًا عظيمًا.

حين أفتح درج مكتب إليف تطالعني رائحته، كُلّ وثائق أبي الخاصّة في هذا الدّرج، أتأمّل صورتي أوّلًا وأنا طفلة، الصّورة ملتقطة في قصر لونغشامب، متحف الفنون الجميلة الذي أزوره باستمرارٍ. ألتقط مجموعة صور أخرى، أتأمّل الصور الحميمة، صور شيرا وإليف في كاتدرائيّة نوتردام دي لاغارد، وفي كالانك الجميلة التي تقع على امتداد السّاحل بين مارسيليا وكاسيس وفي أمكنة أخرى لا أعرفها. في العادة يخصّص أبي كامل شهر أوت للرّاحة والرّحلات. السّبت وأوت مقدّسان، يقول إليف بكثير من المرح.

قبل رحيل إليف بثلاثة أيّام احتفلنا بشكل حميم بعيد «بوريم»، شيرا أعدّت لنا ليلتها مأدبة باذخة وكان إليف -ولم ألحظ ذلك من قبل- يأكل ويشرب بشراهة. كان سعيدًا كطفل، ونادرًا ما كان يفعل ذلك في أعيادنا. حدّثنا عن علاقته بوالده أدريان، تلك العلاقة التي يحتفظ بها في ذاكرته ولا تمحوها الأيّام، بالغ أيضًا في الشّرب إلى درجة السّكر وبين لحظة وأخرى يرفع كأسه مشرق الوجه ويصيح بحماس طفل: «على صحّتك يا أدريان».

سألتُ شيرا عن عيد «بوريم»، وكنت لا أعلم قصّة الاحتفال بهذا العيد، فسكَتتْ لبعض الوقت، ربّما لتتذكّر وترتّب أفكارها، ثمّ قالت: «عيد بوريم يا هيلين يخلّد ذكرى هامّة من تاريخ اليهود، وهي ذكرى نجاتهم من قرار هامان بإبادتهم. فقد طلب هامان من الملك أسوريوس السّماح له بقتل يهود مملكته، وبالفعل سمح له الملك بذلك واختار هامان يوم السّابع من شهر آذار/ مارس لقتلهم باعتبار هذا اليوم هو يوم وفاة نبيّهم دون أن يعلم أنّه يوم ولادته أيضًا. فلمّا علم موردخاي اليهودي بالخبر استنجد بأستير زوجة الملك الذي لم يكن يعلم أنّ زوجته يهوديّة. وطلبت أستير بعد ذلك أن يصوم اليهود ثلاثة أيّام، ثمّ فكّرت في حيلة أطاحت بالوزير هامان إذ أمر الملك بقتله وهكذا نجا اليهود. ومنذ تلك الحادثة أصبح اليهود يحتفلون بعيد «بوريم» يوم الرّابع عشر من شهر آذار ويصومون اليوم الثّالث عشر منه تعظيمًا للملكة أستير».

في هذه الأيّام المشحونة بالحزن وصلتني رسالة سعد. لم يساورني الشكّ مُطلقًا، في جديّة سعد وصدقه. كتب لي عن مغامرته في حمّام

الذّهب وانتبهت إلى تلك التفاصيل المذهلة. قدّم لي سعد كلّ المعلومات التي أحتاج إليها، وتأكّد عندي بما لا يترك مجالًا للشكّ أنّ أرض حمّام الذّهب، وتحديدًا «بيت السّخون»، كما كتب سعد، تحتوي على كنز ثمين، وهو يتمثّل، بطبيعة الحال، في المجوهرات وسبائك الذّهب التي خبّأها اليهود في تلك الأرض. حدّثني أيضًا عن جلسته المثيرة مع خافا، كم هو صغير هذا العالم! قلت في نفسي وأنا أقرأ كلماته، أيّ قدر قاده إليها! خافا عاشت أغرب قصّة حبّ يمكن أن تعاش بين يهوديّة ويهوديّ في ظروف أقلّ ما يقال عنها إنّها مؤلمة. لا أعلم بالتّحديد ما الذي كان يشغل جوهر عندما صارحته خافا بحبّها في أيّام اغترابها وانكسارها. وخافا رغم الإغراءات ظلّت إلى اليوم محافظة على حبّها المجنون لجوهر، وذلك يعطيني انطباعًا إضافيّا بأنّ الحبّ مسألة معقّدة، لا يمكن تحليلها أو تفسيرها من زوايا علميّة جافّة، وازددت يقينًا بأنّ الحبّ يحافظ على طاقته في أشدّ عواصف الخيبة.

عندما زرتُ القصرين مع سعد كنت أنا أيضًا مجنونة بالرّجل الذي وهبته قلبي، وكنت في أيّامي الأولى أحتاج إلى معرفة سعد، إلى الإصغاء بدقّة أكبر وانتباه أشدّ إلى دقّات قلبه.

خالتي منجيّة، والدة سعد -هكذا كنت أسمّيها في أيّام زيارتي- استقبلتني باندهاش في بادئ الأمر، حرّكت عينيها باتّجاه سعد مستفسرة، وفهمتُ من تلك الإشارات أنّ سعد لم يمهّد لتلك الزّيارة. والحقّ أنّي استحسنت الأمر، أحببت أن أعرف عائلته بشكل عفويّ وبسيط، وهو ما حدث بالفعل. قبّلتني الخالة منجيّة كأنّها

تقبّل امرأة غريبة وظلّت تحدّق في ملامحي التي أثارت انتباهها. نور، شقيقة سعد أخذت تتأمّل تسريحة شعري الطّويل ثمّ قميصي الأبيض المفتوح عند الصّدر وسروال الجينز، وأخيرًا حذائي الأسود. كانت نور نهمة بالفعل وهي تتابعني ولا تسمع كلمات أمّها: «أغلقي باب الدّار يا نور». وكان من الطّبيعي في زيارتي الأولى لعائلة سعد أن أقدّم هدايا، جلبت معي قلادة ذهبيّة من تصميم إليف للخالة منجيّة، وهي من القلائد النّادرة التي نحتفظ بها في المصاغة. أمّا نور وبعد أن دقّقتُ في مسألة مقاساتها مع سعد قبل زيارتي لبيتهم، فقد جلبتُ لها ملابس كثيرة.

ما حصل بعد ذلك أنّي لم أغضب من ردّة فعل الخالة منجيّة حينما أعلمها سعد أنّي يهوديّة من أصل تونسيّ ومقيمة في فرنسا. سعد قال فرنسا ولم يقل مارسيليا، وهو يعرف أنّ منجيّة لا تعرف مارسيليا.

قالت الخالة منجيّة منكمشة الوجه:

- يهوديّة؟.. يهوديّة يا فرخ الحرام؟.. يعني كافرة؟..

انفجرنا، أنا وسعد ضاحكين، كلمات الخالة لم تلهب وجهي ولم تزعجني، وفي الواقع انتظرت أن يحصل ذلك، بشكلٍ عفويّ. بعد ذلك، حرّك سعد أطرافه وسارع إلى التّوضيح:

- اليهوديّ مثلنا يا منجيّة، واليهود من أهل الكتاب وليسوا كفّارًا.. وهم يصلّون ويصومون، ولهم دينهم كما لنا ديننا.

مسح سعد العرق من جبينه وتابع:

- الرّسول عليه الصّلاة والسّلام حينما ذهب إلى المدينة أوّل ما

فعل هو أنّه عقد اتّفاقًا مع اليهود، وأبرم معهم معاهدة تكافل وتناصر، تكافل في السّلم وتناصر في الحرب.

لا أعتقد أنّ الخالة فهمت في تلك الآونة شيئًا ممّا قاله سعد، وهي لا تفهم أصلًا التّكافل والتّناصر. وفي مقابل ذلك استحسنتْ ذكر سعد للرّسول، أراحها قليلًا كما بدا من تقاسيم وجهها. ومع ذلك ظلّت نظراتها متوجّسة وحذرة منّي، تململت على الكنبة مقطّبة جبينها ثمّ قالت:

-أبوك يا سعد كان يكره الصّهاينة، وأنت تعرف ذلك، ماذا سيقول الجيران عنّا عندما...؟

قاطعها سعد ضاحكا:

-يا منجيّة، معك حقّ، أفكارنا كلّها خاطئة، هناك فرق بين اليهوديّة كدِينٍ، وهي أقدم الديانات، والصّهيونيّة.. الصّهيونيّة حركة سياسيّة متعصّبة هدفها إقامة دولة يهوديّة في فلسطين.. وهيلين ليست بطبيعة الحال صهيونيّة.. وعائلتها تربّت في تونس قبل أن تهاجر إلى فرنسا، هل فهمت يا منجيّة؟.. لقد جفّ ريقي، وإبراهيم، هل نسيت يا منجيّة؟ كان يفرّق بين اليهود والصّهاينة.

رغم توضيحات سعد ظلّت الخالة مندهشة، ولا أظنّ أنّها فهمت شيئًا ممّا قال، إضافة إلى ذلك هي لم تنتظر بتاتًا -هكذا اعتقدت- أن تصادفها امرأة يهوديّة. أمّا وقد دخلت تلك المرأة مع ابنها الوحيد إلى بيتها فالأمر يُصبح مقلقًا حقًّا، بل هو في غاية الإرباك. وفي الواقع،

حصل لي هذا الموقف كثيرًا في الكليّة وأثناء رحلاتي على متن الباخرة. فذات مرّة، وأنا في رحلة العودة إلى مارسيليا، هربت منّي امرأة كانت تحاورني في مسألة تربية الأبناء. في اللّحظة التي عرفت فيها أنّي يهوديّة أصابتها حالة من الذّعر وذابت من أمامي. أنا أفهم هذه الكراهيّة بسبب الفهم الخاطئ الذي يروّج بسوء نيّة، وهو في كلّ الأحوال لا يؤثّر على معنويّاتي. في تلك المواقف كنت أبتسم ثمّ أنسى بسرعة، فتاريخنا كما عرفتُ وقرأت هو تاريخ الظّلم والمفاهيم الخاطئة، وكان علينا أن نصبر ونقاوم ونصحّح المفاهيم.

استوعبت كلّ المخاوف والهواجس التي عذّبت الخالة منجيّة في تلك المقابلة الأولى. «فرخ الحرام»، هذا التّوصيف الذي استعملته وضّح لي في ذلك الوقت احتجاجها على ابنها الذي أحبّ يهوديّة وترك بنات الجيران المسلمات، الجميلات ذوات العيون الواسعة والأرداف الطريّة. وخلال النّصف الثاني من شهر مارس، سنة 1991 بالتّحديد استطعتُ بكثير من الصّبر أن أغيّر كلّ مفاهيم الخالة منجيّة.

ماذا اعتقدت الخالة وماذا دار في رأسها في اللّيلة الأولى؟ لم تخصّص لي غرفة، وثمّة بالفعل غرفة شاغرة، كذلك لم تسألني عن أيّ شيء، ما انتبهت إليه هو أنّها كانت منشغلة بترتيب غرفة سعد، هكذا قالت نور، «تلك غرفة سعد». كنت أتابعها وهي تنظّف الغرفة وتغيّر الملاحف وتسدل السّتائر ثمّ تغلق الباب. بعد ذلك حرصت على مساعدة الخالة منجيّة في المطبخ، هي أعدّت طبق روز باللّحم، وأوصاها سعد بألّا تكثر من وضع الفلافل، وأعددت أنا طبقًا فيه

سلَطات ولم أنسَ عجّتي التي أعشقها، وهي لا تعجب سعد لأنّها ليست حارّة. أثناء العشاء أحضر سعد قارورة نبيذ، ووضع على الطّاولة كأسين، فعل ذلك وسط دهشة منجيّة واحمرار وجه نور. سعد في العادة لا يشرب النّبيذ أثناء الأكل، ولا يشربه أيضًا بشكل علنيّ في البيت. الخالة تابعت جنون ابنها بكثير من التجلّد والصّبر. كان سعد، وهو يشرع في أكل السّلطة، يرسل ضحكات نحو أمّه ويمرّر يده على شعر نور ليخفّف عنها الحرج.

قال بمرح وهو يصبّ النّبيذ في الكأسين:

-أين كأسك يا منجيّة؟.. أحبّ أن نشرب على نخب هيلين.

- «هذا إلّي ناقصني.»

قالت الخالة والعرق يتصبّب من جبينها ثمّ تابعت:

-الخمرة حرام.

ثمّ التفتت إليّ سائلة:

-طيّب، والخمرة أليست حرامًا في دينكم؟

قلت بكثير من التّبسيط وأنا لا أرفع عينيّ في عينيها:

-الخمرة عندنا، مثل القمح والزّيت، جزء من غذائنا اليومي.. ثمّ هي عنصر بهجة وفرح في حياتنا، ونحن نشربها باعتدال أثناء الأكل، وقد نكتفي بكأس أو ثلاثة على الأكثر. وبطبيعة الحال، لا نسكر يا خالتي عندما نشرب، ثمّ إنّنا لا نشرب النّبيذ أثناء الدّراسة والعمل.

الأكيد أنّها تساءلت خلال تلك اللّحظة في سرّها: «من أين طلعت لي هذه الجنيّة؟» ظلّت مقطّبة أثناء الأكل، وأحيانًا ترسم ابتسامات خاطفة باتّجاه نور التي لم تتوقّف عن الضّحك خفية. ضحكت من كلام سعد ومن حركاته الجديدة. ضحكتُ أيضًا وأنا أرفع كأسي نحو سعد. كانت نظراتها مندهشة وزاد اندهاشها عندما ملت إليها وهمست في أذنها: «سأشاركك الفراش لمدّة نصف شهر، إن لم تطردني الخالة منجيّة قبل ذلك»، فأطلقتْ ضحكةً مفاجئة أثارت دهشة الخالة، ثمّ مالت إليّ هامسة: «أمّي قلبها أبيض، وهي فقط في حالة صدمة، وغدًا، أؤكّد لك، ستستفيق وتعانقك بحرارة.. أنا أعرف منجيّة».

الحقّ أنّ الخالة منجيّة كانت مهتمّة بي كثيرًا، تقرّب منّي صحن الرّوز السّاخن، وعندما تلاحظ أنّي آكل ببطء، تزمّ شفتيها ثمّ تغمز ابنها. فيحثّني سعد بحركة آليّة على الأكل خاصّة من صحن روز منجيّة الذي لا تنافسها امرأة فرشيشيّة في طبخه. ويعدّد في الأثناء الأكلات التي تجيدها منجيّة، مثل الكسكس والمطبّقة القصرينيّة، يقول سعد، ولا يشرح لي ما معنى المطبّقة، ثمّ يضيف: «وخاصّة عندما تُؤكل ساخنة من يد منجيّة». في الحقيقة، أحسست بحرج، بسبب هذا الإلحاح على الأكل، طبعًا، عادة الأكل عندنا ترتبط بالسّعادة، والضّغوط غالبا ما تفسد المزاج، لذلك كان عليّ أن أشرح مسألة عاداتنا في الأكل..

قلت للخالة منجيّة، وهي لا تتوقّف عن متابعة كلّ حركاتي:

-نحن في العادة يا خالتي لا نبالغ في الأكل أثناء اللّيل، وإن

أكلنا فإنّنا نأكل ببطء كأنّنا في حالة خشوع.

تناولتُ جرعةً من كأس النّبيذ وتابعت:

- أمّا عشاء أمسية السّبت عندنا، وهي اللّيلة الفاصلة بين الجمعة والسّبت فهي استثنائيّة. أذكر أنّه بعد عودة أبي من الصّلاة في الكنيس، كنّا نجتمع معه، أنا وأمّي، على وجبة احتفاليّة احتفاءً بيوم الرّاحة المقدّس.. تبدأ وجبتنا يا خالتي بتقديس الخمر مرورًا بطلب البركة على الخبز. والخبز عندنا يرمز إلى العمل الشّاق طيلة أسبوع كامل، ثمّ نستمرّ في تناول أطعمتنا الشهيّة بطمأنينة وراحة بال.

تابعتني الخالة منجيّة وهي تتململ وكنت أعرف أنّها لن تفهم شيئًا من كلامي. وعندما يئستْ منّي انهمكت في الأكل وبين لحظة وأخرى تلحّ على سعد أن ينهي صحن الرّوز، «إبراهيم كان لا يترك حبّة واحدة في قاع الصّحن يا سعد»، تقول متحسّرة.

الأمر الذي أدهش خالتي منجيّة أكثر، وجعلها واجمة، هو أنّني بعد انتهائنا من الأكل شرعت في حمل الصّحون والأطباق والملاعق والسكاكين إلى المطبخ وأنا أهتف:

- أمّا غسل المواعين فهي مهمّتي.. من فضلك يا خالتي، أعدّي لنا كأس شاي أخضر منعنع.

رفضتُ أيضًا أن تساعدني نور. سعد أرخى رأسه إلى الوراء وهو يتابعني، أشعل سيجارة، وأشعل أخرى ومرّرها لي. أنا لا أبالغ في التّدخين، لا بأس، سيجارة واحدة بعد وجبة العشاء لا تضرّ، لتعديل

المزاج ليس أكثر. فعلًا، أحبّ غسل المواعين، ومع شيرا أفعل الشّيء نفسه، أمنعها من دخول المطبخ بعد الانتهاء من وجبتنا. الماء يجعلني منشرحة، أشعر وأنا أغسل المواعين ببهجة مثيرة، وأعود بعد ذلك إلى مزاجٍ رائقٍ وراحةٍ نفسيّة عميقة.

في غرفة نور كانت ليلتي الأولى بالحيّ الخلفي ليلةً عجيبة، ربّما لم تصادفني في الأفلام ولا في الحكايات. ليلتها لم أستطع النّوم، ولا استطاعت نور أن تغفو أيضًا، استمعنا أوّلًا إلى صراخ امرأة، ثمّ تناهت إلينا جلبة بسبب شجار بين مجموعتين، علا صراخ المرأة وهي تتلقّى صفعات، وميّزت في الأثناء أصوات هراوات وسكاكين وشتائم وصراخ وتهديد ووعيد ولهاث وهمهمات وقهقهات وشخير وحجر يتساقط على النوافذ والأبواب. انكمشت نور بجواري، وأحسست بأنفاسها الحارقة، وهي ترتعش من الخوف. ثمّ قالت وهي تشدّ اللّحاف إلى أعلى صدرها:

-الحياة في حيّنا جحيم لا يُطاق، بل هي كابوس، أنا لا أعرف أبي بالشّكل الكافي، مات وأنا طفلة أحبو، وأمّي حدّثتني عنه. لا أحد كان يتجرّأ على الاقتراب منّا عندما كان أبي في المنزل، الجميع يهابونه هنا، وبعد موته وسفر سعد إلى العاصمة أصبح إحساسنا بالخوف كبيرًا. منجيّة سليطة اللّسان، وهذا لا يكفي في هذا الحيّ، لابدّ من وجود رجل يهابونه ويخافون منه.

لا يمكن أن تصدّقي ما يحصل هنا يا هيلين، -كانت نبرتها حزينة، لذلك مسكتها في الأثناء من كتفها في لمسةٍ مُشجّعة وأنا أتخيّل عينيها الدامعتين- كلّ شيء هنا قادمٌ من رحم اليأس

وكلّ ما ينتجه اليأس موجود هنا، في هذا الحيّ. المخدّرات، بيع الخمر خلسة، السطو، والمتاجرة بالبشر وغيرها وغيرها من الأصوات التي تستمعين إليها الآن. وقد تعوّد الناس هنا على كلّ ذلك حتّى أدمنوه. وأنا أريد أن أنجح في امتحان الباكالوريا حتّى أتخلّص من هذا الكابوس. في السنة الماضية شرح لنا أستاذ العربيّة مقطعًا من روايةٍ لكاتبٍ عربيّ نسيتُ اسمه يتحدّث عن التعوّد وقد حفظته عن ظهر قلبٍ لأنّه يعبّر بدقّة عن حالنا، في هذا المقطع يخاطب الابن أباه ويفسّر له معنى التعوّد: «هل تعرف ماذا تعلّمنا يا أبي؟ حين نشمّ رائحةً تُضايقنا فإنّ جملتنا العصبيّة كلّها تتنبّه وتعبّر عن ضيقها. وبعد حين من البقاء مع الرائحة يخفّ الضيق. أتعرف معنى ذلك؟ معناه أنّ هناك شعيرات حسّاسة في مجرى الشمّ قد ماتت فلم تعد تتحسّس. وبذلك لم تعد تنبّه الجملة العصبيّة. والأمر ذاته في السمع. حين تمرّ في سوق النحّاسين فإنّ الضجّة تُثير أعصابك. لو أقمتَ هناك لتعوّدتَ مثلما يتعوّد المقيمون والنحّاسون أنفسهم، والسببُ نفسه وهو أنّ الشعيرات الحسّاسة والأعصاب الحسّاسة في الأذن قد ماتت. نحن لا نتعوّد يا أبي إلاّ إذا مات شيء فينا. تصوّر حجم ما مات فينا حتّى تعوّدنا على كلّ ما يجري حولنا.» ولك أن تتصوّري عزيزتي هيلين حجم ما مات في قلوب أغلب الناس هنا، عندما يهجم الفقر واليأس على قلب إنسان فإنّه يكنس منه كلّ إحساس بالرحمة. في الكثير من البيوت هنا يكتبون بالفحم

على الجدران المشقّقة كلماتٍ هي في الحقيقة إشارات لما يحدث في الدّاخل. فكلمة للكراء تعني بيع الخمرة خلسة وكلمة للبيع تعني بيع الخمرة والنّساء معًا، والرّجل في هذه الحالة، يمكن أن يتاجر بزوجته وابنته أمام عينيه الملفّعتين بالعار..
-أشهق في تلك اللّحظة وأحضن نور بذراعين مفزوعتين- هنا لا يتجرّأ الغرباء على التوغّل في الأزقّة الخلفيّة، وإن فعلوا ذلك في غفلةٍ أو في حالة سهو يتعرّضون إلى «براكاجات» مُهينة. سيّارات «الحاكم» لا تغامر بالدّخول إلى تلك الأزقّة ليلًا، فكثيرًا ما سمعنا بحرق تلك السيّارات، «الحاكم» هو سبب فقرنا وعارنا، يسقينا السمّ كلّ يوم ثم يقول لنا: «موتوا بغيظكم، أنتم لستم سوى حيوانات».. هذا هو حاكمنا يا هيلين.

سعلت نور وهي ترتعش، تحسّستُ قارورة الماء بجانبي ووضعتها في يدها، فتجرّعت من القارورة لاهثةً ثمّ تابعت:

-لا أدري ما أقول لك يا هيلين، لكن عديني ألّا تخبري سعد بشيء. يكفي ما يعانيه هناك، في تونس.

-تحدّثي يا عزيزتي، فلا أحد غيري سيعلم بذلك، ولا حتّى سعد.

عندها أحسست أنّ نور قد تخلّصت من حالة الانقباض التي كانت طاغية عليها، مسكت يدي بتودّدٍ واسترسلت تقول:

-أنا في الغالب، لا أدرس السّاعة المسائيّة الأخيرة، مثل فتيات كثيرات، نحن نخاف من الظّلام هنا. وذات مساء اضطررت

إلى دراسة تلك السّاعة المخيفة في الشّتاء، اضطررت إلى ذلك بسبب الامتحان.. في اللّحظة التي تجاوزت فيها سكّة الحديد أثناء عودتي، انتبهت إلى رجلين يتبعانني، كنت أحسّ بهما مثل غرابيْن، وكنت أسمع نعيقهما ورائي وأُسرع. ومن سوء حظّي أنّ الطريق كانت مقفرة في ذلك الوقت بسبب الأمطار. وما إن وصلت إلى المستوصف حتى انقضّ عليّ الغرابان بمنتهى الوحشيّة، كمّم أحدُهما فمي، وجهه كان قبيحًا تعلوه ندبة بارزة، الآخر كان عصبيًّا وهو يحشرني في شاحنة التحقت بهما.

قادني النّذلان إلى منزل مهجور مزدحم بالأبقار والمواشي، ثمّ سارا بي نحو غرفة مزدحمة هي أيضًا بالكراتين والسّلع. في تلك الآونة تجاوزت شعوري بالخوف، وكذلك شعوري بالتقزّز، وعرفت أنّي سأموت، إن حاولا لمسي سأموت بأيّ طريقة، هكذا فكّرت، وذاك كان قراري منذ لحظة اختطافي. سمعت صوت امرأة بالخارج: «الصّيد ثمين هذه المرّة، تمتّع يا البرني ثمّ سلّمها لي». دخل الوحش بعد ذلك لاهثًا، اخترقتني نظراته وأنفاسه. لا أدري كيف حصل ما حصل، ربّما هي القدرة الإلهيّة، حينما رفعت عينيّ إلى السماء سمعت صوت رجل في الخارج: «اتركها يا حيوان، اتركها وإلّا رشقت الموسى في بطنك، تلك ابنة إبراهيم، أنسيتم إبراهيم؟».. لم أصدّق ليلتها أنّي عدت إلى منزلنا، لم أصدّق بالفعل، وعندما سألتني أمّي عن ميدعتي الممزّقة، قلت لها وأنا أحاول ما أمكن إخفاء فزعي: «لقد داهمني أحد الكلاب قريبًا من المستوصف، والحمد لله يا

أمّي، لم يعضّني الكلب».. ومنذ ذلك اليوم أصبحت منجيّة تصرّ على انتظاري قرب سكّة الحديد كلّ مساء.

صمتت نور وحاولت استعادة هدوئها وتوازنها، توقّفت عن النّشيج أيضًا، دموعها كانت ساخنة وهي تسقط على كتفي، رفعت رأسها قليلًا وتابعت:

- ما أحلم به حقًّا يا هيلين، هو بطبيعة الحال حلم، ولكنّه كلّ ما أملك، ما أحلم به هو أن أنهي دراستي وأغادر هذا الحيّ، أجل، لا بدّ أن أرحل عن خندق الفقر والعار. منجيّة أيضًا لا بدّ أن ترحل، لا أدري، لا أدري لماذا حدّثتك عن كلّ هذا؟ لست خجولة من أيّ شيء، وقد حرّرني حديثي معك من الخوف. لمّا دخلت إلى منزلنا رأيت في عينيك وميض امراة مختلفة، وفعلًا كان إحساسي غريبًا وأنا أعانقك بحرارة، أنا لم أعانق سعد مثلما عانقتك يا هيلين.

قلت لنور وأنا أضمّها بمنتهى الحبّ:

-عديني أوّلًا يا نور أنّك ستنجحين بتفوّق في الباكالوريا، وبعد ذلك سيكون لنا حديث آخر، وسأرتّب مع سعد مسألة دراستك في مارسيليا.

[للأسف، بعد ذلك انقطعت نور عن الدّراسة وتزوّجت تاجرًا من مدينة صفاقس، هكذا حدّثني سعد وأنا أسأله عن نور.. لم تستطع أن تحقّق حلمها بأن تكون طبيبة في يوم من الأيّام، لكنّها استطاعت أن تغادر حيّ الزّهور، وكان سعد سعيدًا بهذا الزّواج، وفهمت بطبيعة الحال سبب سعادته].

في الفجر، خمدت تلك الأصوات تمامًا ونهضت أصوات أخرى، أصوات النّساء العاملات في معمل عجين الحلفاء والورق -أخبرتني نور بذلك متثائبة- وتناهي إليّ صدى وقع أقدامهنّ الحزينة وهي تركض في الإسفلت المهترئ.

في صباح يومي الثّاني في حيّ الزّهور دعتني الخالة منجيّة إلى غرفتها المعطّرة برائحة البخور، قالت لي وهي تجلسني أمامها: «ستعرفين ضيافة منجيّة على قاعدة يا هيلانة». وراحت الخالة منجيّة بحركات رشيقة تزيل الشّعر من وجهي ثمّ كامل جسدي بمادّة لزجة عرفت منها أنّها خليط من السكّر واللّيمون. ظلّت حركات الخالة متتابعة، تلاحق كامل بقع الشّعر، وبين لحظةٍ وأخرى تترشّف من فنجان قهوتها وأُذُنها على النّافذة، تعلّق على صيحات جارتها التي تأتيها من الخارج، «اسمها سعديّة» قالت، «لا يسلم منها الحيّ ولا الميّت». «المتعوس متعوس حتّى لو علّقولو في رقبتو فانوس»، قالت ذلك رافعة صوتها باتّجاه النّافذة، وسمعت سعديّة تردّ: «بعد السّيف علّق منجل»، في تلك اللّحظة تهمس الخالة في أذني: «المتعوسة انتشلها زوجها بلقاسم من القمامة، هي لا تتوب، لفعة، تفتح ساقيها لكلّ من هبّ ودبّ». أضحكتني كلمات الخالة وطبعًا فهمت أيضًا أنّ سعديّة كانت تعنيني أنا بكلمة منجل. ظلّت تبحلق في وجهي ووجه سعد ونحن ننزل من سيّارة التّاكسي ونسير أمام باب بيتها، وقفت متراخية بفستانها القصير، رأسها ملفوف بمنديل أحمر، لبثت بنظراتها الشّبقة تمصّ إصبعها وتهمهم بكلمات لم أفهمها، وسعد يمرّ من أمامها غير مكترث.

قالت الخالة منجيّة وهي تُنهي حركاتها الرّشيقة في جسمي:

- دعينا من المتعوسة، لا يأتيني منها إلّا وجع الرّأس. إزالة الشّعر ليست عمليّة سهلة يا هيلانة -الخالة منجيّة ظلّت تناديني هيلانة طيلة أيّام الزّيارة- أنا أشقى كثيرًا ولا أحد يتقن التّنقية غيري، كذلك رسم الحنّاء والحرقوس، وورثت كلّ ذلك عن أمّي فضّة، كنت أرافقها إلى الأعراس وجلسات النّساء في الأحياء الرّاقية إلى أن تعلّمت الصّنعة. وبعد موت إبراهيم عدتُ إلى صنعة أمّي لأربّي سعد ونور حتّى كبُرا، «وإلّلي ما خلّاولو جدودو تتهرّى جلودو»، وكنت يا ابنتي أحصل على لقمة العيش بفضل السكّر واللّيمون والحنّة والحرقوس.

في المساء ذهبنا إلى حمّام الدّولاب، رائحة البخور كانت تعبق في البهو والقاعة الكبيرة التي فُرشت بالحصائر والوسائد. أوصت الخالة حارزة الحمّام، واسمها نجمة، بأن تعتني بي. غمزتها بطرف عينها ثمّ عادت إلى القاعة الكبيرة. استمتعتُ فعلًا بالبخار السّاخن الذي لا يشبه بخار حمّام الحريم، «بخار حمّامكم مثل ريش النّعام»، قال سعد وأنا أحكّ ظهره في حمّام صديقتنا المغربيّة. بعد ذلك استرخيت على الدكّة وظلّت نجمة تفرك لحمي وتدلكه بكامل جهدها. عشت ذلك الإحساس فعلًا في حمّام النّاعورة بتونس، ومع نجمة كانت متعتي أكبر، حركاتها على جسدي في غاية الرقّة والتّراخي، لا تسرع مثل حارزة حمّام النّاعورة، ولا تترك لي بقعًا حمراء. حركات يدها مثل المناجاة تمامًا، نزعت عنّي الانقباض الذي شملني في اللّيل ومنع عنّي النّوم. وفي الأثناء كنت مذهولة بثرثرة النّساء وسط البخار، لا

أرى ملامحهنّ وهنّ يتحدّثن ويقهقهن، ولا يرينني هنّ أيضًا، فقط، تتراءى لي النّهود المتململة، أغلبها متراخية مثل ارتخاء البطون. لم أرَ النّهود الصّغيرة والبارزة التي تعلق بالبخار، في ذلك الوقت. أعتقد أنّ أغلب من بالحمّام متزوّجات. وصلتني همسات منتشية ومهتاجة: «الماء حرقني في الأسفل، صبّي لي قليلًا من مائك البارد.. أنا مشتعلة منذ البارحة، المجنون، لن يتركني اللّيلة».. أضحكتني تلك الهمسات وأثارتني. نجمة كانت تضحك مع ضحكي وتغمزني. أعتقد أنّ أسرار النّساء كلّها عند نجمة، تغلق عليها بالمفتاح، ولا تفتح مغارة الأسرار لأحد. ما أثار انتباهي حقًّا هو ولعهنّ بترديد كلمات ذات إيحاءات جنسيّة، ويحلو لهنّ أن يتنافسن في الاستمتاع بذلك، يتحدّثن بكلّ حميميّة عن عضو الرّجل، وعن الجنس، وعن مغامراتهنّ، وبين حين وآخر يحدث تلاسن بين امرأتين حول سطلِ ماءٍ أو حول قبقابٍ اختفى فجأةً. ويتطوّر الأمر إلى شجار، لكنّه شجار خفيف سرعان ما يذوب وسط البخار. كنت مستمتعة فعلًا ومذهولة، لأوّل مرّة أعرف تلك العوالم، عوالم متعة النّساء.

وبعد عودتنا من الحمّام لم تتركني الخالة منجيّة، استأنفت شغلها معي، رسمت الحنّاء في يديّ وقدميّ ونقشت أشكالًا رائعة في كفَّيّ ورقبتي. وجهي احمرّ بشكلٍ لافتٍ بعد الحمّام، وازداد احمرارًا بعد لمسات الخالة. حتّى نور لبثت تحدّق في وجهي كأنّها لا تعرفني. بقيت ذلك المساء في غرفة الخالة مخدّرة بروائح الحنّاء والحرقوس والكحل، وحينما عاد سعد من جولته المسائيّة في وادي الدّرب صرخ مذهولاً:

-كنت أعرف أنّ منجيّة ستفعلها معك، إنّك غجريّة رائعة،

رائعة جدًّا يا هيلين.

صاحت منجيّة:

-وهل تشكّ في قدرات أمّك يا فرخ الحرام؟

عرفت وأنا أضحك أنّ فرخ الحرام ليست شتيمة، بل مجرّد عبارة تقولها منجيّة بكلّ عفويّة. وقد كان سعد يشاكسها باستمرار ويدفعها إلى النّطق بها، وحين يسمع ذلك التّوصيف يظلّ يقهقة إلى أن تترقرق عيناه بالدّموع.

مضت الأيّام سريعة في ضيافة الخالة منجيّة. في أغلب الأوقات أنشغل بالقراءة أو الدّخول إلى المطبخ. الخالة تستقبل النّساء في غرفتها وتنهمك في شغلها. أسمع صدى الضّحكات، وأنا أجلس في الصالون. تضحك نور هي أيضًا عندما تنتبه إلى كلمات تفوح منها رائحة الجنس. وأغلب كلمات الخالة من ذاك النّوع، تنتقيها بدقّة، وهي تتعمّد ترك باب الغرفة مفتوحًا لتمرّر إسطوانتها إلى نور وإليّ بطبيعة الحال. الفتيات المقبلات على الزّواج يضحكن ويستسلمن للمسات منجيّة، ولا تنسى بطبيعة الحال أن تسرد عليهنّ حكايات ليلة الدّخلة، وتصلني نصائحها الغريبة: «لا تدعيه يفتح ساقيك من أوّل لحظة، انشغلي بأيّ شيء واجعليه يلهث كالكلب. إذا نزع كلسونك من أوّل لمسة فيا خيبة المسعى، سيظنّ بك الظّنون، سيشتغل دماغه ويقول إنّك متعوّدة على نزعه. دعيه يعرق ويمطرك بالكلام المعسول. بعد أن ترتخي عيناك اتركيه يُخرج دمك الأحمر القاني، الرّجال لا يهمّهم إلّا ذلك الدمّ. وبعد أن تلعلع الزّغاريد في البيت لا تدعيه يقترب منك مرّة ثانية، اجعليه يشتاق ويجوع، جوّع كلبك

يتبعك يا كبدي، هكذا تسير الأمور. المهمّ، لا تنسي، ولا تتعجّلي على شيء، «مقصوفة الرّقبة» شادية بنت الكنزاري، عادت إلى بيتهم ليلة الدّخلة بعد أن اكتشف المغبون عيبها، كاد يذبحها ليلتها وهرّبتها أمّها وهي تجرّ فضيحتها معها».

وحين يعود سعد إلى البيت تتبخّر الضّحكات في الغرفة القريبة من الصّالون ويتوقّف الكلام المخدّر، ثمّ تستأنف الخالة: «الرّجل لا يعيبه شيء يا بنتي، اسمعي منّي وتعلّمي، خالتك منجيّة لم تُغضب عمّك إبراهيم يومًا.. يا بنتي يقوّي سعدك بجاه سيدي صالح الغضباني فتّاح الأبواب، وإلّي تربّات على يد الرّجال ما يغرّها لا زين لا مال».

وكان سعد يغادرنا بعد أن يتناول الغداء، يشرب كأس الشّاي الأخضر ثمّ يلوّح لي بيده ويغلق الباب. كنت أعرف أنّه يمضي كامل الوقت في وادي الدّرب، هذا الوادي العجيب الذي حدّثني عنه طويلا. «وادي الدّرب قطعةٌ من حياتي يا هيلين، وفيه أشتمّ رائحة أبي»، يقول لي بحماس. ذات مساء، ولا أدري كيف تجرّأت؟ تتبّعت خطوات سعد، لم تكن المسافة قصيرة بطبيعة الحال وكنت أمشي خلفه على مسافة لا تسمح له برؤيتي. عندما وصل إلى الوادي، تسلّل داخل كهف وغاب هناك، اختبأت خلف إحدى الصّخور وحبست أنفاسي وأنا أتطلّع إلى ما سيفعله.

كانت الحفر كثيرة في الجدار الصّخريّ، مع وجود إشارات ورموز، لم أستطع التّدقيق فيها، فقط ظهرت لي خطوط بالطّول والعرض. ظلّ سعد ينبش بيده ثمّ يتناول ملعقة صغيرة ويزيح

الأتربة من الحفرة داخل الجدار الصّخري. إثر ذلك تجاوز القشرة الصّخريّة ووصل إلى التّراب الرّخو. وبين فينة وأخرى يتناول فأسًا صغيرة ويوسّع الحفرة، ثمّ يمدّ عنقه ويشعل الكشّاف الضّوئي ويوجّهه نحو الجوف الذي بدأ يتّسع. سال العرق على جبينه وكامل وجهه وهو ينبش بلا توقّف. وبعد دقائق مرّر يديه إلى داخل الحفرة وسحب إبريقًا زجاجيًّا، في تلك اللّحظة جلس على حجر بجانبه وأشعل سيجارة. حدست أنّه سيغادر الكهف بعد أن يرمي بعقب السّيجارة فحثثتُ الخطى واختبأت خلف إحدى الأشجار. وبعد فترة من الزّمن خرج سعد من الكهف وهو يحمل كيسًا أسود وسار باتّجاه شجرة التّوت، توتة إبراهيم التي حدّثني عنها. شرع يحفر في بقعة قريبة من التّوتة ثمّ أخفى الكيس هناك، بعد ذلك تمدّد على ظهره وشبك يديه خلف رأسه ثمّ وضع رجلًا على رجل وظلّ يتأمّل أغصان توتة إبراهيم.

أكتب لك يا سعد كلّ هذه التّفاصيل لتعرف حجم حبّي لك، لتعرف حجم الجنون الذي شملني وأنا أعشقك. قد أكون مخطئة، وقد أكون متسرّعة كما قالت لي شيرا، لكن ما أؤكّده لك أنّ زيارتي تلك إلى حيّ الزّهور كانت حاسمة، عشت حالات من الخوف والقلق، وفي مقابل ذلك عرفت طمأنينة لم أعرفها من قبل، أحسست بها في وجهَي منجيّة ونور، وفي وجه المرأة المسنّة التي كانت تتكوّر على الأرض لتبيع الخضر، وفي وجوه العراة والحفاة وكلّ الفقراء. أجل، كنتُ حزينةً من أجلهم وسجّلتُ مشاهد عديدة في مفكّرتي. في بعض اللّيالي، تسألني نور: «لماذا أنت ساهمة يا هيلين؟ من أغضبك؟ منجيّة

أم سعد؟» وهي لا تعرف أنّي كنت أستعيد تلك الوجوه المقهورة التي اعترضتني. تلمّست في تلك التّقاسيم المتغضّنة حجم الجرائم التي ارتكبها النّظام في حقّ شعبه. لا تخجل ممّا رأيتُه وسمعته يا سعد، أهلك هم أهلي، النّاس هناك طيّبون، لكنّهم ملدوغون وجائعون، والجوع وحش لو تدري، الجوع كافر يا سعد.

أنا لم أفعل بطبيعة الحال ما فعلته الجازية، فالجازية الهلاليّة تركت زوجها من أجل قبيلتها وأنا تركت قبيلتي من أجلك أيّها المجنون. ولم يساورني الشكّ، في أيّ لحظة، أنّنا يمكن أن نفترق. أجل، ما بيننا ليس لعبة قدر فقط، ما بيننا نبشناه في الصّخر بأظفارنا، لذلك سأظلّ أكتب إليك يا فرخ الحرام حتّى نلتقي وتظلّلنا توتة إبراهيم.

(9)
صبّاط الدّزيري
4 ديسمبر 2010

استفقتُ على صدى جلبةٍ في أوّل النّهج. فتحتُ عينيّ وتطلّعتُ إلى السّاعة الحائطيّة، السّادسة صباحًا. اقترب صريرُ عجلاتِ عربةٍ مجرورة وتضخّم، تسلّلتُ متثاقلًا من السّرير ورحتُ أتلصّص من ثقوب النّافذة. طالعتني صلعة صالح وهو يقود عربته بيده اليسرى في زهو وفي يده اليمنى سيجارة الكريستال غير مكترث بما أثارته عربته من ضجيج. عاد أخيرًا، قلت في نفسي، لقد سوّى خلافه مع نعيمة دون شكّ. كنت أعرف، لن يهنأ لها بال إلّا بعودة صالح، وستكون بطبيعة الحال عودةً مشروطة، الحنان والرّعاية مقابل الكفّ النّهائيّ عن الشّغب مع نساء الوكالة، ومن يدري، مع الوقت، وبالتّدريج سيقتنع صالح بالزّواج، الحلال بعد الحرام. الأمر سيكون ضربة حظّ لنعيمة، بل هي معجزة تغادر على إثرها العنوسة وتترك تلك السّنوات العجاف التي أكلت أنوثتها. ثمّ ماذا يطلب صالح أكثر من زوجة صالحة وشقّة مريحة؟ ونعيمة ستكون صالحة بعد الحرام، وشقّتها ستكون شقّة صالح، ستُغيض جاراتها، بلا ريب، وستتمايل فوق كعبها العالي وتُولول فرَحًا بالغنيمة.

انتبهت إلى أنّ نسيمة فتحت نافذتها، سمعتُ تأوّهاتها، سترشق نظراتها هي أيضًا في صلعة صالح. لم تكن غاضبة، على ما أعتقد، فلو كانت كذلك لصرخت في وجهه وأمطرته بكلماتها الدّاعرة الناريّة التي تنقذف ككرة من فمها وتظلّ تكبر وتكبر إلى أن تبتلع كلّ النّوافذ. نسيمة مثل منجيّة، لا تعرف إلاّ القصف المبتذل، «أرض أرض» كما يقول صالح.

بعد دقائق حلّ ركب نعيمة، سارت باتّجاه صالح في فستانها الأخضر ذي الخطوط الحمراء وحذائها الأبيض..

- صباح الخير يا وجه الخير.

- صباحك دقلة وحليب يا نعيمة، يا وجه السّعد.

- كنت أنتظرك منذ أذان الفجر، لماذا تأخّرت؟

- العربة يا نعيمة، العربة يلزمها مال لإصلاحها.

- سنصلحها يا صالح، وسنصلح معها كلّ شيء.

إثر ذلك ذاب صالح مع نعيمة داخل الوكالة، واستمعت إلى همهمات نسيمة في الأثناء، صالح سيقفز إلى شقّة نعيمة ليتناول الملاوي من يدها اللّاهبة وستغطس عيناه في صحن العسل وزيت الزّيتون. نعيمة ستضع صالح هذه المرّة في فتحة فستانها عند الصّدر ولن تسمح لنسيمة بركوب ظهرها ولا ظهر صالح بطبيعة الحال.

عندما غادرتُ الشقّة ونزلتُ من السلّم اعترضني صالح وهو منهمك في ترصيف الأكياس البلاستيكيّة المتعفّنة على العربة، وبين

فينةٍ وأخرى ينفض معطفه بعصبيّة، وما إن لمحني حتّى استدار نحوي:

- والله عيب يا خويا سعد، العربة لن تتحمّل هذه الأكوام.

- الصّبر طيّب يا صالح، ومع الوقت ستتغيّر الأمور.

- صبر ماذا يا طيّب؟ إن تحمّلت العربة اليوم فإنّها لن تتحمّل غدًا.

- فعلاً يا صالح، لا بدّ أن يساهم الجميع في إصلاح العربة، وقد نشتري لك عربة أخرى .

- هكذا قالت نعيمة، وأنت تعرف يا طيّب.. اليد وحدها لا تصطاد الزّرزور.

توجّهتُ بعد ذلك إلى مقهى الشّرق، في العادة أشرب قهوتي الصّباحيّة هناك. يضع عم خميّس قهوة الفيلتر أمامي ويناولني سيجارة الكريستال وهو يصيح كعادته: «حتّى الكريستال باش يولّي فال في هالبلاد الكلبة». فكّرتُ أيضًا في موعد نادية، لم تهاتفني مرّة أخرى، وفهمت أنّ موعد الحفر لم يتغيّر. قلت في نفسي: الأفضل أن أشرع في الحفر حين ترتفع أصوات الأغاني الركيكة في الوكالة، فردارات تلك الوكالة لا ترى فحسب، بل تسمع دبيب النّمل أيضًا.

في هذا المقهى عرفت عم خميّس، نادل المقهى، لا يتوقّف صياحه طوال اليوم، وهو يلبّي طلبات الزّبائن، وهو يخاصم، وهو يحتجّ، وهو يقود احتجاجات في دماغه. ومع ذلك هو رجل طيّب وبشوش، يكفي أن تحكي له «نكتة خضراء» حتّى يسقط على الأرضيّة ويتلوّى

بقهقهات لا تتوقّف. أحبّ الأخضر، يقول لي ثمّ يغمزني و يمرّ من أمامي.

في هذا المقهى عرفت هاجر، وربّما تكون حكايتي معها مثل حكاية صالح مع نعيمة، مع اختلافٍ جوهريّ بالتّأكيد، وهو أنّي لم أرفع عينيّ في عيون نساء الوكالة، ولم أسمح لأيّ امرأة بأن تطرق باب شقّتي. هاجر وحدها تفعل ذلك، عندما أكون داخل الشقّة وأستمع إلى ثلاث نقرات خفيفة أعرف أنّ هاجر هي من تقف خلف الباب، كنت صامدًا بالفعل أمام السيّل الجارف ولم أسقط ولم أخسر هاجر. في تلك الأيّام، خرجت من سجن 9 أفريل في ظروف أقلّ ما يمكن أن أقول عنها إنّها شبيهة بظروف خروج كلب ملدوغ ومتروك من جوف كهف، كلب متروك للجوع والعطش والعراء. لعلّ قدري هو الذي قادني إلى مقهى الشّرق، كان في نيّتي أن أسير من باب الخضراء نحو نهج روما ثمّ أعرف طريقي إلى باب عليوة، ما كان بجيبي لا يتجاوز عشرين دينارًا. أيقنت ساعتها أنّي لا بدّ أن أعود إلى القصرين. فكّرت، بل تأكّدت أنّ العاصمة لم تعد مصدرَ راحةٍ، وهي لا تصلح لكلب مثلي.

أمضيتُ خمس سنوات في سجن «9 أفريل» بسبب حماقتي، حماقة من يحلم ويحبّ أن يدبّ على وجه الأرض. كنت غبيًّا أيضًا ومكشوفًا، خطّطتُ في لحظة تهوّر أن أعثر على كنز علي بابا الذي تحلم به أمّي، كنز أمرّغ به الزّمن الكلب في التّراب، كنز لا بداية له ولا آخر، ينتشلني من بؤسي ومن فشلي في الدّراسة. في منّوبة كنتُ كَمَنْ يتبوّل في الصّحراء الغربيّة، الفشل والفشل ولا شيء غير الفشل. وطبعًا،

جشعي الزّائد عن الخيال سلّمني إلى زنازين «9 أفريل». كم سحقني السّجن وكم غيّرني! وعلى أيّة حال لم يُفقدني ملامحي. انقطعت صلتي بالعالم طيلة تلك السنوات، وبالخصوص صلتي بهيلين. انقطعتُ عنها في مرحلةٍ دقيقةٍ عرفنا فيها حلاوة أن نكون معًا، أن نتماوج جسدًا واحدًا في سرير الحبّ. أدركتُ وأنا أغوص في الوحل أنّي خسرت هيلين، ببلاهة وحمق. زارتني في تلك السّنوات منجيّة رفقة نور خمس مرّات، بمعدّل مرّة في السّنة، وكانت في كلّ مرّة تشنّع بي وهي تسلّمني قفّة الأكل. كانت لا ضاحكة ولا واجمة، تعانقني ثمّ ترحل من أمامي باكية، تمامًا كما تبكي نور. لم أحظ بالعفو. تمتّع به غيري ووضعوني أنا في درج، وكنّا نعرف أنّ من يتمتّع بالعفو لا بدّ أن ينحني أو يدفع. وما خفّف عنّي عبء تلك السّنوات المظلمة هي ضحكات صديقي مروان في السّجن. كان لا يتوقّف ليلَ نهار عن سرد نكته الخضراء التي لا تنتهي. مروان لا يغتمّ إطلاقًا، لا يكترث بالحكم الذي صدر ضدّه بسبب الشّيكات، لم أصدّق وهو يخبرني، حكم عليه بـ130 سنة سجنًا. يقهقه ولا يكترث ثمّ يلتفت إليّ ولعابه سائل: «العرس ما يخلّي كان الزقّ في الرّقعة، وأنا، بنت الكلب خلّاتني في الحفرة». وفي بعض اللّيالي كان يقطع الصمت في العنبر مقهقهًا بصوت عالٍ حتّى يسمعه الجميع: «أيّها الأوباش، كلّ أحكامكم لا تصل إلى المدّة التي سأقضيها هنا، أيّها الملاعين ارقصوا وغنّوا، واحلموا.. أيّها الأوباش، عليكم اللّعنة جميعا».

ما حدث بعد ذلك أنّي رأيت هاجر وراء عربتها المحمّلة بالغلال، رأيتها بعد ليلتين قضّيتهما في دكّان الفحم الملاصق للمقهى.

عم خميّس لم يشأ أن أنام مع القطط، أعطاني مفتاح الدكّان، وقال لي: «تدبّر أمرك قبل أن يسمع المعلّم». وقبل أن يسمع المعلّم علمت هاجر بوضعيّتي التي تصعب على الكافر. وأنا، المحروم من كلّ شيء، سمّرتُ عينيّ في عينيها وهي تجلس وراء عربتها. وأعتقد أنّ عمّ خميّس حدّثها عنّي، أنا لا أشكّ في ذلك، كانت تمدّ ساقيها أمامها عندما نادتني، قفزتُ نحوها كجروٍ ووقفت قبالتها. تأمّلتْ شعري الأشعث ووجهي المغبرّ ثمّ قالت: «انتظرني في المقهى، سأعطيك مفتاح شقّة المرحوم». قالت ذلك ثمّ أهملتني وانشغلت بامرأة تسأل عن سعر التفّاح، وسرعان ما غيّرت المرأة رأيها واقتنت الموز. تحجّر لساني في فمي وعدت إلى جلستي، لم أتجرّأ من جديد على التطلّع إلى صدر هاجر المنتصب ولا إلى خصرها. عيب، قلت لدماغي. اكتفيت بهزّ رأسي بشكلٍ خاطفٍ نحو الشّجار الذي نشب بين بائعين في رأس النّهج، وعرفت في ما بعد أنّ النّاس يسمّون ذاك النّهج «صبّاط الدّزيري».

كيف لا أحبّ هاجر بعد كلّ الذي فعلته معي؟ اكترت لي بمعلوم رمزيّ شقّةَ زوجها، كان يسكن هناك قبل أن يتزوّج هاجر، ولم تشأ هي أن تسلّمها لأحد. حتّى بعد موت زوجها ظلّت تلك الشقّة مغلقة، كأنّها كانت قدري. قالت هاجر وهي تفتح باب الشقّة أمامي، وأنا أجاهد لكي أستعيد عينيّ من فوق مؤخّرتها الضخمة:

– ادفع متى تريد يا سعيد، عمّ خميس أعلمني باسمك.

– سعد.

هتفتُ وراءها وكدت أسقط عندما تعثّرت قدمي اليمنى في زربيّة الصّالون. قادتني هاجر بعد ذلك إلى غرفة النّوم، فتحَتْ نافذتها المطلّة على النّهج، ثمّ سارت نحو المطبخ الصّغير و أشارت بيدها إلى بيت الاستحمام:

-أمّا الدّوش فسأصلحه خلال يومين.

لا يمكن أن أنسى تلك الأيّام التي كنت فيها طريح الفراش، أوشكت على الموت فعلًا، وأنقذتني هاجر. أُصبت بنزلة برد حادّة، واعتقدت أنّها عابرة مثل العادة، قارورة نبيذ تكفي للشّفاء. ازدادت حالتي تعكّرًا أيّامها، كنت أسعل بشكل مخيف، وطبعًا نهش القلق هاجر وهي تعاين وجهي الشّاحب، دسّتني في حضنها ثمّ استقدمت طبيبًا يقطن قريبًا من «صبّاط الدّزيري»، واشترت لي الدّواء ورعتني تمامًا كما ترعى بلقيس. وعندما شُفيت، في ذلك اليوم الذي لا يطمر في رأسي، زاغت عينا هاجر قبالتي، وربّما حاولت ساعتها أن تهرب، أن تذوب من أمامي. ارتبكتُ أنا بالفعل، انكمشت أجفاني وأحسست بذاك الخدر الذي صاغني كتلة سابحة. تعرّقت وأنا أداعب بنظراتي عينيها المكحّلتين، وأضع يدي على خصرها. خفقت بعنف وأنا أدقّق في شفتيها الحمراوين. شفتاها مستسلمتان، يستحثّانني على العناق، وأنا أحاول الصّمود أمام التيّار. العاصفة أيضًا كانت مدوّية في رأس هاجر، أغمضت عينيها تمامًا ورفعت الرّاية البيضاء. أحسست بها تذوب أمام أنفاسي الحارقة، أنفاس الجوع والحرمان. فأغمضت عينيّ وانفجرت الرّغبة إلى شظايا تتخاتل أمام عيوننا المخدّرة. كنّا ننتفض، نحذر ثمّ نقتحم، نتجمّد ثمّ نتراخى، وفي لحظة مجنونة،

وقفنا في عناق مكبوت. وأعتقد أنّنا بكينا في ذلك العناق وتبلّلنا. ثمّة أشياء لا يمكن أن تصفها اللّغة ولا أن تفسّرها أقوى النّظريّات، وسيبقى الحبّ بسبب ذلك مسألة غامضة، وربّما يحتاج العالم إلى ملايين السّنوات لفهم تلك المسألة.

رنّ هاتفي الجوّال، إنّها نادية:

- نحن بانتظارك عزيزي.

في الشقّة السّفلى وجدتُ الجماعة على الهيئة التي تركتهم عليها، يطوفون حول الحفرة. نادية شبه عارية بطبيعة الحال، تطوف برافعة صدرها البيضاء وكلسونها الأحمر. العرق يتصبّب على جبينها، تطوف بلا وعي وسط عاصفة التّعاويذ. بعد ذلك انحنى الشّيخ مرزوق وانهمك في متابعة الخطوط المتشابكة على الخريطة، بسَطها على الأرضيّة وغمس فيها عينيه، نطّت نظراته في خطوط الطّول والعرض ثمّ وضع إبهام يده اليمني على نقطة سوداء وقال ملتفتًا إليّ:

- سيكون من الضّروري يا أخانا أن تحفر على مسافةٍ لن تقلّ عن ثلاثة أمتار، وبعد ذلك سنتابع ما سيستجدّ.

أضافت نادية:

- طبعًا أنت تعرف يا سعد أنّ الحَفْر ليس قوّة عضلات وإلاّ كنتُ استعنت برجل من أتباعنا.. أنت تعرف بالتّأكيد كيف تُخرج الشّعرة من العجينة.

جاء الشّيخ مرزوق بأدوات الحفر ووضعها بالقرب من الحفرة، تفحّص وجهي ثمّ قال:

- ناولوني الحروز يا أهل الخير.

حبست أنفاسي:

- للأسف يا شيخ، ماذا أقول؟ الحرز ضاع منّي في لحظة سهو.

رازني بعينين خاملتين ثمّ قال:

- لا بأس، سنكتفي بثلاثة.

جمع الحروز الثلاثة وأحرقها في إناء من النّحاس ثمّ رمى بالرّماد وسط الحفرة وهتف بنا:

- بإمكاننا الآن أن نشرع في عمليّة الحفر.

تلا الشّيخ إسماعيل آيات إحراق الجنّ ثمّ قرأ: «وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ[1]». ثمّ أخرج موسى من طيّات ثيابه ووقف أمام نادية، جرح خنصر يدها اليمنى، ثمّ بنصر يدها اليسرى، وجعل الدم يتقاطر على إناء النّحاس حتّى تجمّعت بقعة حمراء صبّها في كأس صغير وأبقى ذلك الكأس فوق النّقطة السّوداء في الخريطة.

نزعتُ معطفي في الأثناء وتجرّعتُ من قارورة ماء جلبتها معي، شكرت صالح في سرّي لأنّه أزال الرّائحة العفنة التي عكّرت مزاجي في المرّة السّابقة. انتعشتُ أيضًا برائحة البخور، نادية لا تتوقّف عن الطّواف بالمبخرة النحاسيّة. اقتلعتُ أوّلًا قطع الجليز على مسافة متر مربّع، وكنت أسلّم كلّ قطعة إلى الشّيخ مرزوق لترصيفها، أمّا

---

(1) الآية 154 من سورة الأعراف.

الشّيخ إسماعيل فقد ظلّ يتمتم مغمض العينين ومرتعشًا كدرويش مقرور. حمدت الله أنّ القشرة الإسمنتيّة تحت الجليز لم تكن سميكة، رشّ عليها الشّيخ مرزوق سطل ماء فأمكن لي بكلّ يسر أن أزيحها من أمامي. التّراب، كما خمّنتُ كان رخوًا، بلا أحجار، ولم تكن بي حاجة متأكّدة إلى المعول، وفي هذه الحالة لن يكون الأمر مُطَمْئِنًا، أفضّل أن أجد خليطًا من التّراب والحجر، لتجنّب انزلاق التّربة ما أمكن. ومهما يكن من أمر، فقد طفقتُ أغرف التّراب وأضعه في السّطل ثمّ يتناوله الشّيخ مرزوق من يدي وهو يتمتم في شبه غيبوبة. وبعد ساعة تقريبًا وصلتُ إلى عمق مِترَين، لا أخفي أنّي خفت في تلك اللّحظات -وأنا خبير بالأمور- من انزلاق التّربة من الأجناب، وقلت في نفسي: «إن تجاوز العمق ثلاثة أمتار فإنّ الأمر سيكون خطيرًا حقًّا وسأردم تحت التّراب».. طلبت من نادية أن تبحث لي عن حبل، أشعلت سيجارة داخل الحفرة، كنت متوتّرًا حقًّا، سمعت هاتفي يرنّ فازدادت أنفاسي تعكّرًا. أطلّ الشّيخ إسماعيل برأسه ورشّ قطرات الدمّ داخل الحفرة، فعل ذلك مغمض العينين. رأيت في خيالي منجيّة تنتصب فوق الحفرة مقطّبة وهي تصيح: «ستموت يا فرخ الحرام». شددتُ الحبل على حزامي واستأنفت رفع التّراب، بعد عمق نصف متر إضافيّ تحسّست قدمي اليسرى شيئًا صلبًا. غرفت التّراب من جهة قدمي اليسرى، أنزلت نادية المبخرة في جوف الحفرة. وفي لحظة خاطفة وأنا أساعد الشّيخ مرزوق على رفع السّطل رأيت عينيها ونهديها. المشهد الجهنّمي كان في الأعلى، وكنت أنتظر بين لحظة وأخرى أن تسقط جهنّم على رأسي.

ما لا أنساه في ذلك اليوم أنّي نجوت بأعجوبة، كنت سأردم بالفعل تحت التّراب ولا أحد كان قادرًا على انتشالي، وكنت سأموت هناك ككلب. طبعًا، هؤلاء الأوغاد لن يتجرّؤوا على إخبار أحد، سأنتن هناك ويعيدون المحاولة مع غيري. ونادية، التي تحوّلت في دماغي إلى آلة جهنّم، ستبصق على خلقتي وتقول: «هذا البائس لا يصلح لشيء». في لحظات ذلك الكابوس الذي لن يفارق ذاكرتي، أحسست أنّي تحوّلت إلى نملة وأنا أربط الصّندوق الصّدئ ثمّ أخرج من الحفرة مصعوقًا. في تلك اللّحظات ونحن نرفع الصّندوق انزلقت التّربة في الأسفل وارتجّت أرضيّة الصّالة ثمّ اتّسعت الحفرة وتهاوت قطع الجليز داخلها. ارتعبنا ونحن نتراجع إلى الخلف، الصّندوق كان بحوزتي، في قبضتي، وحين توقّف هيجان التّراب في الأسفل انفرجت أساريرنا، كنّا حقًّا نخشى أن يحدث الأسوأ.

نادية هي من فتحت الصّندوق، تشوّشت نظراتها وهي تفتحه أمامنا، اكتشفت في تلك الآونة المجنونة أنّ أصابعها طويلة. أخرجَتْ من الصّندوق سبيكة ذهب، ثم سبيكة ثانية، ثمّ ثالثة، بعد ذلك أخرجت المجوهرات، قلائد وخواتم وأقراط وأساور، طقم كامل، خمّنتُ أنّه لا يمكن إلّا أن يكون طقم أميرة أو زوجة تاجر ثريّ. في الحقيقة، لم يسبق لي أن رأيت مثل تلك المجوهرات. وحدست، وأنا الخبير بالكنوز، أنّها تعود إلى الفترة الرّومانيّة. عندما سمّوا تونس مطمورة روما لم يخطئوا، وفي هذه المطمورة دفنوا كنوزهم، كأنّهم، هكذا اعتقدوا، سيمتلكونها إلى الأبد، والقاعدة تقول: «من ينهب يُنهب وإن طالت الأيّام»، وأنا، ابن المطمورة الشّهيدة نهبتُهم أيضًا.

بلّلت ريقي بجرعات ماء ثمّ أمسكت بالمجوهرات وقلّبت سبائك الذّهب، الأبالسة، كيف كانوا يعجنونها؟، سألت في سرّي. ومثلما كان الاتّفاق مع نادية، تسلّمت ثلث الكنز، يا أولاد الكلب، كادت الحفرة تبتلعني ولن أتنازل عن حقّي، لهجت في داخلي وأنا أفتكّ رزقي. حاول الشّيخ مرزوق ابتزازي، كان يرمق قلادة صغيرة في يدي كثعلب، قطّبت جبيني وأنا أصدّه ثمّ وضعت كنزي في كيس أسود وصعدت إلى شقّتي. كنت أصعد درجات السلّم لاهثًا وأمسح قطرات العرق من جبيني، ومن الغرابة أنّ السّلّم في تلك الآونة كان خاليًا. يبدو أنّ الرّادارات كلّها كانت غارقة في النوم.

حين خرجتُ من بيت الاستحمام انتبهت إلى رنين الهاتف، كانت هاجر تطلبني وتلحّ في الطّلب. لم أضغط على الزرّ الأخضر، ووضعتُ كنزي على عَجلٍ في محفظتي الجلديّة ثمّ حشرت فيها الجرائد التي كانت مبعثرة أمامي، ارتديت ملابسي بعد ذلك وخرجت. انتصبت أمامي هاجر، تفحّصتني بارتياب، آلمتني نظراتها، وتكدّر كلّ شيء في باطني، سألتني دون أن تنظر إلى وجهي:

–ما الأمر يا سعد؟ وما حكايتك مع المرأة الشّقراء في الشقّة السّفلى؟

لأربح الوقت، قلت بنبرة صارمة:

–ليس الآن يا هاجر، سنتحدّث ليلاً.

أدارتْ لي ظهرها وأغلقت باب شقّتها، كانت غاضبة ومتنمّرة. المرأة حينما تأكلها الغيرة تصبح أغبى الكائنات على الأرض. خمّنتُ

أنّها ربّما كانت تراقبني، وهي الآن مثل حائط آيل للسّقوط، تنتظر منّي تفاصيل حكايتي مع الشّقراء. بصقتُ على خلقة نادية وسرت نحو ساحة برشلونة، لا بدّ أن أعثر على صديقي الإيطاليّ سيلفانو، قلت في نفسي، لا يمكن إطلاقًا أن يبيت معي الكنز في الوكالة. في مثل هذه الحالات لا أكون مُطمئنًّا، يهاجمني النّمل ويلدغني. عندما فتحت المحفظة أمام سيلفانو وعرضت عليه كنزي اندهش وهو يمسك بسبيكة الذّهب:

- c'est magnifiqua[1]

قالها بفرنسيّة مهشّمة، ثمّ راح يقلّب الأساور والخواتم والقلادة الصّغيرة قطعةً قطعةً، القلادة الصّغيرة أسالت لعابه وأثارته. حسب خبرتي في مثل هذه الوضعيّات كنت أعرف تقريبًا ثمن البضاعة، وسيلفانو يعرف طبعًا مصدر البضاعة ويحاول ما أمكن استغلالي. في المرّات السّابقة كنتُ أُخفض رأسي وأدسّ الأموال في جيبي، وهذه المرّة عرفت كيف أسيطر على الموقف وأحسم الأمر:

- طبعًا، أنا لست على عجلة من أمري.. وثمّة تاجر يهودي طلب منّي بضاعة.. طيّب، سأرى الأمر معه.

لم يُخلِ سيلفانو سبيلي وناولني ما طلبت، لا بأس، قال وهو ينحني. هكذا نتّفق، قلت له بعينيّ وأنا أوزّع حزم الدّولارات في معطفي. اتّجهتُ بعد ذلك إلى البار، واستقبلني صلاح بحرارة:

- أين كنت يا قطّوس الرّماد؟

---

(1) المقصود: c'est magnifique والمعنى: هذا مذهل.

-أنا جائع يا صلاح، أحبّ أيضًا قارورة معتّقة.

-أنت تعرف أنّ هذه الفترة هي فترة امتحانات.. وثمّة من يسأل عنك.

-ليس الآن يا صلاح، أنا منشغل حقًّا، وربّما أعود إلى الدّروس الخصوصيّة في جانفي.. أنت سيّد العارفين بأزمة جانفي و«ميزيريا» جانفي.

كان من الضّروري أن أعود باكرًا إلى شقّتي، أدركت آخر المحلّات المفتوحة واقتنيت قميصًا نسائيًّا على مقاس هاجر. بحثتُ أيضًا عن قارورة عطر باريسيّة، لا بدّ أن تغيّر هاجر عطرها، ألحّ عليّ رأسي. عطر نساء الوكالة، وهذا غريب، كالعطر الذي يُرَشُّ على الموتى.

أجهدت نفسي وأنا أروي لهاجر حكاية المرأة الشّقراء والقاعة السّفلى، لم تتركني إلّا بعد أن جرجرتني إلى كلّ التّفاصيل، اشتمّت رائحتي أيضًا وتفحّصت عنقي وصدري وراقبت ملابسي ثمّ قالت:

-لا أصدّق أنّك لم تلمس تلك الأفعى.

قلت لها وأنا أُنهي وضع حزم الدّولارات في كيس أسود:

-احتفظي بهذا الكيس، تعرفين أنّي لا يمكن أن أحتفظ به.

قرّبت هاجر الكيس إلى صدرها وانطلقت منها تنهيدة ثمّ راحت تتأمّل القميص وقارورة العطر:

-كدت أتهوّر، اعتقدت أنّ تلك الشقّة «برديل» جديد في

الوكالة. وفي آخر لحظة تراجعت عن إعلام الشّرطة، لا أدري، خفت يا سعد أن تجرجرك تلك الأفعى معها و...

قاطعتُها وأنا أتشمّم رائحة العطر الباريسيّ في عُنقها:

-كنت أعرف أنّك مجنونة.

لم تتركني هاجر إلّا بعد أن خاضت معي حربًا ضروسًا على السّرير. كانت مهتاجةً ومغتلمة، تغرف زفراتها من قاع بئر، وأنا كنت أعرف أنّ هاجر في منتهى الاشتعال بالفعل. نادية لم تتلف عقلها فحسب، بل رشّت على رأسها البنزين وأشعلته. كانت معي نهمة وشرسة، إنّه الجوع الكافر، الجوع في رحلة متوحّشة وسط صحراء، ولا أحد في الصّحراء غيري وغيرها. ظللنا نصخب على الرّمل ونتلوّى ونتكسّر وننسى ونصعد ونطوف العالم، وفي تلك اللّحظات تعرّى العالم واغتسل معنا، مثلما اغتسلنا، على مهل وبمنتهى الجنون.

هتفت هاجر وهي تهمّ بمغادرة الشّقّة:

-أنت لم تسمع بالجديد في الوكالة يا سعد.. صالح سيتزوّج نعيمة، والحرب ستبدأ بين نعيمة ونسيمة. والحقّ أنّي من أنصار نعيمة يا سعد، نعيمة أعطته أيضًا مفتاح المخزن واشترت له بذلة جديدة. وأنت؟ من أنصار من يا سعد؟

حين استلقيت على السّرير جاءت الرّيح برائحة القصرين، كانت تنفخ في النّافذة، رمتني أوّلًا في وادي الدّرب، تحت توتة إبراهيم، استلقيت هناك وحضنت أبي. حضنته بكلّ لهفتي وجوعي وعطشي، تحسّستُ جبينه ثمّ قرّبتُ أنفي إلى فمه وتشمّمت رائحة

الدّخان، انتفضت بين أحضانه وتبلّلت بالعرق الذي لا يكفّ عن التصبّب من جبينه ثمّ جريت نحو سكّة الحديد.

منذ أن تعطّبت عربات القطار القديم صارت ملاذًا لكلّ حماقاتنا وجرائمنا الصّغيرة، نعشّش فيها ليلَ نهار، نختفي هناك من الحرّ والقرّ ونخطّط لمغامراتنا. في تلك العربات كلّ شيء صدئ ومتعفّن، علب بيرة وسردينة وهريسة، قوارير، أعقاب سجائر، أعقاب لفائف حشيش، خنافس متجمّدة ومنقلبة على ظهرها، خنافس أخرى تتحرّك بين أرجلنا في حالة سكر، تهمد القطط أمامنا ثمّ تقفز لتلتقط البقايا وتقتنص الفئران، لهاث في الدّاخل، وحشرجات تحت العربات. المرأة الثّانية التي عرفتها بعد سعديّة قابلتها في إحدى العربات، جاء بها بلقاسم الحنش من ماخور المدينة، عرّاها أمامي وصاح بي: «جرّب حظّك». طبعًا لا أحد منّا كان قادرًا على فتح فمه أمام الحنش، كان يقود كلّ عصابات المدينة، يحرّك جيشه بإشارات صارمة، الرّجل الشّرس صاحب الصّفعات النّاريّة والضّربات اللّولبيّة، ذاك هو الحنش. هو ينسّق بين كلّ العصابات لكي لا تحدث فوضى في عمليّات الخلع والسّرقة. «كلّ حيّ له جماعته يا أوباش»، يصيح في الوجوه النّاعسة ويوبّخها. طبعًا أنا لم أجرّب السّرقة، فقط كنت أحبّ المكوث بالقرب من بلقاسم، الكائن الفظّ والمتهوّر. هو لا يعنّفني مثلما يعنّف الآخرين، وحين تجحظ عيناه أفهم أنّي لا بدّ أن أطيعه. تنطّعت نظراته في خلقتي وهو يحثّني على أن أجرّب حظّي، المرأة كانت ترتعش تحتي، وكنت مثلها أرتعش، ولم يتركني بلقاسم إلّا بعد أن لهثت وتصبّب جبيني عرقًا، وكذلك فعل الآخرون. ما

أذكره أنّي بعد ذلك نزلت من العربة وطفقت أجري، خنقتني دموع المرأة وهي تتعرّى، وهي تنحني، وهي تفتح ساقيها في وضعيّة ذلّ، وهي تشبك يديها على صدرها وتئنّ. كنت أركض في الطّريق لأنسى دموع المرأة، أركض وتتبعني الكلاب وتطاردني، أركض لاهثًا ثمّ أقف وألتقط الحجر وأرشق الكلاب.

وصلت إلى بوزقام، ثلاثة كيلومترات وأنا أجرى بلا وعي، جلستُ بالقرب من حديقة، أعتقد أنّها حديثة العهد، النّظام أحيانًا لا يعرف ماذا يفعل فينشئ حديقة في الخلاء. أشعلتُ سيجارة واستلقيت. كانت النّجوم فوق رأسي بعيدة، لم أرَها، ثمّ رأيتها تقترب وتقترب وتكاد تهجم على رأسي. عاد الصّداع إلى رأسي، أشعلتُ سيجارةً ثانية من العقب فانبعثت رائحة كريهة في فمي، بصقتُ، أحسست بالعطش، لا شيء غير الظّلام. بعد دقائق، توقّفت سيّارة في الجهة المقابلة، توقّف المحرّك وانطفأت الأضواء، لمحت رجلًا وامرأة بالدّاخل، جاءت سّيارة ثانية وركنت بجانبها، وجاءت ثالثة ثمّ رابعة. نزل الجميع من سيّاراتهم والتزموا الصّمت، جمع أحدهم حزم المفاتيح، حرّكها بين كفّيه ثمّ ألقاها على الأرض. أسرعت النّساء، انحنين والتقطت كلّ واحدة حزمة مفاتيح ثمّ امتطت سيّارة الحظّ. حبست أنفاسي وأنا أستمع إلى المحرّكات تشخر، اشتعلت الأضواء وسرعان ما ذابت السيّارات من أمامي. بعد ثلاث ساعات أو ربّما أكثر عادت السّيارات، وتبادلت النّساء مواقعهنّ، فهمت أنّهنّ عُدن إلى أزواجهنّ. أذهلني ما رأيت، وبصقت خلف السيّارت التي غادرت على عجل. هذه دعارة الأغنياء، قلت في نفسي. في

الواجهة الأماميّة هم شرفاء المدينة، وفي القفا هم أقذر خلق الله. وتلك المرأة التي لم أعرف اسمها أشرف منهم دون شكّ، هي على الأقلّ واضحة، لا تراوغ، وليست لها حزمة مفاتيح، لها أكوام لحم جائعة، الجوع كافر. وهؤلاء، أثرياء المدينة ولصوصها هم أسباب خراب كلّ شيء.

في ذلك اليوم نفسه، يوم الخميس ليلًا، وبعد أسبوع تكرّر المشهد نفسه، السيّارات نفسها والأبطال أنفسهم مع لعبة مفاتيح جديدة. ولمدّة شهر حدث الشّيء نفسه. قرّرت أن أكون أنا أيضًا مُنحطًّا ووقحًا، سجّلت أرقام اللّوحات المنجميّة ثمّ مضيت. لم تعد تستهويني اللّعبة، لعبة الخنازير، وبعد أيّام كشفت هويّات أصحاب السيّارات وبدأت رحلتي في ابتزازهم.

وقفوا أمامي مثل خرق، مصعوقين، وملامحي كانت جامدة وهي تقابلهم واحدًا واحدًا، ثلاثة رجال، الرّابع أرسل زوجته، بكت أمامي وقالت: «وظيفته حسّاسة، أرجوك خذ ما تريد ولا تفضحني ولا تفضح زوجي». انحنت أمامي وهي تبكي، وأنا كنت رحيمًا بها وبالجميع، أخذت منهم كلّ ما طلبت وبصقت على وجوههم. لا أدري، هل أنا كائن طبيعيّ؟ أم إنسان مجنون؟ ذهبت إلى ماخور المدينة، تجرّأت على الدّخول، نحن أبناء المدينة لا ندخل إليه في العادة، يكتسحه الغرباء فقط. في الدّاخل اعترضتني وجوه لاهثة، تفحّصتني، رازتني من الأعلى إلى الأسفل، وفي الأخير عثرتُ على غرفة تلك المرأة، امرأة العربة. كانت هي، بلا ريب، لم أنس عينيها الدّامعتين. دخلتُ غرفتها ولم يكن في نيّتي أن أفعل معها

شيئًا، ولا يمكن بالفعل أن أفكّر في الجنس معها بعد كلّ ما حدث. اسمها ربيعة، سلّمتها مبلغًا من المال ثمّ مضيت، هكذا، دون تفسير أو تبرير. اندهشت هي، صدّقت ثمّ كذّبت، وفي آخر الأمر صدّقت. بعد ذلك ذهبت إلى بار السّلام، وظللتُ أشرب حتّى غبت.

في تلك الأيّام، كنت أستعدّ لإجراءات امتحان الباكالوريا، وطبعًا لم يكن لي مزاج لأراجع الدّروس. في أوقات متباعدة أحضر في قاعات المعهد الفنّي، مثلما يحضر أغلبنا، تلاميذ الباك، أسجّل بعض الدّروس ثمّ أركلها عندما أخرج. فكّرت في أن أراجع بتركيز، قلت في نفسي: «يا سعد، لا بدّ من التّعب لكي تنجح ومن يدري؟». وفي الأثناء وجدت الحلّ، وقرّرت أن أنجح كما ينجح أبناء الأغنياء. كنّا نعلم كيف تحصل الأمور، وأنا كنت أعرف كلّ التّفاصيل. في أيّام الامتحان تنشط مقاولات الباك السرّيّة، في محيط المعهد تتوزّع تلك المقاولات، وفي كلّ الموادّ، وأنا تلميذ الآداب اخترت موادّي التي أعتبرها دوابّي السّوداء. عقدت صفقة مثلما يعقدها أبناء الأغنياء، بعت واشتريت وأبرمت الصّفقة، بأموال الأغنياء فعلت ما يفعله الأغنياء. الأمر لم يكن على غاية من التّعقيد، كان يكفي أن أكون هادئًا وجامدًا. حين أتسلّم ورقة الامتحان، أمسك بطني وأتظاهر بحالة تقيّؤ، يسرع بي الجميع إلى «التّواليت»، و«التّواليت» لا يقربها غيرنا، نحن الفقراء والرّعاع. كانت عفنة وقذرة مثل قذارة أيّامنا. كنت أضع ورقة الامتحان تحت الحوض المتّفق عليه وأعود إلى القاعة خالي الذّهن لأتظاهر بالتّفكير والتّحرير. وفي تلك الدّقائق التي تمرّ بتباطؤ غريب أفرك جبيني ولا أنشغل إلّا بكهوف وادي

الدّرب وتوتة إبراهيم، تنثال عليّ الصّور وتسحبني من القاعة تمامًا. وقبل ساعة من انتهاء الامتحان، أعيد المسرحيّة نفسها وأعود إلى ذلك الجحر تحت الحوض، أفتح أزرار قميصي الأسود وأضع ورقة التّحرير الجاهزة وأمضي. الأمر لا يحتاج إلّا إلى كثير من التّركيز، لا ترتعش أصابعي بالتّأكيد، أحبس أنفاسي، بهدوء وبأعصاب من حديد أسحب ورقة الامتحان وأضعها على الطّاولة، وهكذا تمّت الأمور طيلة أيّام الامتحان. يوم الإعلان عن النّتائج كان من الغريب أن يصادفوا اسمي، لا يهمّ كيف نجحت، رأيت دهشة الجميع وهم يمرّون باسمي ضمن النّاجحين. منجيّة زمّت شفتيها وصاحت في وجهي: «لا أصدّقك يا فرخ الحرام»، وحينما اكتظّ منزلنا بالمهنّئين صدّقت منجيّة وولولت زغاريدها في الحيّ.

هل أنا رجل خطر؟ هل أنا على درجة كبيرة من الغموض؟ ذلك ما قالته لي هيلين وأنا أفرغ أمامها خزّان مغامراتي، لم أشأ أن أخفي عنها شيئًا. لم يكن تاريخي بطبيعة الحال مشرّفًا، ومع ذلك كنت تلقائيًّا مع هيلين. تهاوت على المقعد بعد أن استمعت إلى بعض حماقاتي. «أنا لا أصدّق، كيف يمكن أن يحدث كلّ ذلك، كيف؟ الأمر شبيه بخيال غريب، بل هو كابوس»، قالت هيلين باندهاش. لم أفرغ أمامها كامل الخزّان، خشيت أن ينتابها الغثيان فتهرب منّي. أجل، أعترف بكلّ جرأة أنّي رجل متمرّد، أحسّ بفداحة ما فعلتُ، لكنّي لست مجرمًا على أيّة حال، ولست سيّئًا، ذاك تاريخي، وتلك ذاكرتي. حينما اعترفت لهيلين كنت أراهن على التطهّر، وتطهّرت فعلًا أمامها، وأحسست بتلك الرّاحة التي كنت أفتقدها.

بعد يوم عاصف ومكتظّ كان عليّ أن أنام، وقبل ذلك فتحت الحاسوب، هو حاسوب هيلين في الأصل، قالت لي: «أعرف أنّك كسول، لن تفكّر في اشتراء شيء، وهذا الحاسوب سيذكّرك بي..» أعترف أنّ هيلين لا تتكلّم كثيرًا لكنّها تفكّر بعمق، والأهمّ أنّها تقتنص اللّحظة، تمسكها من رأسها وتأكلها بأسنانها..

وجدت ثلاث رسائل من هيلين. في الأيّام الأخيرة، تغيّرت كثيرًا، تكتب لي باستمرار وتُطلعني على يوميّاتها. «لا بدّ أن تكون معي يا سعد، لا بدّ أن أجرّك من أنفك إلى كلّ التّفاصيل»، هكذا تقول.. فتحت الرّسالة الأخيرة وقرأت:

«حبيبي،

سنلتقي قريبًا يا سعد، وستكون سفرتنا، أنا ولارا على الطّائرة، أنت تعرف أنّي لا أرتاح للباخرة في الشّتاء.. انتظرنا يا سعد في المطار، حجزنا ليوم 10 ديسمبر. ولا أعتقد حبيبي أنّك ستنسى عيد ميلاد لارا يوم 15 ديسمبر، بكلّ تأكيد، لا أظنّك ستنسى تاريخ مولد عزيزتنا.»

ماذا حدث لي وأنا أقرأ رسالة هيلين؟ الرّسالة الثّانية أرسلتها في توقيت الرّسالة الأخيرة نفسه، لم تكن موجّهة إليّ في الأصل، هي رسالة إلى لارا، كيف أخطأت هيلين؟ هل أضحت حياتنا الغريبة محكومة بالأزرار؟ قرأت الرّسالة وفي رأسي صخب العالم:

«عزيزتي لارا،

كيف يمكن أن أكتب لك وأرتّب كلماتي؟ في الحقيقة، سيتهشّم

كلّ ما في باطني إن لم أتكلّم وأعترف. قلبي، قلبي يا حبيبتي وأنا أكتب يقفز هائجًا. سألت نفسي بحيرة: «إلى متى سأخفي عنك الحقيقة؟ إلى متى؟..»

منذ كنت طفلة وأنت تسألينني السّؤال نفسه الذي عذّبني: «من هو أبي؟ أين أبي يا أمّي؟» تسألينني وتنشجين في حضني.. وفي كلّ مرّة كنت أهرب، وكنت أكذب، هل تذكرين؟ كنت أمسك ذقنك وأبتسم ثمّ أهديك لعبةً لتنسي الأمر. كنتُ أعلم، كنت في داخلك تتألّمين، تضحكين يا عزيزتي وأنت تتألّمين. هل أنا مذنبة، هل أنا قاسية إلى هذا الحدّ؟ لا أعرف، لا أعرف.. الآن سأرفع عينيّ في عينيك وأمسح على شعرك كما تعوّدت وأحضنك وأبكي ونبكي معًا وأنا أخبرك. أجل، إحساسك لم يكن كاذبًا يا حبيبتي، سعد هو بالفعل والدك.»

(10)
لارا

في طفولتي كانت لي مخاوفُ كثيرة ورغباتٌ شتّى، وأحلام ليس لها ساحل، تفكيري لا يهدأ البتّة، ولا يتوقّف عن إثارة الأسئلة. كنت أفتح الشّرفة لأرى الأطفال الذين يمرّون برفقة آبائهم، أتطلّع إليهم بحزنٍ ثمّ أُخفي عينيّ بذراعيّ وأسأل ماما شيرا: «أين أبي؟»، وعندما لا تجيبني، أضع عينيّ في عيني هيلين وأسألها: «أين أبي يا أمّي؟» فلا تجيبني هي أيضًا، تصمت ثمّ تهرب منّي، لا تفعل شيئًا غير ترتيب اللُّعب في غرفتي. وكنت أنا مثل قطّتنا، أكتفي بالأكل والنّوم، بل كنتُ أغبط قطّتنا، فهي على الأقلّ لا تفكّر ولا تسأل. أمّا أنا فأقضم أظفاري وأفكّر ولا تثيرني لعب أمّي، أحسّ أنّها غريبة عنّي فأرميها من الشّرفة. لا أحبّ تلك اللّعب الصّامتة والباردة، لست بلهاء لأكتفي باللُّعب والملابس الجديدة، أحبّ أن أرى أبي، أراه مرّةً واحدة، مرّة واحدة تكفي. كنت أصرخ ثمّ تنساب دموعي على وجنتيّ، ولا تستطيع هيلين في تلك الحالة أن تخفي نوبات غضبها، هي تغضب بسببٍ ودون سبب، تغضب من شيرا أيضًا، ولكنّها لا تغضب منّي. كانت تعانقني بلهفة، وفي حضنها أحسّ بحرارتها ورعشاتها. أمّي مثلي تمامًا، هشّة وحائرة، تعانقني وتخفي دموعها عنّي.

حلمتُ كثيرًا بحضن أبي، أحيانًا أصل إلى حالة جنون وصخب وتهوّر، أرسم ملامح أبي كما أحبّ، بشعر أسود وأنفٍ نحيف وفم واسع.. أرسم وجه أبي بقلمٍ رصاصٍ ثمّ أشرع في وضع الألوان. في البداية أكون شديدة التّركيز والعناية بالوجه الذي ابتكرته، وسرعان ما يداهمني إحساس بالحزن فأفسد وجه أبي، ثمّ أمزّق الورقة وأبعثر الألوان في أرضيّة غرفتي. الغريب أنّ أمّي لا توبّخني، وكذا الأمّ شيرا، «ستكونين رسّامة بارعة يا لارا»، تقول شيرا وهي تنظّف أرضيّة غرفتي من فوضى الألوان.

عندما كبرتُ لم أعد أسأل كثيرًا، ربّما أُصبت بحالة يأس، ومع أرجوحة المراهقة تعلّمتُ أن أحبّ الصّمت، أن أرافقه، وأصغي إليه. كانت بي حاجة إلى أجنحة تخفي الجرح العميق في باطني، لذلك اخترت، بغرابة ربّما، أن أدرس اللّغات في معهد خاصّ بباريس. كنت أبحث عن إطار آخر وعن محيط آخر، مع غرباء، أعيد معهم ترتيب كلّ شيء. العالم الخارجي يمكن أن يهبني الصّفاء الذي حُرمت منه، وعشت فعلًا ذلك الإحساس، التنوّع والاختلاف منحاني زوايا متعدّدة للتّفكير، وصرت أعرف ما أريد وأحدّد أهدافي بدقّة.

والآن، كيف يمكن أن أنظر في عينَي سعد نظرةً أخرى؟ لم يعد سعد صديقي فحسب، إنّه أبي، يا إلهي، كيف أستوعب وأصدّق؟ نظرتي ستكون نظرة مغايرة بلا شكّ، ليست نظرة صديق أثق فيه وأطمئنّ إليه، لا أدري كيف كنتُ أفسّر اطمئناني لهذا الرّجل الذي يحبّ أمّي؟ هذا كلّ ما كنت أعرفه، يحبّ أمّي وممنوع من الزّواج بها. لم أكن أعرف السّبب، بل كان الأمر غريبًا، أن تحبّه أمّي كذلك

وبجنون، وهي لا تخطو باتّجاهه أيّ خطوة. هيلين تتحمّس أمامي وهي تتحدّث عن سعد، أمّا عندما يتعلّق الأمر بالزّواج فإنّها تنكمش وتتحنّط، وكنت أعرف أنّها تبكي في الظّلام باستمرار، وتخفي عنّي كلّ أسرارها. أمّا شيرا فكانت، كما لاحظت، حاسمةً في قرارها، ولا تسمح لهيلين بأن تفتح موضوع الزّواج، تكتفي بتكرار شريطها: «إن كان يحبّك كما تقولين فعليه أن ينضمّ إلى شعبنا.. ثمّ ما الذي يمنعه من اعتناق ديانتنا؟ ما الذي يمنعه؟ صحيح أنّ الأمر شاقّ على سعد، ولكن عليه أن يكافح ويتجلّد، فاعتناق اليهوديّة يحتاج إلى الإيمان الصّادق والقبول التّام بجميع الفرائض بالإضافة إلى اجتياز مراحل تعلّم ضروريّة، وبعد كلّ ذلك تُقرّر المرجعيّات الدّينيّة قبوله في الدّيانة اليهوديّة. أمّا أن تتزوّجي مسلما فهذا ما أرفضه، وبشكل قاطع، ذاك خطّ أحمر في تقاليد عائلتنا». وبعد ذلك تهزّ رأسها إشارةً منها لإنهاء الحوار، فتظلّ هيلين تبكي على كتفي باستسلام وأكتفي أنا بوضع كفّي على فمي في حالة ضيق.

قرأت بكثيرٍ من الألم رسالة أبي، تخيّلتُ تلك الدّموع التي ترقرقت في عينيه. فالأمر لم يكن هيّنًا عليه بلا شكّ، وهو يعرف الحقيقة كما عرفتها أنا:

«لارا،

ابنتي لارا،

لا أدري، كيف أكتب لك، لا أدري حقًّا. في كلّ الأحوال، لا بدّ أن أقول شيئا ما. قد تقولين إنّي أبالغ، أو أضع رأسي في الرّمل حتّى

تمرّ العاصفة، قد تقولين ذلك وأكثر. فعلًا كان إحساسي غريبًا منذ أعلَمتْني هيلين بأنّها أنجبت بنتًا، أدهشني ما قالته ولا أدري لماذا لم أصدّقها. قالت إنّها تزوّجت في لحظة انهيار وخيبة، هي خيبة هروبي منها، هكذا اعتقدت وأنا في السّجن. رفضَتْ أيضًا أن تُعطيني التّفاصيل، واكتفت بخبرٍ موجز. لم أكن مطمئنًّا لما قالته، ثمّة شيء ما في عينيها، شيء لا يراه غيري أخبرني بأنّ الحقيقة مختلفة، وكنت أنتظر اعترافها، وللأسف طالت مدّة الانتظار. أنت أيضًا سألتني مرارًا يا لارا، وكنت تكتبين لي باستمرار، وأجيبك بتلك الكلمات الموجزة التي لا تصحّح شيئًا.

ولا أدري، هل يحقّ لي الآن أن أناديك ابنتي، ابنتي لارا، بعد كلّ الذي حصل، هل يحقّ لي ذلك؟ أعترف، أنا أيضًا مذنب، مذنب حقًّا، ربّما بسبب غيرتي السّاذجة، وربّما بسبب إحساسي بالمهانة، أنت لا تعرفين إحساس رجل تتركه حبيبته بسبب رجل آخر. وربّما كانت هيلين، في مقابل ذلك، تختبرني. لا أنفي هذا. وأنا، في الحقيقة، استسلمت أو ربّما هربت.. وما حدث بعد ذلك هو أنّنا قد نكون استفقنا، أنا وهيلين، في الوقت المناسب، أو في الوقت الممدّد، لا يهمّ، استفقنا من حماقات الهويّة والموروث، وأنت تدركين خفايا ذلك. والآن علينا أن نلتقي على طاولة واحدة لنعترف بأخطائنا وبكلّ شيء. وما أجزم به، بلا مبالغة، أنّنا، أنا وهيلين، نمتلك قناعات مختلفة عن الجميع، بل متمرّدة، فهمت أخيرًا أنّ زواجنا يمكن أن يكون حقيقة. والفضل في تحوّل موقف شيرا في الواقع يعود إلى الكثير من قصص الحبّ والزّواج التي علمت بها مؤخّرا من هيلين. ومن تلك القصص

حكاية الفنّان الهادي الجويني وزوجته اليهوديّة «وداد»، واسمها في الأصل «نينات». وهكذا تجاوزت شيرا هاجس الخوف والإصرار على الرّفض. فالحبّ، هذا الإحساس العظيم هو الذي جعل الهادي الجويني يُلقّب بـ«فرانك سناترا تونس». مع قبلاتي».

قرأتُ رسالة أبي في التّوقيت نفسه الذي قرأتُ فيه رسالة أمّي تقريبًا، وفي الغد غادرتُ باريس على عجل. ينبغي أن ألتقي بهيلين وأنظر في عينيها بعمق ثمّ أنتظر ما بوسعها أن تقوله لتبرير موقفها. كنت أعرف أنّي سأغفر لها، لن أرفع سورًا بيني وبينها ولا جدارًا بيني وبين سعد. وبالنّسبة إلى سعد، لن أفرّط في صداقتنا، سيكون من اللّازم أيضًا أن أبقى معه طويلًا. أحتاج إلى قبلاته، إلى حرارة أصابعه، وأحبّ فعلًا أن تتشابك في آخر الأمر أصابعنا، أنا وهيلين وسعد، حتّى لا نفترق مجدّدًا. لا أنسى ما كانت هيلين تقوله بكلّ ألم: «كدنا نضمحلّ من العالم لو تدرين».

عند لقائنا، أنا وأمّي، لزمنا الصّمت لبعض الوقت. كان الموقف محرجًا لكلينا، أمّي أغمضت عينيها وهي تبكي، ولم أحبّ في تلك الدّقائق انكسارها. تحسّست ذقنها الطّافح بالدّموع، وبذلتُ جهدًا كي أعيد إليها توازنها وكان لا بدّ أن نغادر الشقّة لنتحدّث. مشينا في الشّوارع ولم نختر أيّ اتّجاه. كانت هيلين تمسك بيدي وتسرّح نظرها بعيدًا. لا أعرف لماذا اختارت أن نسير باتّجاه الميناء، لا أعرف لماذا اختارت ذلك المكان المأسَويّ؟ ميناء فيوكس ظلّ كابوسًا في حياتنا، وفي حياة الأمّ شيرا على وجه التّحديد. اقتربت من أحد الأرصفة، كانت تحدّق فيه من بعيد ثمّ سارت نحو نقطة بعينها ووقفت.

بعد ذلك فتحت حقيبتها اليدويّة وأخرجت وردتين، انحنت أمّي ووضعت الوردتين بكامل هدوئها، استوَتْ إثر ذلك واقفةً وصلّتْ لروحي جدّها دانيال شاتبون وجدّتها إيلانيت، لَطالما بكتْهُما كما بكتهما الأمّ شيرا، ثمّ شبكت يديها على صدرها ففهمتُ أنّها كانت تعانق أمّها في تلك اللّحظات. جلسنا في ما بعد، اخترنا الجهة التي تُشرف على البواخر والزّوارق الرّاسية في رصيف الإخاء (Quai de la Fraternité)، قالت هيلين وهي تمسك بيدي:

-أنت لا تعرفين يا لارا قصّة هذا الميناء، بل إنّ بداية مارسيليا كانت مع هذا الميناء، تعود الحكاية إلى قصّة حبّ بين ابنة زعيم إحدى القبائل المحلّيّة والقائد الرّوماني بروتس.. بروتس العاشق لم يجد ما يعبّر به عن حبّه سوى أن يمنح حبيبته هذه القطعة من الأرض.

ترشّفت من فنجان القهوة ثمّ تابعت:

-ربّما تندهشين يا لارا، ربّما تندهشين لأنّنا هنا. في الحقيقة، مهما هربنا، ومهما أخفينا آلامنا فإنّ المواجهة حتميّة. الحق أنّ وجودنا هنا ليس صدفة، لمّا سرنا في الطّريق كنت أعرف الاتّجاه، كانت نظراتي غائمة، لكنّها تتطلّع إلى الميناء. لا بدّ أن أواجه المكان الذي مثّل لعائلتنا كابوسًا لسنوات طويلة، قلت في نفسي. فعلًا، كان يجب أن أتحرّر بشكل نهائيّ ومريح، ينبغي ألّا نصدع بنصف الحقيقة. الحقيقة يا لارا لا يمكن أن نختار منها ما نحبّ ونتعمّد إهمال الباقي ثمّ نرميه بلامبالاة. وها إنّ الزّمن يتعاقب بسرعة، فماذا ربحت من الهروب والكتمان

والخوف والكذب؟ أجل أنا كذبت وتعذّبت، وأعتقد أنّ الخوف كان بسبب تاريخنا. وهذا الميناء، وأنت تعرفين، شاهد على بعض تاريخنا. من إحدى البواخر هنا، تسلّلت عائلتي وعائلة إليف باتّجاه هذا الرّصيف، ومن هنا بدأت قصّتنا في مارسيليا.

صمتت أميّ، رفعت بصرها بعيدًا ثمّ تابعت:

- بعد شهر من ليلتنا المجنونة، أنا وسعد، يوم الثّالث عشر من مارس سنة 1992، اكتشفت أنّي حامل، لا يمكن أن أنسى تلك اللّيلة، لا يمكن أن تنساها أيّ امرأة وهبت كلّ شيء لحبيبها. أذكر ذاك الصّباح بتفاصيله، لم أكن على ما يرام، درجة الحرارة في جسمي كانت مرتفعة. بشكل مفاجئ وغريب أحسست بالغثيان، وكنت متعبة. تأمّلتُ وجهي في المرآة وأفزعني الاصفرار الذي شمله، كنت في غرفة الاغتسال أتلوّى وأتقيّأ، وفي ذلك اليوم قال الطّبيب لشيرا: «لا تقلقي السيّدة شيرا، هيلين حامل».

لم تسألني شيرا عن الحمل، اصفرّ وجهها في اللّحظة التي علمت فيها بالخبر، انكسرت عيناها ثمّ أخفت دموعها عنّي. عذّبتني دموعها ورجّتني في باطني، أحببت أن تسألني، أن توبّخني، أن تصرخ في وجهي، لم تفعل أيّ شيء على الإطلاق. بعد ذلك داهمتني الحمّى لأيّام، ثمّ غاب سعد، ذاب بشكل مباغت ومخيف، وعشّشت في رأسي الظّنون. كنت كأنّي في صحراء، معزولة ومختنقة، كلّ شيء في رأسي تلطّخ وتشوّه،

كلّ شيء يا لارا.

هتفتُ بلا تفكير، وربّما كنتُ صوتَ سعد في تلك اللّحظة:

-سعد في تلك الأيّام كان في السّجن، وكان يمكن أن تسألي عائلته في القصرين، ما الذي منعك من ذلك؟

أمسكت هيلين يدي واستأنفت:

-كلّ الظّروف كانت ضدّنا، وكلّ شيء كان مشوّشًا أيضًا. أعترف أنّ جرح الأنثى ألجمني، وحدود التّفكير كانت ضيّقة، وبعد ولادتك، قرّرتْ شيرا أن تخفيك عن سعد. لا أدري لماذا كانت مذعورة وهي تحضنك بحرقة، كانت خائفة من أن يظهر سعد ويطلبني للزّواج، وكانت خائفة أيضًا لأنّها تعلم أنّ تبعيّة ديانة الأبناء في الإسلام تعود إلى الأب. فعلاً، لقد سقطت شيرا في أسوإ الاحتمالات ولا أدري من كان يحشر في رأسها كُبّة صوفٍ مخبّلة. وعندما ظهر سعد كنت سجينة شيرا، مقيّدة بالفعل وحزينة، لذلك كذبت عليه. وكانت فكرة شيرا أن أدّعي أمامه أنّي خضت تجربة زواج فاشلة. وماذا فعل هو بعد ذلك؟ اكتفى بالصّمت، وانتهينا إلى طريق مسدودة.

باغتنا المطر ونحن في الميناء، كنّا نغتسل بحبّاته ونعترف، ولم نشأ أن نغادر جلستنا الحميمة. الشّيء المذهل أنّ هيلين استطاعت أن تُذيب كلّ الجليد الذي كان بيننا، ذوّبته باعترافاتها، ولم تخجل أمامي وهي تسرد لي وقائع تلك اللّيلة التي أخرجتني لهذا الوجود، «لم تكن حماقة، كانت لحظات تطهّر وسلام، عاشها كلانا، أنا وسعد»، قالت

هيلين وهي تضع رأسها على كتفي. استمعت أيضًا إلى أولى كلمات أبي، مرّرت لي هيلين الهاتف، تلقّيته بأصابع مرتعشة جائعة وعطشى. ليست المرّة الأولى التي أسمع فيها صوت أبي في الهاتف، تعوّدنا أن نتكلّم، أن نثرثر، أن نضحك، أن نقهقه. في هذه المرّة لم يحدث شيء من هذا، ألم نعد أصدقاء؟ لماذا تجمّدنا بذلك الشّكل؟ وكيف وصلني صوتُه بشكل مختلف؟ كان من الضّروري أن يعيش كلانا الصّرخة، وربّما هي صرخة الولادة، أعتقد أنّها كانت شبيهة بها. وصلتني رنّاته العذبة ثمّ سرت في باطني بشكل ساحر وغمرتني ببهجة حقيقيّة. ماذا قلت لأبي وأنا أشهق باكية، وماذا قال أبي بالتّحديد وهو يبكي؟ ثمّة أشياء لا توصف ولا تقال، ولا يمكن أن تُفسّر أيضًا. تلك الأحاسيس العجيبة غمرتني لأوّل مرّة. لأوّل مرّة يحتضنني أبي بكلّ طاقته، احتضنني بصوته ودموعه، أجل إنّه يعود إليّ من بعيد.

بعد عودتنا من الميناء أغلقت باب غرفتي وفكّرت في كلّ شيء حدث معي، استعدت الكثير من التّفاصيل، كيف كنت أمرّ على الكثير من تصرّفاتي دون تحليل؟ كيف كنت أقفز على المسائل بلا اجتهاد لتفسيرها؟ قرأت في أحد الكتب دراسة لكاتب أنجليزيّ على ما أتذكّر، يقول فيها: «إنّ قدر الأبناء هو في الكثير من الأحيان قدر الآباء، قد تختلف نسبة التّشابه، وقد تتغيّر التّفاصيل لكنّ التّشابه موجود». قدّم الكاتب أمثلة عديدة ودرسها من زوايا مختلفة، عقائديًّا وتربويًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا. وانتهى إلى استنتاج مهمّ: «الأبناء في الكثير من الحالات وهم يحرصون على الاختلاف عن آبائهم يلتقون في آخر المطاف في المجرى نفسه، أو في الاختيارات نفسها بمعنى آخر».

بدأت الحكاية معي في القسم الدّاخلي بمعهد اللّغات، شاء الحظّ أن أتقاسم غرفتي مع بشرى، وهي مسلمة من أصل مغربيّ. لم أعترض على قرار الإدارة وكذلك فعلَتْ هي، كانت تعلم أنّي يهوديّة ولم ترفض الاقتراح، أشرق وجهُها وهي تقبّلني ثمّ أغلقنا باب غرفتنا. في الحقيقة، ما دفعني أكثر إلى الموافقة على السكن مع بشرى هو موقف هيلين الغريب من سعد، الموقف الرّافض للزّواج من مسلم. طافت برأسي أسئلة غامضة، وفكّرتُ في ضرورة التعرّف إلى هذا الدّين.

حين تكون المسألة مرتبطة بالمعرفة أو بالعلوم بإمكاننا أن نتجاوز نعرات التعصّب القوميّ أو الدّينيّ، وذاك ما حدث بيني وبين بشرى. تأكّد لي أنّ بإمكاننا التحدّث بشكل عاديّ، بلا تعقيد أو أفكار مسبقة. كنّا على يقين أنّ ما يجمعنا جدير بالاهتمام، الولادة، العلم، العمل، الحبّ والموت، أليست هذه الكلمات عناوين لقواسم مشتركة؟ أمّا بقيّة التّفاصيل فبوسعنا أن نتركها لذواتنا، دون محاولة تضخيمها أو التّباهي بها، بمعنى أن نترك قناعاتنا وأفكارنا تسير بشكل طبيعيّ ولا شيء يجيز لشخص أن يُرغم شخصًا آخر على تبنّي أفكاره، هكذا كنّا نفكّر، أنا وبشرى. ولا أدري لماذا كنّا على درجة كبيرة من الانسجام والتّناسق؟ ربّما لأنّنا نحمل أفكارًا مختلفة، أفكار الشّباب المتحرّرة من الإرث الموبوء. بالفعل، هكذا كنّا نتعايش بلا عُقد، نحن عقليّة أخرى.

أحبّت بشرى أن أساعدها على تعلّم العبريّة، اعترفت لي في البداية بأنّها كانت تعتقد أنّ العبريّة هي لغة الصهيونيّة الحاقدة على

المسلمين. وفي تلك الأيّام شاهدنا صورًا بشعة لما يحصل في غزّة. الحقّ أنّي لم أحرص على الدّفاع عن العبريّة، باعتبارها لغة ساميّة، اكتفيت بأن قلت لبشرى: «ابحثي يا صديقتي وبعد ذلك حدّدي مواقفك.. عندما نقرأ بإمكاننا أن نتقارب».

وبعد أن قرأت بشرى قالت بنبرة واثقة: «أعتقد أنّ سبب رهبتنا هو الذّاكرة المشوّشة والتّاريخ المسيّس. لقد فرضوا علينا تاريخًا لم نشارك في صنعه، وعلينا نحن أن نصنع واقعنا ونتحرّر من كلّ التّأويلات. أجل، ما الذي يمنعنا من التحرّر بشكل إنسانيّ خلّاق دون أن نسيء بطبيعة الحال إلى هويّاتنا وأدياننا؟»

اندهشت بشرى وهي تكتشف التّشابه اللّغوي بين اللّغة العبريّة واللّغة العربيّة وأصرّت كلّ يوم على تعلّم كلمات جديدة. وكانت سعيدة بأن تردّد على مسمعي كلمات بالعربيّة ومرادفاتها بالعبريّة من قبيل: الأمّ (إما) والأب (أبا). ولم تكتف بذلك، فقد تحمّست لقراءة تراث التّوحيد، واطّلعت على كتب التّوراة الخمسة، وأُعجبت بكتاب التّكوين لما يشتمل عليه بالخصوص من ملاحم وأساطير. أمّا أنا فلم يكن الإسلام جديدًا على ثقافتي، الأمّ شيرا تحتفظ في شقّتنا بنسخة قديمة من القرآن جنبًا إلى جنب مع كتب التّوراة. هيلين أيضًا بحكم علاقتها بسعد كانت كثيرًا ما تحدّثني عن تاريخ المسلمين وعاداتهم، ولم أكن أرى اختلافات كبرى بيننا وبينهم وكان ذلك مثار دهشتي. ما كنت أحتاج إليه هو أن أعيش مع الإسلام الحيّ، من حيث الطّبائع والعادات واللّباس والأكل، لا يكفي أن نقرأ الكتب، هيلين قرأت كثيرًا ولم تتغيّر مواقفها. بشرى، في الحقيقة، لم تدّخر

جهدًا في مساعدتي على تعلّم العربيّة، لا سيّما في فهم مصطلحات كثيرة أراها غريبة ومستعصية. في الأيّام الأولى وجدتُ صعوبة في التّواصل معها، كنت أتكلّم باللّهجة الدّارجة التّونسيّة بحكم أنّها لهجة تواصلنا داخل العائلة، وأحيانًا أستعين بالفرنسيّة، ثمّ جرت الأمور بعد ذلك بشكل عاديّ.

في غرفتنا التي سمّيناها أنا وبشرى «سلام شالوم» عشنا انسجامًا رائعًا بين شابّتين تتمرّدان على الحدود وتُعيدان اكتشاف العالم. في شهر رمضان كنت أُجاري بشرى في صومها، نحضر الأكل إلى غرفتنا بعيدًا عن ضجيج المطعم. بشرى لا تصلّي إلّا في شهر رمضان، تضحك عندما أستفسرها عن الأمر ثمّ تقول: «إنّه الكسل يا لارا، وبعد إنهاء الدّراسة سيكون الأمر مختلفا». أنا أيضًا لم أنشأ في عائلة محافظة، نكتفي ببعض الطّقوس التي نراها ضروريّة. صديقتي تشاركني عشاء ليلة السّبت، وكنّا نحبّ أن تكون مائدتنا عامرة على خلاف بقيّة الأيّام، نشعل الشّموع معًا ثمّ نأكل بمنتهى الحميميّة. وبطبيعة الحال أمتنع عن شرب النّبيذ في حضرة بشرى، أمتنع عن ذلك رغم أنّها سمحت لي بشرب الكأس المقدّسة، المهمّ، نحن لا نعقّد الأمور ولا نختلف. كنّا نعرف أنّ غرفتنا محطّة استثنائيّة، هي محطّة للتعلّم والنّجاح بالأساس، لذلك غمرنا الحبّ، وازداد إيماننا بأنّ الحبّ وحده هو الجسر الذي يفضي إلى السّعادة، وكثيرا ما تقول لي بشرى: «شلوم عليخم»، وأردّ أنا: «السّلام عليكم».

لم أحسّ بالغربة بالفعل مع صديقتي المسلمة، وعندما أختلي بنفسي أستعرض بعض المواقف، أحاول فهمها أيضًا ولا أقدر. في

أيّام دراستي كنت مثل هيلين، لا أكتفي بإجابات سطحيّة. لي فضول عنيد، أعني فضولاً معرفيًّا، أوغل في البحث حتّى أطمئنّ للإجابة التي أريد، وذلك ما حصل لي يومًا مع إيهاب، أستاذ الأنجليزيّة. ناقشته يومها في مسألة النّازيّة الجديدة، ثمّ طرحتُ عليه بكلّ هدوء وبلغةٍ أنجليزيّةٍ طليقة السّؤالَ الذي كان يحيّرني وقتها: «لماذا تعود بعض الأحزاب والمجموعات اليمينيّة إلى النّازيّة اليوم؟»، ولكنّه اكتفى بالقول: «هذه الأسئلة ليست من اهتمامات درسنا». هكذا، وبكلّ غرابةٍ أهمل سؤالي، فشعرت بالاستياء، لم يكن سؤالي سخيفًا، كان يمكن أن يكون الأمر تلقائيًّا، لكنّ الأستاذ وضع سؤالي في خانة الممنوعات. صحيح أنّ الأستاذ يقدّم لنا الدّروس بشكل مرح، غير أنّه لا يقتحم الكثير من المواضيع التي بإمكانها أن تثري ثقافاتنا. هو يعرف أنّنا نختلف، نجلس أمامه بهويّات متغايرة، مسلمة ويهوديّة ومسيحيّة، وكان ينبغي أنّ يحرّرنا من كوابيسنا. وبشكل من أشكال التحدّي، قلت للأستاذ: «ببساطة، النازيّون الجدد يُعدّون محرقة أخرى، وهذه المرّة سيحرقون العالم».

ربّما كانت تلك الكلمات سببًا في تغيّر نظرة الأستاذ إليّ، لا أدري، أحسست أنّه لم يعد ينظر إليّ كطالبة في الثّانويّ تكتفي بالدّرس وتهتمّ بتغيير تنّورتها كلّ يوم. اكتشف أنّي مجادلة شرسة وهذا هو الأهمّ. وبالإضافة إلى ذلك أظنّ أنّ تلك الكلمات البسيطة والعفويّة حفرت أسًى عميقًا بداخله. لاحظتُ، وهكذا كان إحساسي، أنّه يتأهّب للتصريح بشيء، شيء ما يجعل صوته مختنقًا. وفي الحصّة الموالية قدّمت للأستاذ بحثًا موسّعًا عن مسألة النّازيّة الجديدة، قدّمته

بمنتهى الثّقة في النفس، اندهش لأنّي لم أتجاوز الأمر، وربّما لم يخطر بباله أن أفعل ذلك، وفي آخر تلك الحصّة اقترب منّي إيهاب وهمس:

«أنت لا تعرفين أنّ أمّي يهوديّة».

ما همس به إيهاب كان بمثابة سرّ مقدّس، ذلك السرّ الذي شدّنا كميثاق. وسيكون من اللّازم أن أعترف أنّنا التقينا في نقطة مدهشة لم نقدر على فكّ شفرتها. ولم يخذلني حدسي، كان إيهاب سجين هوّة، هوّة الحيرة حول تاريخه، أو تاريخ أمّه على الأقلّ. وربّما التقينا هناك ونحن نتحدّث أو نبحث أو نضحك. بالفعل، جرت الأحداث بسرعة ولم نعد نفترق، في الدّرس أو في أروقة المعهد أو في رسائلنا الإلكترونيّة. حدث بيننا ما يشبه الزّلزال، اكتشفتُ هذا الإحساس لأوّل مرّة، كان إحساسًا مذهلًا، لم نتحدّث قَطُّ عن الحبّ، لكنّ حواراتنا كانت طافحة بتلك الكلمة السحريّة. كتب لي في إحدى رسائله:

«طوال طفولتي كنتُ أدرك أنّ أسرتنا الصّغيرة غريبة بشكل لافت لأنّنا نعيش داخل أسرة ميزتها الاختلاف. أبي مسلم، من أصل تونسيّ، وأمّي يهوديّة أرمنيّة، عاشا قصّة حبّ في باريس، وانغمسا في كلّ تناقضات باريس ثمّ تزوّجا.. عندما كبرت أختي دلال، تخيّلي ذلك، اعتنقت المسيحيّة، أنا اخترت الإسلام، وعن قناعة اخترت ذلك، أمّا أختي الصّغري سارة فاختارت اليهوديّة. لم تكن اختلافاتنا لتمثّل مشكلًا، كنّا في منتهى الانسجام دومًا، لسنا محافظين، بالمعنى التّقليدي ولكنّنا نحبّ الحياة. لا أذكر أنّه حدث في بيتنا ما سبّب صدامًا أو صراعًا، كنّا نتحاور ونتكامل، وفي الأخير نلتقي في نقطة

مشتركة قائمة على الجمال والحبّ. أبي مهندس معماريّ وأمّي فنّانة تشكيليّة، وربّما كان ذلك سببًا في انصهارنا وتكتّلنا، بل كانت لقاءاتنا في المناسبات الدينيّة فرصًا متجدّدة ليقترب بعضنا من بعض أكثر. نحن نحيا في قمّة السّعادة، واستطاعت أمّي، في هذه الأجواء الرّائعة أن تكون سعيدة بحقّ. وبتلك السّعادة كنّا قادرين على إذابة الفزع من قلبها، وفي خضمّ كلّ ذلك لم تستطع نسيان محرقة الهولوكوست البشعة على الأرمن، ولم تتجاوز حقدَها على النّازيّة، وأعتقد أنّ لها الحقّ في كلّ ما تشعر به».

ثمّ ماذا بعد ذلك؟ سألتُ نفسي، ماذا سيحدث لي إن اختفى إيهاب من حياتي؟ ربّما، وبصورة قاطعة، سأصاب بخيبة كبرى. أنا في مرحلة اكتشاف الحبّ، هذا العالم لا أعرفه ولم يسبق أن خفق قلبي بهذا الشّكل المدوّي والسّاحر في الوقت نفسه. لم أُخفِ الأمر عن بُشرى، كان من الضّروري أن أفعل ذلك، فقد لاحظَت انزوائي المتعمّد، وكان فكري هو الذي يشرد، لا نظراتي. وإحساسها كان في الاتّجاه نفسه، قالت وهي تمسح على شعري، تمامًا كما تفعل هيلين: «ليست السّنة الأولى التي نعرف فيها الأستاذ إيهاب، ولا أعتقد على الإطلاق أنّه يهوى مثل الآخرين ذاك الابتزاز العاطفيّ المقرف».

لم يخطر ببالي ذلك اليوم أن يطلب منّي إيهاب أن نخرج معًا لشرب قهوة، خفضت رأسي وأنا أسمع طلبه، ارتبكت بالفعل وداهمني إعصار. لا أعرف كيف رتّبتُ أنفاسي ورافقته إلى المقهى، ربّما كان لقاءً منتظرًا، وكنت متشوّقة إلى تفاصيله. وفي مقابل ذلك كنت أعتقد أنّ اللّقاء لا يزال بعيدًا، لكنّنا التقينا. لم نتحدّث عن

الثّقافات ولا عن الأديان ولا عن الحبّ، اكتفى بإخراج صورة من أحد جيوب سترته ووضعها أمامي، اندهشتُ وأنا أرى وجهي، التقطت الصّورة من الطّاولة وقرّبتها منّي ثمّ صرخت:

– مذهلة.

قال إيهاب:

– رسمتها البارحة. أنت لا تعرفين طبعًا موهبتي في الرّسم، لقد ورثت ذلك عن أمّي.

قلت مستأذنة:

– هل تسمح لي بالاحتفاظ بها؟ ستكون ذكرى جميلة.

قال ونحن نغادر المقهى باتّجاه المعهد:

– الذّكرى تعني أنّنا نجلس جلسة وداع.. وأنا أحبّ أن تكون تلك الصّورة بدايتنا.

طرقت هيلين باب غرفتي ثمّ دخلت وهي تحمل طبقًا فيه فطائر البطاطس وكأسا نبيذ. فطائر البطاطس تُعدّها لي أمّي خصّيصًا عندما تكون على مزاج رائق، طبعًا هي أصبحت ماهرة بشكل ما في الطّبخ، تقف بجانب شيرا في المطبخ وتختزن في رأسها الوصفات السّحريّة، شيرا ماهرة بحقّ في إعداد أشهى المأكولات والحلويّات، وهيلين تحاول أن تقتفي أثرها، لا تحبّ أن تفتح كتب الطّبخ، «لا تُضيف الكثير إلى وصفات شيرا، ثمّ إنّ الطّبخ يحتاج إلى تدقيق»، هكذا تعتقد. وضعَت الطّبق بجانبي على السّرير ثمّ أغلقت النّافذة وجلست بجواري.

هيلين تحافظ على أناقتها ورشاقتها، لم يتغضّن وجهها، وعيناها تأويان العمق نفسه، عمق الأنثى أعني. تشمّمتُ، وهي تقابلني، عطرَها الدّاخلي. وأعترف أنّي كلّما ابتعدت عنها تخلخل اليقين في داخلي وشعرت بحاجة ماسّة إلى رعايتها. يكفي أن تنظر إليّ ليخفق قلبي، عيناها تقودانني إلى أعماقي، إلى حالة سكينة ملهمة. نظراتها هذه المرّة كانت أكثر عمقًا، خفق قلبي بشدّة وأنا أدقّق في ملامحها، المشاعر التي اجتاحتني كانت متقلّبة، لا أعرف السبب، لا أعرف بالتّدقيق، ربّما حدث لي ذلك وأنا أفكّر في إيهاب، «كيف سأحدّث هيلين عن إيهاب؟»، تساءلتُ في داخلي.

قرعت هيلين كأسها بكأسي، وراحت تتأمّلني بدورها. قرّبتُ كأسي من شفتيّ وشربت، بعد ذلك اقتربتُ منها وفتحتُ كفّ يدها اليمنى، تأمّلت خطوطها وقلت:

- خطوطنا متشابهة يا هيلين، وأعتقد أنّ قدري وقدرك متشابهان أيضًا.

شدّت على يدي ثمّ قالت ضاحكة:

- كنت أعرف يا قطّتي أنّك تخفين شيئًا، وأنا على يقين أنّ قلبك عرف طريق الحبّ.

كانت لحظة مرتبكة حين قرّبت شاشة الحاسوب من هيلين وفتحت أمامها صفحة إيهاب على الفايس بوك. تمعّنت في صور إيهاب، مع أفراد العائلة، في متحف اللّوفر، في ساحة الباستيل، في المعهد، في شاطئ حلق الوادي وأمام جامع الزّيتونة.

هتفت وهي تتوقّف عند صورة إيهاب في مدخل جامع الزّيتونة:

-وتخميني أيضًا في محلّه.

همست:

-إنّه أستاذ الأنجليزيّة، فعلًا هو تونسيّ ومسلم. وأخيرًا يا هيلين عرفت الحبّ، عرفته مع إيهاب، أعرف أنّي أفتقد التّجربة، ومع هذا إحساسي غير متسرّع. لست منبهرة بصورته كأستاذ، أعلم انفلاتات المراهقة، وقد مررت من شلّالاتها بسلام. لا أخفي عنك أنّ ما نعيشه حقًّا هو الحبّ بلا ريب.

ماذا أقول عن تلك اللّحظة بالتّحديد؟ تجمّدت وأنا أنتظر ردّة فعل هيلين. ردّة فعلها الأولى كانت تعني لي الكثير، ربّما خشيت من الرّفض، من الصّدمة، ومن انفجارها في وجهي. لم أتلقّ من تقاسيم وجهها ما كنت أخاف منه، دمعت عيناها وهي تحضنني بقوّة، وظلّت تنشج، ثمّ قالت:

-تأكّدي يا لارا، يا قطّتي، لن أسمح لأحد، حتّى أنا، لن أسمح بأن تعيشي تجربتي القاسية نفسها. امتلئي بإحساسك وكوني متأكّدة أوّلًا، الحبّ إحساس عظيم لا تفرّطي فيه.. أمامك الوقت لتتأكّدي من كلّ شيء، من قلبك أوّلًا ثمّ من قلب إيهاب. ولاحقًا، إن قرّرتما الزّواج، طبعًا، فإنّي سأبارك قراركما بمنتهى السّعادة.

فركَتْ كفّي وغمرتني بوميض عينيها ثمّ أضافت:

-كنت بالفعل أنتظر هذه المفاجأة، ألم تقولي لي ولسعد إنّك

تخفين مفاجأة؟ سعد أيضًا انشغل بمفاجأتك، وأعتقد أنّه سيكون سعيدًا بهذا الخبر. نحن عشنا في زمن آخر، في زمن مخلّفات الأحقاد وتشويه كلّ شيء، ولا أخفي عنك، نحن خسرنا الكثير، بل كنّا ضحايا. شيرا أيضًا اعترفت بأنّها أخطأت في حقّك أكثر، أنا لا ألومها، كانت تنزف وهي تصغي إلى أصوات تلك الفترة المعتمة ولم تدرك أنّ العالم تغيّر. «من يؤمن بنفسه لا ينهزم»، هكذا قال جبران خليل جبران، أنت لا تعرفينه بالتأكيد، هذا من زمننا الجميل، وأنا أقول لك: «من يتعلّم من أخطائه قادر على إدراك السّعادة، ألسنا نحلم بالسّعادة، وبشكل يوميّ يا قطّتي؟».

همستُ وأنا أنتفض في حضن أمّي:

- لا ريب ماما، لا ريب، وتلك أيضًا لعبة الأقدار، تاريخنا لم نصنعه نحن، تاريخنا صنعته الكراهيّة والأحقاد. أمّا نحن فجيل آخر، لسنا جيل الأزرار الباردة، نحن جيل الأزرار التي تفتح أمامنا دروب الجمال والحبّ والحريّة. لن ننغمس في خساراتنا القديمة، سنخسر الكثير إن فكّرنا بأنانيّة، نحن قادرون بالفعل على كسر العتمة. هل تذكرين؟ هل تذكرين ما رويته لي عن قصّة كنيس الغريبة في جربة؟ -أطلقت هيلين زفرات حارقة-.. تلك الفتاة الغامضة وهي ابنة كاهن يهوديّ وصلت إلى شواطئ جزيرة جربة في ظروف قاسية وعاشت في مبنى على وشك الانهيار.. وفي يوم ما احترق البيت ولكنّ جسد الفتاة لم يحترق، ماتت دون أن تحرقها ألسنة النّار وظلّت

تبتسم وهي ميّتة.. هي أسطورة، تعلّمنا بالفعل كيف نكافح ونحيا بسعادة رغم الألم.

همست هيلين ضاحكة وهي تطفئ الضّوء:

-بعد أيّام ستبدأ رحلتنا إلى تونس، لا بدّ أن نستعدّ كما ينبغي أيّتها القطّة، وطبعًا لن يشغلك إيهاب عن سعد.

(11)
هيلين

في حدود السّاعة الرّابعة مساء من يوم 10 ديسمبر حطّت بنا الطّائرة في مطار قرطاج، بتأخير ساعة، هذا التأخير الذي أصبح يزعجني في كلّ سفرة، لارا كانت تفضّل الباخرة، « تثيرني أمواج ديسمبر يا ماما»، قالت وهي تُراقبني بطرف عينها، وأنا سبقتها وحجزت تذكرتين عبر الخطوط التونسيّة. سعد، كعادته لا ينسى التّفاصيل، وهذه المرّة لاحظتُ وهو يسرع لاستقبالنا أنّه تغيّر كثيرًا. كان أنيقًا بالفعل، ارتدى بذلةً جديدة وربطة عنق، وليس من عادته أن يرتدي ربطة عنق، في العادة لا يعتني بمظهره ويُبقي لحيته مهملة وعندما أسأله يقول لي: «تلك موضة العصر». أحضر أيضًا باقتَي زهور، وهو يعرف ما تعنيه الزّهور لي. لا أستطيع أن أصف عاصفة اللّقاء، لقاء لارا وسعد أوّلًا، لدقائق وأنا أتابع بكثير من الفرح عناقهما، عناق لاهب، امتزجت فيه الآهات بالدّموع. لارا كانت مثل قطّة مبلّلة ومنكمشة، لا ترتوي من حضن والدها، وأنا كنت أنشج باستسلام وأرتعش مثلما يرتعش سعد ولارا. حاولت أن أصمد أمام ذلك الإحساس، في تلك الدّقائق لا بدّ أن يبقى أحد منّا ثابتًا وممسكًا بإدارة اللّقاء العاصف. وبعد ذلك انتشيت بعناق سعد،

كان حارقًا، تنغل فيه بقايا الحرمان، آخر بقايا الجوع والعطش. قبّلني سعد بجنون، تلامس جسدي بجسده والتقى وميضه بوميضي. أحسست بأنفاسه تخدّرني وتعرّيني وتطير بي في السّماء، وكنت أطير وأطير مثلما يطير سعد. لم أستطع أن أنتزع صدري من صدره، كنت مبتهجة ومنتشية وعطشى. سعد ظلّ يحدّق في عينيّ كأنّي أعود إليه من إحدى الأساطير، وبالفعل، كان علينا أن نصدّق أنّنا التقينا. وفي لحظة ما أغمضت عينيّ، كنت أحبّ أن أختزن هذا الفيض الرّائع من السّعادة، وربّما سألت نفسي: كيف فرّطنا في هذا الإحساس؟ وكيف ألغينا سنوات من عمرنا؟

لأوّل مرّة أكتشف أنّ سعد سائق ماهر، كان يشاغبني بيديه وهو يقود السيّارة نحو شارع مارسيليا، وأنا في الأثناء لا أُسقط عينيّ من وجهه، كنتُ نهمة في التقاط ملامحه وحركاته. لارا في المقعد الخلفيّ ظلّت تنزّه نظراتها في الطّريق وبين لحظة وأخرى تمسح على شعر سعد، ثمّ تمرّر كلمات مهموسة في أذنه وتتعمّد ألّا تجعلني أسمع همسها. يضحك سعد في الأثناء، يتلوّى بجانبي ويتحيّن الفرصة ليلامسني. كنت بحضرة مجنونين داخل السيّارة، والمجنونان يحرّكان انتفاضة حبّ ويقودانها بتنسيق محكم. وكنتُ أجهل حقًّا ما يجول في رأسيهما من تخطيط سرّي من تدبير سعد، وبمساعدة لارا. ومن جهتي كنت أُعدّ مخطّطي في منتهى الدقّة. فكّرت أنّني، بعد إنجاز ذلك المخطّط الذي حلمت به لسنوات، يمكن أن أغمض عينيّ بكامل الطّمأنينة وأصرخ: «لقد أنجزت المهمّة يا إليف. أخيرًا، تحقّقت وصيّتك، وبإمكانك أن ترقد بسلام».

فعلاً، لقد تغيّر سعد كثيرًا، كان مهتمّا بالتّفاصيل كلّها، وانشغل طيلة يومين بترتيب الشقّة وتنظيفها، كما قام بأعمال الصّيانة اللّازمة في المطبخ وغرفة الاستحمام. غيّر الفوانيس، استبدل مزلاج الباب الرّئيسي الذي يسبّب لي قرفًا، أمّا الثلاجة فقد وجدتُها عامرة بالخضر والغلال والمشروبات. وماذا أيضًا؟ لم أستطع أن أحصي كلّ ما فعله سعد من أجل إسعادنا. كنت أعرف أنّ ظروفه قاسية، فهو لا يعمل بانتظام، ومع هذا فعل كلّ ذلك، لم أطلب منه أن يفعل شيئًا، إنّه مجنون، ويُنجز كلّ شيء بحماس. تقع شقّتنا في الطّابق الأوّل من عمارة مشرفة على شارع مارسيليا. مارسيليا هنا وهناك! لا تبرحنا أبدًا. ظلّت الشقّة مغلقة لسنتين، سلّمتُ مفتاحها لسعد وطلبت منه أن يسكن فيها، كان طلبي ملحًّا، لكنّه رفض، أقسم ألّا تطأ قدماه الشقّة إلّا معي، ثمّ إنّه لا يستطيع أن يترك شقّته في صبّاط الدّزيري، وهو يخصّصها أحيانًا لتدريس الأطفال. أحضر سعد عشاءً باذخًا من أحد المطاعم القريبة، لم يشأ أن نذهب في ليلتنا الأولى إلى مطعم، أراد عشاء حميمًا، «العشاء الأوّل، لابّد أن يكون مقدّسًا»، قال سعد وهو يجلس بجواري على الطّاولة ويضع يده على يدي. ولأوّل مرّة أكتشف أنّه يثرثر، تحدّث طويلًا مع لارا، كان شغوفًا بكلّ تفاصيلها، في الدّراسة وفي حياتها اليوميّة. وكانت لارا تجاريه بحماس، لم تتردّد أيضًا في محادثته عن قصّتها مع إيهاب، عاينت ذلك الاحمرار في وجنتيها. رغم كلّ شيء، لارا تحافظ على خجلها، كانت على وعي بأنّها تصارح أباها لا صديقها، وسعد يُدرك أنّه لم يعد مجرّد صديق لها. في باطنها ينهض ذلك الشّعور بالخجل، الخجل الأنثوي

العفويّ، غير أنّها تتحدّث بلا ارتباك، مثلما حدّثتني عن حبيبها تمامًا. سعد كان يتابعها باهتمام، ولا ينسى أن يقرّب منّي شرائح اللّحم ويوصيني بالأكل. كان مبتهجًا بقصّة لارا، يضحك كطفل، وبين لحظة وأخرى يغمزها بطرف عينه، فتضحك لارا ويضحك سعد، ويثيرني ضحكهما الطّفولي، ورغم تعب السّفر كنت منتبهة ومنتعشة. ولا أخفي أنّ جسدي انفتح في تلك الآونة على شهوتي، شهوة الأنثى التي كانت خامدة لسنوات، ربّما هيّجتها أصابع سعد على شعري، كان يمرّرها بهدوء ورقّة ولا ينظر في عينيّ. أصابعه كانت شاردة، تبتكر خيالها اللّذيذ المتدفّق والصّاخب. ويكبر صخبي وتنساب قطرات العرق من نهديّ. كنت محتجزة على ما أعتقد، داخل إطار جامد، أو بالأحرى كنت أحتجز أنوثتي، وأُحكم عليها الخناق. منذ تلك اللّيلة المجنونة، منذ أكثر من سبع عشرة سنة لم يلمس جسدي جسد رجل، مضت تلك السّنوات ثقيلة ورتيبة، وكنت أسأل نفسي باندهاش: «هل أنا امرأة طبيعيّة؟ لماذا لم أفكّر في الجنس كأيّ امرأة؟» وأعترف أنّ المغامرات كانت متاحة لي، لا أعني إيزاك بطبيعة الحال، لا يمكن أن يحدث شيء من هذا القرف. لمّحت لي ماريا في مناسبات كثيرة، «لماذا لا يكون لك صديق يا هيلين؟ الأمر عادي وطبيعيّ، جرّبي بحذر ولا تنغلقي هكذا»، كانت تحاصرني بكلماتها. وأنا كنت جامدة وخرساء، سأكون وضيعة لو فكّرت في علاقة عابرة، علاقة سرير بارد، تنتهي بانتهاء لحظات اللّهاث، وبعد ذلك أحسّ بحالة غثيان وأحقد على جسدي. كنت أعرف أنّي غريبة الطّباع، صلبة مثل شيرا، تغمرني اهتزازاتُ امرأةٍ حائرة ولا يمكن

أن أعرف الحضيض. لم تنجح ماريا بالفعل في إغوائي. وفي ذروة الكبرياء أفتح كتابًا بجوارها ثمّ أغطس في عوالمه. في بعض اللّيالي أُحكم إغلاق باب غرفتي وأشرب بجنون حتّى أسكر، لا أحبّ أن أصل إلى حالة السُّكر في العادة، ولكن حينما تنتابني حالات اشتهاء أسكر بلا حدود. أتعرّى تمامًا وأرقص، أرقص على نغمات مختلفة، شرقيّة وغربيّة، نغمات صاخبة في الغالب، وبعد ذلك أرتمي على السّرير بكامل الاهتياج. ألامس وجهي وعنقي ثمّ أداعب نهديّ، ينزّ عرقي في الأثناء، تنفرج شفتاي ويسيح شعري بكامل فوضاه. أحضن ذراعيّ ويأتيني وجه سعد، يقتحم عزلتي برقّة ويلصق نفسه بنفسي، وينتظم شعري في كفّيه. أحضن سعد وأنشج وأتململ حتّى ترتخي عضلاتي. وأنا أحضن سعد مستلقية على ظهري أحسّ بتلك الارتعاشة الخفيفة والغامرة، وللحظات أجد ارتواءً في داخلي، يخفت صداع رأسي أيضًا ولا أكون في حاجة إلى حبوب مهدّئة. وفي بعض المرّات، أستيقظ من نومي وأنا أشعر بالمتعة، وبعد ذلك أكتشف أنّي مبلّلة، لم أخجل عندما حدّثت ماريا عن مغامرتي في الحلم، مثلما لا تخجل هي حين تحدّثني عن مغامراتها، ذاك الانفلات كان يسعدني، يمنحني انتعاشة وقتيّة. كنت أعرف على الأقلّ انتعاشة ما، وماريا، ببلاهة تظلّ تبحلق في عينيّ ثمّ تسألني: «إلى متى ستصمدين؟»

ارتفع كأس سعد أمامي ولم أنتبه، قرّب شفتيه من شفتيّ وطبع قبلةً خفيفة، أيقظتني من غفوتي، طعمها كان ساحرًا، ثارت شهوتي على إثرها مثل بركان وأحسستُ بالحرارة تكتسحني. ارتفعت كؤوسنا الثّلاثة والتمعت أمامنا، عينا سعد مرتخيتان هو أيضًا،

وشفتاه حاميتان. عندما انزاح الزّجاج من أمامي اشتهيتُ أن يقبّلني سعد، أحببت أن أتلذّذ بريقه، ولا أعرف كيف امتلك تلك القوّة وذاك الصّمود. انسلّ من جلستنا بسرعة، قبّل لارا وحضنها ثمّ قبّلني على خديّ ومضى إلى شقّته في صبّاط الدّزيري.

12 ديسمبر 2010 يوم سيبقى منقوشًا في ذاكرتي، وكذا ذاكرة سعد ولارا، لا يمكن أن أنسى روعة ذلك اليوم ولا جنونه. كنت نائمةً عندما اقتحم سعد غرفتي، تمدّد بجواري على السّرير وطبع قبلة على خدّي. فتحتُ عينيّ وأنا أشتمّ رائحته، باغتني حضوره المبكّر، في العاشرة صباحًا. لم يخطر ببالي أن يحضر في ذلك المظهر، كان أنيقًا بشكل رائع، عطره أسكرني، حدّقت في وجهه باندهاش، فركتُ عينيّ ثمّ احتضنته بقوّة، لم أتكلّم، ولم يتكلّم هو، ضغط على يدي بحنان ثمّ أخذني من ذراعي وسرنا باتّجاه الصّالون. فوجئت بلارا أيضًا، في العادة لا تنهض باكرًا، تتكاسل وتحبّ أن تتناول فطور الصّباح في الفراش وهي منشغلة بحاسوبها.

سألت وأنا أخرج من بيت الاستحمام:

- ما الحكاية؟

ضحكت لارا وضحك سعد، ضحكا معًا وتغامزا ولم يرفعا بصرهما نحوي. أمر غريب ما كان يحدث، لم أكن في حلم على أيّة حال. هامت نظراتي بعيدًا وأنا أشرب قهوتي، انتبهت إلى أنّ لارا كانت متأنّقة ومستعدّة للخروج، قالت وهي لا تتوقّف عن الضّحك:

-أمامك دقائق ماما لكي تتأنّقي مثلنا، لا تتأخّري، نحن

بانتظارك.

بعد دقائق كنّا في السيّارة، تعمّدتُ ألّا أسأل سعد ولا لارا عن الوجهة، حامت في رأسي أفكار كثيرة. ستكون بلا شكّ مفاجأة من مفاجآت سعد، أعرف جنونه، وخمّنت أنّ وجهتنا ستكون القصرين. انزعجت في تلك اللّحظات لأنّي لم أفكّر في اقتناء هديّة للخالة منجيّة، وفكّرت في أنّني سأفعل ذلك في الطّريق، لن أقابل منجيّة بيد فارغة، ماذا ستقول عنّي؟ كنت أعرف اتّجاه القصرين، لم يتّجه سعد نحو الطّريق السيّارة، اتّجه نحو باب الجديد ثمّ القصبة، وقفت السّيارة أمام الباب الحديديّ الكبير لبلديّة تونس، واستأذن سعد العون في الدّخول. بعد ذلك كنّا داخل قاعة فسيحة، وكان كلّ شيء جاهزًا. قلت في نفسي من الواضح أنّ سعد ولارا خطّطا جيّدًا، وفكّرا في كلّ التّفاصيل. كيف لم أنتبه إلى كلّ ما كان يحصل في الخفاء؟ حضرت خالتي منجيّة ونور، ارتديتا زيًّا تقليديًّا وكانتا في منتهى الفرح. تخيّلت في تلك الآونة والخالة تهمس في أذن سعد ضاحكة أنّها قالت له: «في الأخير تزوّجت يهوديّة يا فرخ الحرام؟». حضر جوهر ورجل آخر، عرفت بعد ذلك أنّ اسمه صلاح، صديق سعد، وبالإضافة إلى ذلك رأيت كلّ وثائقي لدى ضابط الحالة المدنيّة، وكان متأنّقًا هو أيضًا ببذلة سوداء وقميص أبيض، راقني وشاحه المحمول على كتفه الأيمن بلونيه الأحمر والأبيض وصفيحة البرونز التي توثّق طرفيْه في مستوى الخصر الأيسر. مدهش فعلاً هذا الوشاح لما يحمله من هيبة ومن معان سامية، ولا ينسى ضابط الحالة المدنيّة المتأنّق أن ينشر ابتسامة صريحة باتّجاه الجميع. خيّل إليّ أنّ سعد قد أيقظه قبلنا مبكّرًا

في الصباح وأوصاه بأن يتأنّق خصّيصا لتلك اللحظة الفارقة من حياتنا. تلا نصًّا قانونيًّا خاصًّا بإبرام عقود الزّواج ثمّ أكّد على غياب الموانع، الموانع الصحيّة والقانونيّة ما دمتُ أمتلك جنسيّة تونسيّة. توقّف عند تلك الموانع لأنّه كان على علمٍ بديانتي، وكان عليه أن يدقّق المسألة ويفسّرها على مسمع من الجميع، ثمّ التفت إليّ وسألني:

- السيدة هيلين ساسون، هل توافقين على الاقتران بالسيّد سعد الخلفاوي؟

أومأتُ برأسي موافقة ثمّ قلت:

- موافقة، أجل، موافقة.

ثمّ طرح السّؤال نفسه على سعد:

- طبعًا، طبعًا، أوافق وبكلّ سعادة.

دعي جوهر وصلاح بعد ذلك ليكونا شاهدين على عقد القران، ثمّ شرع الجميع في تلاوة الفاتحة. أمّا أنا فصلّيت في سرّي وشكرت الربّ على هذه اللّحظات الرّائعة التي تأخّرت كثيرًا. جوهر اكتفى بالمتابعة، أمّا لارا فكانت تمسك يدي بقوّة، دمعت عيناها وهي تلتصق بي. الخالة منجيّة أطلقت زغرودة مدوّية، كانت منشرحة بحقّ وهي تحضنني ثمّ تحضن سعد ولارا، وبعد ذلك انفردت بي وهمست في أذني: «دوّري الحزام يا هيلانة، راني باش نستنّى إبراهيم وليّ العهد».

لم يتوقّف جنون سعد عند هذا الحدّ، السيناريو كان محكمًا بعناية، بعد ساعتين تقريبًا وصلنا أنا وسعد إلى نزل فاخر في جربة، كانت رحلتنا قصيرة وممتعة على متن الطّائرة، وطوال الرّحلة كان سعد

يمسك بيدي. لم نتكلّم كثيرًا، إحساسنا بالبهجة كان أكبر من أن نتحدّث عنه، وهذا أمرٌ طبيعيّ. عندما يتحوّل الحلم إلى حقيقة تعجز الكلمات عن الإحاطة به. كنّا نتحرّق شوقًا إلى الوقوف وجهًا لوجه، إلى أن نتشمّم عميقًا عطرنا الدّاخلي الذي ظلّ يكافح لسنوات.

ماذا أقول عن ليلتنا في جربة، هل أنا قادرة على وصف كلّ شيء؟ كلّ ما حدث معنا لم يكن من السّهل أن أصدّقه، عندما يطرق أبوابنا الحلم بعد طول غياب، ويعانقنا بحرارة، فإنّنا نحبّ الحياة برغبة أكبر وحماس أكبر وشراسة أكبر. أيقنت في تلك اللّيلة أنّي أولد من جديد، على صدى صرخة خفيّة بين يدي سعد، كنت أتحرّر وأركض بعيدًا بعيدًا. وفي مقابل ذلك، لا أدري لماذا داهمني ذلك الإحساس المباغت والمخيف؟ أحسست في لحظة ما أنّ الأرض تتحرّك تحتي وأنا أرقص مع سعد، لم أشرب كثيرًا مثلما شرب، كنت أرقص وأسأل نفسي: «حركة الأرض تحتي، هل هي حقيقة أم خيال؟ لا أدري، لا أدري».

الفراش في غرفتنا الذّاهلة كان مساحة عارية، متلألئة وضاجّة، انغمسنا في الشّغف بكلّ جوعنا وعطشنا، بكلّ طمأنينة وراحة بال، بكلّ جموح، بكلّ أشواق الدّنيا كان عناقنا، وكانت قبلاتنا، وكان اشتعالنا، كأنّنا نركض خارج الزّمن، خارج المعقول، نلامس السّماء، وأقدامنا من الخلف تسحق تلك اللّيالي الباردة، وتركلها بكلّ قوّة إلى سلّة المهملات. كان زمننا يجري ويركض ويوسّع زفراته، وفي قاطرته الواسعة تحرّرنا. في تلك اللّيلة، ابتكرنا أصابع خفيّةً ناعمة، وحلّقنا في الأساطير والخرافات، حلّقنا بعيدًا عن هذا العالم البارد، وأضأنا طريقنا بتوهّج أرواحنا. حين نرى البحر، نصير بحرًا ونتماوج ونحن

نلتحم، وحين تُلامسنا النسمة، تزهر فينا حدائق من الشوق ونتلاقح مثل الأزهار. أيّها الربّ، يا خالق السّماوات والأرض، إنّه الوله الذي يجعل العبد مَلِكًا والخادمَ سلطانًا، إنّه الغرام يا واهب الأنوار والأسرار.

عندما كنتُ طفلة زرتُ جربة أيّام «حجّة الغريبة»، كنت مذهولة وأنا أمشي بجوار أمّي، أسمع الأذان، ثمّ أسمع جرس الكنيسة، وتتناهى إليّ دقّات جرس المعبد، أسأل أمّي في استغراب فتقول لي: «الجميع هنا يصلّون لله الواحد».

في الممرّ الضيّق الذي يؤدّي إلى ساحة الاحتفال كنت أتلذّذ بروائح المأكولات، وكنت أعرف بعض تلك الرّوائح، أرى باعة الحليّ والأقمشة وزيت الزّيتون، وأسمع مزيجًا مختلفًا من الأغاني، تُعدّدها شيرا بجانبي: «صليحة وحبيبة مسيكة والشّيخ العفريت والهادي الجويني وعبد الحليم حافظ وأمّ كلثوم». قبل دخولنا إلى المعبد، أكّدت أمّي على واجب الاحتشام وخلع الحذاء، وضعَتْ قطعة قماش على رأسها وغطَّتْ به جزءًا منه، أمّا أنا فبقي شعري مكشوفًا. وبالدّاخل رأيت وجوهًا كثيرة، كانت ضاجّة وسعيدة، الفتيات يرتدين تنانير وفساتين ويتزيّنّ بالمساحيق. والرجال أيضًا مختلفون، منهم من يرتدي قلنسوّة سوداء أو بيضاء ومنهم من يرتدي الشاشيّة. أشعلت شيرا شمعتين، سلّمتني واحدة واحتفظت بالأخرى، «تلك هي شمعة الأماني»، همست شيرا. بعد ذلك كتبت أمنيتي على بيضتي، كنت بطيئة وأنا أكتب ما أحسست به لحظتها: «الحبّ والسّلام».. أذكر فعلاً ما كتبتُ، هل كنتُ واعيةً

وأنا أكتب ذلك؟ سِرْنا بعدها إلى الجانب الأيمن للمعبد وتناولنا بعض الأكلات، احتسيت أيضًا ولأوّل مرّة نبيذ البوخا. كنت أقفز من مكان إلى آخر، بمنتهى السّعادة، أجري بكلّ حماس كما يجري الأطفال وكانت شيرا تجري معي بنظراتها وتتبعني بعينيها.

عادت إليّ كلّ تلك الأصوات والرّوائح والألوان وأنا مشتعلة في حضن سعد، أضع يديّ في يديه وألصق صدري بصدره. وكان يحلو لي أن أمرّر أصابعي على شعره وهو نائم بجواري، يغمرني بأنفاسه، وكانت الصّور تتوافد عليّ بغير انتظام، في الكليّة، في شقّة سعد، في مقهى التياترو، في مقهى باريس، في مارسيليا، في حمّام الحريم، في مقهى الشوّاشين، كلّ الأمكنة كانت أمكنتنا، كانت ملكًا لنا. ولمّا استفاق سعد، همست له:

– لا بدّ أن نعود إلى جربة وقت الحجّ يا سعد، أمنيتي أن نحجّ معًا إلى الغريبة.

مسك سعد كفّي وراح يفركه بأصابعه ثمّ ذبنا من جديد في المساحة العارية، سعد لا يشبع من عناقي، يجرّني إلى كلّ التّخوم، وأنا لا أشبع أيضًا وأظلّ غارقة في عطره.

عدنا في الغد إلى شقّتنا، الأمر لم يكن متعلّقًا بلارا، كان لا بدّ أن أفكّر في التزاماتي الأخرى. أراد سعد أن نبقى ليلة أخرى، أو ليلتين، كان مغتبطًا ومنتشيًا، وفي الأخير عدنا. طبعًا، في زواجنا لم نتقيّد بأيّ تقاليد، حتّى إنّ الخالة منجيّة غضبت لأنّنا لم نُقم حفلًا في بيتها، قطّبت جبينها وهي تحتجّ على سعد، لامتني نظراتها وربّما قالت

في سرّها: «فردة ولقات أختها.. فرخ الحرام ولقا فرخة الحرام». وفي الأثناء لم أنس أن أخبر شيرا، صمتت أمّي وهي تسمعني، «لم نفكّر في الأمر يا شيرا، كان مُفاجئًا، ولارا هي التي أصرّت على ذلك.. لا أحبّ صمتك يا شيرا، إنّه يعذّبني»، قلت لها بمنتهى الدّلال.. واستطعتُ في آخر الأمر أن أنتزع منها ضحكة، كانت ضحكة خفيفة لكنّها أراحتني. كم أحببت أن تحضر شيرا، وكم عذّبني غيابها، ماذا أفعل للمجنونَيْن؟ لم يتركا لي أيّ مجال للتّفكير، وبالفعل، تساءلت: «لماذا تمّ زواجنا بتلك السّرعة؟».

مفاجآت سعد لم تتوقّف، وهذه المرّة أعدّ مفاجأة للارا، كانت في الواقع فكرة جوهر. العزيز جوهر زارنا رفقة خافا، كان سعيدا حقًّا بزواجنا، مدّ ذراعيه نحوي وهو يهنّئني، ولم يكن بوسعي ألّا أتأثّر بدموعه التي ترقرقت في عينيه. خافا أيضًا كانت مبتهجة وهي تقدّم لي باقة زهور، ومن الواضح أنّها انتقتها بعناية. اندهشت لمّا رأَتْ سعد، هنّأته وعانقته بزهو، «أيّها الرّجل الرّائع، لا أصدّق أنّك أنت من اختطف قلب أميرتنا»، قالت ضاحكة.

في الحقيقة، لا أعرف حلق الوادي بشكل جيّد، كنت أسمع عن وجود عائلات يهوديّة قليلة، صحيح أنّ أغلبها هاجر في السّتّينيات والسّبعينيات، لكنّ آثارهم باقية. وهذا ما اكتشفناه عندما دخلنا إلى كازينو هادئ، قريب من دار المسنّين المخصّصة لليهود التّونسيّين. المدخل مزدان بالأشجار والزّهور، على غاية من الدقّة والأناقة، وفي قاعة المطعم عُلّقت اللّوحات الزّيتيّة بإتقان. قرأنا لافتة ترحاب باللّغات الأربع، العربيّة والعبريّة والفرنسيّة والأنجليزيّة. ثمّة جناح

صغير فيه كُتب بأكثر من لغة، مرصّفة بعناية وتحيط بها الزّهور. المطعم لم يكن كما انتظرت، له هندسة بسيطة، وقاعة المطعم منفتحة على المطبخ، بمعنى أنّ الكازينو هو مشروع ثقافيّ يحمل لمسات فنيّة مبهرة. صوت حبيبة مسيكة كان رائعًا وأنا في حضرة سعد ولارا، المجنونة! أحبّ صوتها المقتحم والجريء، يجعلني لا أغادر الحلم. استقبلنا جاكوب، صديق جوهر بكلّ حفاوة وحماس، ومن الواضح أنّه كان ينتظرنا بناءً على توصيات صديقه. جاكوب وُلد في حلق الوادي، سافر إلى باريس مثل الكثيرين وعاد بعد سنوات لينفّذ حلمه وهو إنشاء مطعم متخصّص في كاشير أو الطّعام الحلال، لم يشأ أن يكون المطعم عصريًّا وتجاريًّا، أراد أن يكون تصميمه مميّزًا، يغلب عليه الطّابع الثقافيّ.

قال جاكوب وهو يُعدّ طاولتنا ثمّ يضع صينيّة الغلال والابتسامة لا تغيب عن وجهه:

- أشكر جوهر لأنّه منحني كلّ هذه الثّقة، في الواقع أنا والأمّ ليلي نحرص على جودة الأكل، طبعًا نحن نعرف بالطّعام الحلال، ونتميّز بأُكلَتَيْ الكسكس والعقد.. ستجدون كلّ الحضارات هنا، ومن حظّكم هذه اللّيلة أنّكم ستتذوّقون ما تشتهون، جوهر، بالتّأكيد، لا يردّ له طلب.

في تلك الآونة همستُ في أذن سعد: «العقد أكلة إسبانيّة، كانوا يقدّمونها لمصارعي الثّيران، وهي أيضًا مثيرة للشّهوة الجنسيّة».

ردّ هامسًا: «إذن سيكون تركيزي بالكامل على العقد».

قالت ليلي والدة جاكوب وهي تمرّ بطاولتنا:

- كانت قاعة سينما راكس في الستّينيات تفتح أبوابها خلال أعياد الأديان السماويّة الثلاثة، وتعرض الأفلام للأطفال مجّانًا.. الأطفال من جميع الأديان هنا كانوا يتردّدون على راكس لمشاهدة الأفلام.. يتردّدون عليها في أعياد الفطر والأضحى ونوال وبوريم، أين نحن من ذاك الزّمن الجميل؟

كانت ليلتنا استثنائيّة حقًّا، المسألة لا تتعلّق بلذّة المأكولات التي قدّمها لنا جاكوب وإنّما بتلك الأجواء الرّوحيّة المنعشة في الكازينو. لم أرَ لارا منذ سنوات بتلك الغبطة، كانت منتعشة بكلّ شيء، بالهواء، بالموسيقى، بالألوان، وبحضن سعد. تسرّب الدّفء إلى أوصالي أنا أيضًا وأنا أمسك بيد سعد بصورة لاشعوريّة، وسعد كان يأكل بنهم، يأكل ولا يشرب كثيرًا مثلما عرفته في البدايات. أحسستُ وأنا أتأملّ جلستنا أنّ ثمّة يدًا خفيّة كانت تشدّنا إلى بعض، كنت أُمعن التّحديق في وجه سعد، وهو يأكل، وهو يشرب، وهو يستمتع بأغاني حبيبة مسيكة، وأهذي وأنا أمتلئ به. هو لا ينسى بين فينة وأخرى أن يقبّلني أو يشدّ على فخذي مشاكسًا، سعد طفل لا يكبر، يظلّ مشاغبًا، بشكل عفويّ. ولَكَمْ كنتُ سعيدةً لسعادة لارا أيضًا، فما مرّ بها لم يكن أمرًا هيّنًا، كان يمكن أن تسقط في هوّة اليأس، بل نسقط جميعًا في تلك الهوّة. هكذا عرفنا أخيرًا كيف نقتحم. الاقتحام، بلا شكّ يسوّي الأمور الجامدة والعالقة. أمّا التردّد، ذاك الماء الآسن فيعكّر كلّ شيء، بل هو خانق وقاتل. ألم أكن ميّتة؟ بالفعل، سقط القناع الآن، سقط بلا عودة. وسنعرف، أنا على يقين، سنعرف

الشّغف أكثر، الشّغف هو ما يجعلنا نحيا. ولا أنكر أنّي حينما كنت غارقة في وجه سعد داهمتني رغبة في الإنجاب، سيكون ذلك هديّة له، لسعد المجنون، أنا مدينة له بكلّ شيء.

مضى زمن السّعادة بسرعة لافتة، على خلاف زمن الحزن الذي كان ينعق ويتمطّط. لقد تطهّرتُ فعلًا، ونهضت بهجتي العميقة من سراديب الغياب، بهجة الرّوح تقود إلى بهجة الجسد، وجسدي تعطّر بأنفاس سعد وبجنون سعد. وفي هذا الوقت الضيّق لم أنسَ التزاماتي، كان عليّ أوّلاً أن أذهب إلى السّفارة الفرنسيّة لتسوية وضعيّة سعد، اتّفقنا أخيرًا على الاستقرار في مارسيليا. وكان منطقيًّا أن أفكّر في شيرا. حين أعلمتها بالخبر ابتهجت، أعرف أنّ شيرا حين تتنهّد تكون في أحسن حالاتها، تتنهّد بارتياح وتعلن أنّها في غاية الاطمئنان.

أمكن لي أن أدخل السّفارة بكلّ يسر، استظهرت ببطاقتي المهنيّة القديمة وتوجّهتُ إلى مكتبي. وجدتُه كما تركتُه قبل سنوات، ما تغيّر فقط هو غياب المزهريّة. قلت في نفسي: من الواضح أنّ الفتاة الشّقراء التي رحّبت بي لا تحبّ الزّهور، كانت منهمكة في حاسوبها، أسنانها الأماميّة بارزة بشكل غير مريح، ولكن عندما تغلق فمها يكون وجهها ساحرًا.

قلت وأنا أتطلّع إلى اللّوحة الجداريّة:

-على ما أذكر، كانت هناك لوحة أخرى، وأظنّها أكثر واقعيّة وجماليّة.. المشهد السّاحر لشارع الحبيب بورقيبة ليلًا كان لا يفارقني.. أمّا مشهد الغروب فهو تقليديّ، رومنسيّ، هذا

صحيح، لكنّه غير آسر.

ضحكت الشّقراء وهي تتأمّل ملامحي، سحبت سيجارة من علبتها ثمّ قالت:

-مرحبا، أنا لم أفهم شيئًا، هل أنت موظّفة في السّفارة؟

-أنا آسفة، اقتحمتُ المكتب دون تقديم نفسي، بالفعل كنت في هذا المكان الذي تجلسين فيه، اشتغلت في السّفارة بشكل وقتيّ لسنوات، كنت مهتمّة بالتّرجمة ومتابعة ما يُكتب في الجرائد والمجلّات عن فرنسا. وأعتقد أنّ ذكرياتي طيّبة في هذا المكتب.

-أووه... مهامّي الآن أصبحت كثيرة ومعقّدة، أنت تعرفين أنّ إقبال الشّباب على الهجرة إلى باريس أصبح شغلنا اليوميّ. النّظام هنا لم يستطع أن يقدّم لهم شيئًا مريحًا. هل أنت على علم؟ الوضع هذه الأيّام في غاية الإحراج.

غادرتُ مكتبي القديم وتوجّهت إلى مكتب السيّد أندريه، صديق إليف، كنت في حاجة إلى مشاكساته، ذلك الرّجل الرّائع. لم أجد السيّد أندريه، «أحيل على شرف المهنة وعاد إلى باريس»، قال لي الموظّف الشّابّ. ما أذكره أنّي قدّمت له ذات يوم تقريرًا عن الوضع القاتم في حيّ الزّهور، كان تقريرًا مفصّلًا بالفعل، قلت للسيّد أندريه على ما أذكر: «لا أدري، كيف يكون الأمر، لكن يجب أن تلفت السّفارة انتباه النّظام هنا، كيف يتجاهلون ذلك الوضع الخانق في القصرين؟ يا إلهي، إنّه وضع بائس جدًّا».

قضّيتُ وقتًا ممتعًا في السّفارة وأمكن لي، بفضل خبرتي، أن أسوّي وضعيّة سعد، طبعًا هم يحتاجون إلى سعد للإمضاء على بعض الوثائق. ما استرعى انتباهي هو تلك الطّوابير الطّويلة التي تقف في الخارج، نظرات الجميع كانت قلقة ومنكسرة. أمام باب السّفارة اعترضتني امرأة عجوز، اعتقدت أنّها متسوّلة وفكّرت في أن أمنحها شيئًا من المال، وقفَتْ قبالتي وتفحّصتني ثمّ قالت بنبرة مرهقة:

-هل سيسمحون لابني بالسّفر؟ هل سيسمحون له يا ابنتي؟ إنّهم يطاردونه، وقد يقتلونه في السّجن.

شدّت على يدي وهي تسألني بإلحاح، كانت كلماتها مُربِكة. اكتفيتُ بتهدئتها ولم أقدّم لها إجابة واضحة، أحسست بالخواء وأنا أرى دموعها، الدّموع تنهشني، ترجّني بشكل خانق، لا أدري لماذا رأيت في تلك الآونة عينَيْ أمّي في عينيها، إنّها تجعلني عرجاء وعاجزة. سرتُ بعد ذلك نحو شارع مارسيليا، ابن خلدون يظلّ حيًّا بأقواله، كان يعرف ما سيجري مع النّاس بعد مئات السّنوات، كان يدرك أنّ الحكّام سيظلّون أغبياء، يشغلهم حاضرهم عن المستقبل، ويتجاهلون بطبيعة الحال دروس الماضي. باغتتني الصّور القويّة في شارع الحبيب بورقيبة، التفتُّ يمينًا وتطلّعت إلى مقهى التياترو، ثمّ مقهى باريس، تلك الصّور القديمة ترافقني دومًا، وتمنح طعمًا لحياتي. وقفتُ بُرهةً، اختزنت بعض الصّور الجديدة، سعد هذه الأيّام لم يعد متشوّقًا إلى مقهى باريس ولا إلى البار، يفضّل أن يبقى معنا، أنا ولارا، لم أقيّده بشيء، هو يعرف أنّي لا أضع حبلًا في العنق. تفطّنتُ إلى أنّ جوهر يتّصل بي في الهاتف ولم أردّ عليه. في زحمة انشغالي أهملتُ مكالمته،

كنت أنتظر بالفعل أن يخبرني عن الجديد. وأعتقد أنّ الوقت قد حان لنبدأ تنفيذ مخطّطنا الذي فكّرنا فيه طويلًا. والآن، لا أرى أيّ سبب يحول دون تحقيق حلم مئات السّنوات.

اتصلتُ بجوهر وأنا لا أتوقّف عن السّير، قلت له مؤكّدة:

-نلتقي مساءً في شقّتك، وسنمرّ إلى المرحلة الحاسمة يا جوهر.

ردّ جوهر:

-أعتقد أنّ الساعة الصّفر حانت يا هيلين.

(12)

سعد

أحتاجُ الآن إلى زمنٍ طويل، زمنٍ أخرس يخرج من فوّهة التّاريخ أو من فم الأساطير، زمن لا يعرف الضّجيج. أحتاج إلى أن أبقى مسجًّى ومخدّرا بالأدوية، لا أتذكّر أيّ شيء، لا أفكّر في شيء، ولا أرتّب صورةً واحدةً في رأسي، وفي كلّ الأحوال لا بدّ أن أكتب، ولو بتأخير خارج عن إرادتي، لا بدّ أن أكتب شيئًا.

أنا الآن داخل الشّرنقة، عاريًا تمامًا، أو بلباس أبيض، لست أدري، يلفّني الضّباب ويُمعن في امتصاص دمي. لا أنكمش، وأهبه كلّ الشّرايين عن طيب خاطر، أيّها الضّباب، أشير إليه بأصابعي، أيّها الضّباب اشرب كلّ دمي، اشربه في رشفة واحدة، لا تتردّد، اطمئنّ أيّها الضّباب، لن أحقد عليك في لحظة الموت. لا فائدة في ما تفعله الممرّضة معي، لا فائدة، ولا أمل أيّها الطّبيب، ابتسامتك المشجّعة تصلني مثل صفعة مدوّية على خدّي، يحمرّ خدّي ويشمله الأزرق الغامق، لماذا تُسرع بحقنة أخرى أيّها الرّجل الطيّب؟ أنا مستسلم لكلّ تشنّجاتي، أريدها أن تتفاقم، أريدها أن تُهيّج نزيف القلب ما أمكن. أحبّ أن أنعس حتّى لا أسمع قدري وهو ينعق بنبراته الهازئة: «ها إنّك تدفع الثّمن يا سعد، من قال لك إنّك تستحقّ السّعادة؟ من

كذب عليك؟» يقهقه قدري، ويقتلع شعري وأذنيّ وأنفي وشفتيّ، ثمّ يختفي كالمارد الجبّار.

تقف لارا أمام غرفتي في مستشفى شارل نيكول، مرتعشة ومبلّلة بدموعها، غارقة مثلي، مسجونة داخل هوّة. أرى أحيانًا عيني لارا بمنتهى الوضوح، تقول لها الممرّضة: «إنّي آسفة، والدك يحتاج إلى ساعات أخرى ليستفيق من غيبوبته». لا أسمع تنبيه الممرّضة، فقط أتابع شفتيها. حين تقتحم لارا غرفتي في غفلة من الشّرطيّين أراها، أرى دموعها ولا أسمع نشيجها ولا كلماتها. أعود في تلك اللّحظات إلى كوابيسي، ينغلق عليّ الكهف في وادي الدّرب، العنكبوت لا تترك لي أيّ مجال لأهرب، أُنشب أظافري في حبالها وأحاول تمزيقها، أسقط وتتهشّم أسناني. أرى في العتمة هيكلًا عظميًّا، أراه جامدًا، فجأةً يتحرّك وينهض واقفًا، لا أصدّق أنّه هيكل أبي، صوت أبي لا يتغيّر، ولا يرتبك: «لا تبكِ يا سعد»، يقول أبي ثمّ يفتح لي ذراعيه. أسير باتّجاهه فتخرج الأفاعي والثعابين من تلك الحفر والثّقوب، تتلوّى أمامي وتُخرج من أفواهها ما يشبه النّمل الأحمر، يهيج النّمل على التّراب ثمّ يهجم عليّ وحين أحدّق في العتمة من جديد لا أرى أبي.

أحاول أن أخرج من العتمة، أقفز بكلّ طاقتي وأتمكّن من الخروج، يخرج رأسي أوّلاً ثمّ جذعي ثمّ رجلاي. أركض نحو توتة إبراهيم، أنبش التّراب باحثًا عن كنزي، أنبش مثل كلب، ينزّ الدم من أظافري ولا أشعر بألم. يسيل الدم داخل الحفرة ويهاجمني بغتة ذاك النّمل الأحمر نفسه، نمل ضخم وبلا ملامح، ينفث جيشُه ما يشبه الدم من العيون الواسعة ثمّ يحاول الإمساك بي.

عندما أستفيق لا أصرخ، ولا أحسّ أيضًا أنّي كنت في جحيم كابوس، فقط أردّد في سرّي: «هل أنا رجل خطِر؟» يداهمني هذا الإحساس منذ كنت طفلًا، منذ ذلك الوقت وأنا أحسّ بفداحة ما، بخوف ما، بخطر ما، لذلك كنت أخاف الله. وفي ليال كثيرة كنت لا أنام، أبقى فزِعًا في انتظار أن يأتيني الله، يأتيني من السّماء، في وقت ما، في وقت مباغت. وفي اللّيالي التي أنام فيها يأتيني الله في ذلك البياض العظيم فأنهض فزِعًا، أنهض مذعورًا، أحاول أن أختبئ تحت السّرير، وراء الباب، في غرفة نوم أبي، وكان ذلك، في اعتقادي يريحني قليلًا.

كبرت ولم أجد الله في أيّ مكان، لم أجده لا في السّماء ولا في البحر ولا في وادي الدّرب ولا في الطّرقات. وكان ذلك يشقيني، كنتُ كمن يتخبّط في الوحل، أضحك وأبكي، أقف وأمشي. وفجأة، عرفت الله، عرفته أخيرًا ولم أَخَفْ منه ولم أنهض من نومي مصعوقًا.

عرفت الله في داخلي حين عرفت نفسي، وعرفت نفسي حين أحببت هيلين. لم أجد الله في أيّ مكان، وجدته يجتاحني ويسكنني في رأسي وفي قلبي وفي صدري. الحبّ جعلني أرى الله وأحسّ بذلك الإحساس العظيم، إحساس أن يكون الله في باطني، بذاك النّور، وبذاك الامتلاء.

منذ أيّام لم أكتب شيئًا، ولا أدري لماذا توقّفتُ عن الكتابة، ربّما ظننت أنّ أيّام السّعادة لا تُكتب ولا تُوثّق. هكذا أنا، لا تنفتح شهيّتي للكتابة إلّا في وضعيّات الحزن، وأنا الآن في تمام المحرقة. الحزن العاوي لا أحد جرّبه مثلي، ولا أحد تشوّه مثلما تشوّهت. في

اللّيالي التي سجّلتُ فيها يوميّاتي كنت أعود إلى الذّات، أعود إليها لترميمها، أحببت أن تكون تلك التّسجيلات شاهدة على كلّ ما جرى، بلا تضخيم أو مبالغة أو خجل كنت أكتب كلّ شيء. والآن، بعد أن داهمتني النّيران وأحرقتني تعود إليّ الرغبة في الكتابة. وما سأكتبه، لا ريب، سأكتبه بدمي، بكلّ شجاعة سأسجّل اعترافاتي، أكره الجبن، ولا أحتمله بالفعل. سأكتب كلّ ما حصل ولو بشكل متأخّر، سأحاول ما أمكن ألّا أنسى شيئًا، أعرف أنّ الأمر شاقّ، لا أدري، كيف سأتحمّل، لا أدري.

وفي كلّ الأحوال، أحبّ وبمنتهى الصّدق أن يواجهني النّاس بعد أن يقرؤوا ما جرى يوم 15 ديسمبر، أحبّ لعناتهم إن شاؤوا، أو سبابهم أو صفعاتهم. لن أكون متضايقًا من شيء، فأنا لم أعد أحتفظ بإحساسي القديم، أنا في تمام التخشّب، جامد، بلا وجه، وبلا عينين. وفي مقابل ذلك، إن صدّقني البعض لا أحبّ نظرات الشّفقة، لا أحبّ ذلك الإحساس المهين. سأكتب من أجل هيلين ومن أجل لارا، وقد يرى البعض في ما سأكتبه خيالًا محضًا، لا أكثر، ولكنّي لن أكذب ولن أقدّم شهادة زور. ما سأكتبه، هكذا أعتقد، سيجعل إحساسي أعمق بالله، وسأطمئنّ دومًا لأنّ الله يسكنني. وربّما، لست أدري، سأستعيد وجهي وعينيّ وصوتي، وأجنحتي؟ هل أنا قادر على استعادة أجنحتي؟ أجنحتي بالفعل تطايرت مع الغبار والغربان في ذلك اليوم المشؤوم.

(13)

حمّام الذّهب

15 ديسمبر 2010

عدنا، أنا وهيلين إلى «حمّام الذّهب» بشكل مبكّر، في السّاعة الخامسة صباحًا، في ما أعتقد، لم أدقّق في التّوقيت حين غادرنا الشقّة. خيّرنا أن نترجّل من شارع مارسيليا نحو نهج روما، انعطفنا بعد ذلك إلى «صبّاط الدّزيري» حتّى أدركنا باب سويقة. في مدخل «صبّاط الدّزيري» لمحتُ صالح، كان كعادته يقود عربته، ولكنّها هذه المرّة عربة أخرى ومختلفة. نعيمة لا تمزح، ومن الواضح أنّها انقضّت عليه كنسر جائع. كانت هيلين تحثّ الخطى بجانبي، ترفع رأسها وتمشي بثبات، تعرف الطّريق مثلما أعرفه، إنّها في «حيّ الحارة»، حارة الأجداد كما تقول عنها دومًا. لزمتُ الصّمت وأنا ألحظ استغراقها في التّفكير، هذا يومي الحاسم، يقول رأسُها، يوم إليف وكلّ الأهل.

عندما وصلنا إلى الحمّام وجدنا الباب مواربًا وعرفنا أنّ جوهر استفاق، أغلقنا الباب بإحكام ثمّ سرنا نحو قاعة الاستقبال. وجدنا جوهر ينتظرنا في الدّاخل، مثلما اتّفقنا، أمضى ليلته في الحمّام، وفي الحقيقة لم ينم طويلًا، فآثار الإرهاق كانت بادية على وجهه. نحن أيضًا لم ننم بشكل جيّد، في يومنا الأوّل بالحمّام اضطررنا إلى العودة

في ساعة متأخّرة، وكانت هيلين في منتهى الإجهاد، استحممنا على عجل ولم تكن لنا شهيّة للأكل. رتّبت لارا طاولة العشاء لنا، ولكنّنا لم نستطع أن نقاوم النّعاس، لمحناها نائمة في الصّالون، نامت دون تغيير ملابسها. أظنّ أنّها انتظرتنا طويلًا إلى أن داهمها النّعاس على الكنبة، لم أنس أن أقبّلها، قبلتي الأولى في يوم عيد ميلادها كانت قبلة خفيفة، تجنّبت بطبيعة الحال أن تستفيق ملاكي، لن تغفو من جديد بعد ذلك، وأعرف أنّها لن تتركني.. «هل توصّلتم إلى شيء، ولماذا تصرّ هيلين على ألّا أذهب إلى «حمّام الذّهب»؟ المغامرة مثيرة وأحبّ أن أكون معكما، كم أنتما قاسيان، أنا مستاءة، مستاءة منكما كثيرًا يا سعد».. ستقول لي ذلك وأكثر ثمّ تجرجرني إلى كلّ التّفاصيل، ستشعل لي سيجارة وترتمي في حضني وتستعدّ لسماعي. لم يكن من المفيد أن ترافقنا، هيلين ألحّت على ذلك، «إنّي أحتاج إلى التّركيز يا لارا»، هكذا حسمت الأمر. ثمّ إنّ لارا لا بدّ أن تستعدّ للاحتفال بعيد ميلادها، اتّفقنا أن يكون احتفالنا بهذه المناسبة مختلفًا هذه السّنة. فكّرنا في كلّ شيء، في الأكل واللّباس والهدايا، وفكّرنا، أنا وهيلين، أن نتفرّغ للارا بعد إنهاء مهمّتنا في الحمّام، لا بّد أن تسعد قطّتنا الصّغيرة كأحلى ما يكون، تلك كانت خطّطنا.

اكتشفتُ جوهر في هذه الفترة، لم أكن أعرفه بالشكل الكافي، وربّما أحسستُ بالذّنب لأنّي كنت متصلّبًا معه، وكنت أعامله بكثير من القسوة. استقبَلنا في شقّته يَومين كاملين، وكان خدومًا وفي منتهى الكرم. طبعًا، لا أنسى أنّ هيلين فكّرت في أنّ شقّة جوهر هي الأنسب لوضع اللّمسات الأخيرة لمخطّطها الذي أعدّت

تفاصيله منذ أشهر. استعرضت أمامنا صورًا دقيقة لكلّ مكوّنات «حمّام الذّهب»، وأحضرت خريطة مُفصّلة تسلّمتها من إليف قبل أن يرحل. من الغريب أنّها كانت تعرف كلّ ركن في الحمّام وبدقّة لافتة، كان تفكيرها منشغلًا أكثر ببيت السّخون، ذلك المكان كان مجال اهتمامنا، كيف يمكن أن نصل إلى الدّفينة في عمق أربعة أمتار؟ الوضعيّة كانت دقيقة جدًّا.

المسألة الأخرى التي أثارت دهشتي، بل أذهلتني بالفعل أنّ اهتمام هيلين لم يكن مرتبطًا بالمجوهرات، لم يكن ذلك بالأمر الهامّ عندها. وفي الحقيقة، المجوهرات ستقود إلى ما هو أهمّ، وستكشف عن الكنز الحقيقيّ الذي تبحث عنه. لم تفصح عن ذلك إلّا في شقّة جوهر، أي في لحظات التّخطيط الأخيرة. لا أخفي أنّنا، أنا وجوهر، اندهشنا ولم نصدّق بالفعل. «وماذا نفعل بالذّهب إن عثرنا عليه؟»، سأل جوهر.

تطلّعت إليه هيلين ثمّ قالت:

- أمّا المجوهرات إن صدقت الخريطة طبعًا فستكون من نصيبك يا «جوهر»، ولك الحريّة في أن تقتسمها مع خافا، أليست خافا حبيبتك يا أوري؟

استطاع جوهر أن يُقنع صاحب الحمّام بكراء المحلّ لمدّة ثلاثة أيّام، مع إخلائه بالكامل، قدّمَتْ له هيلين عرضًا مغريًا، ولم ينسَ جوهر أن يُسلّم رشاد أجرة ثلاثة أيّام، هكذا تمّت الأمور. والحمّام في نهاية الأمر سيكون على ذمّة عائلة ولا يجوز أن يوجد الغرباء طيلة تلك المدّة. المسألة لم تكن مستعصية كما خمّنت. في العادة لا تتجاوز مدّة

كراء الحمّام اليوم الواحد، مع وجود أعوانه، ولكن أمام المال لا شيء يبقى مستحيلًا، تسقط كلّ المفاهيم والعادات. ثلاثة أيّام كانت كافية لإنجاز المهمّة على أحسن ما يُرام، كافية لإيقاف تدفّق المياه في أنظمة الأنابيب وإزالة الحوض ثمّ الحفر بدقّة وحرفيّة. العنصر الذي مثّل هاجسًا هو حكاية السبّاك، فكّرنا في الأمر طويلًا، لا بدّ من العثور على سبّاك ماهر، والأهمّ أن يكون رجلًا نثق فيه، ولا يبتزّنا أيضًا. شغلني هذا الموضوع بالفعل، وبعد تفكير وجدت الحلّ عند صلاح، أكّد لي أنّ أنور رفيق طفولته ويستطيع أن يقوم بالمهمّة على أحسن وجه. ومن حسن الحظّ أنّه عاد هذه الأيام من إيطاليا، «يعمل في شركة كبرى وهو كتوم، اطمئنّ يا سعد»، قال صلاح وهو يُنهي صداعي.

في هذه الأيّام كان عليّ أن أعود إلى شقّتي في «صبّاط الدّزيري»، عودتي كانت ضروريّة من أجل وثائقي الخاصّة وبعض الكتب الأثيرة لديّ، ومن أجل توديع هاجر. من غير المناسب ألّا أعلمها بالمستجدّات الأخيرة، كنت أعرف أنّها ستتلقّى الخبر بشكل صادم، ولن تصدّق أنّي أغادرها نهائيًّا. بالفعل، لم أكن مرتاح البال، لن يكون من اللّائق أن أخفي عنها زواجي، هي تعرف قصّتي مع هيلين، وعندما تعلم بزوجنا مؤخّرًا، فإنّ موقفها سيصبح مختلفًا دون شكّ. يوم عرفت الحقيقة التي أخفتها عنّي هيلين بكت طويلًا على صدري مثلما بكيت أنا، ولا أدري ما إذا كانت سعيدة بالخبر أم حزينة. أصرّت على أن تعيد إليّ الأموال التي أودعتُها عندها، «أنت تحتاج إلى مصاريف، ولا تنس، أنت أب الآن يا سعد ولا بدّ أن تُسعد ابنتك»، قالت هاجر ودموعها لا تتوقّف.

طيلة أيّام اختفائي عن «صبّاط الدّزيري» ظلّت تتّصل بي على الهاتف، وكنت مضطرًّا إلى عدم الردّ على مكالماتها، بل إنّي كنت أتعمّد إغلاق هاتفي وكان ذلك يؤلمني. أتخيّل ردّة فعل هاجر وهي غاضبة، وهي تشتمني، وهي تبكي وتتلوّى على الفراش. لا بدّ من مصارحتها، وأنا حقًّا لا أحبّ المماطلة.

التقيت بنسيمة في الدّرج، ابتسمت لي ثمّ حرّكت لسانها وقالت:

-كنّا نعرف أنّ المستودع يخفي مصيبة، الشّرطة جاءت تبحث عن جثّة، وفوجئنا نحن بالبضائع داخله.. بضائع ثمينة احتجزها «الحاكم».. نعيمة داهية تشتغل مع عصابة ونحن لا نعلم.

قابلت هاجر في الشقّة للمرّة الأخيرة، ولم أخطئ الظنّ، كان وجهُها شاحبًا، لم تبتسم في وجهي مثل عادتها، وبعد أن علمت بقراري لم تقدر على تصديقي، ثمّ أحسستُ بها تتجمّد أمامي، خفضت عينيها واسودّ وجهها. هل كنت على درجة كبيرة من القسوة؟ هل كنتُ فظًّا؟ أحببتُ في تلك الدّقائق المؤلمة أن أقنع هاجر بأنّها لا بدّ أن تخرج من الوهم. الوهم عندما يطول يصبح قاتلًا، ونحن لا يمكن إلّا أن نعيش في الوهم، في أورامه الواهنة، لا أفق لنا أيضًا، لا أفق. هي تحتاج إلى رجل حقيقيّ في حياتها لا إلى ذكر ينام معها في السّرير، أعرف أنّي لم أكن معها ذكرًا فحسب، وذلك لا يكفي، لا بدّ من ارتباط يعلم به الجميع، ارتباط لا يُهينها، بالفعل، لا أحبّ أن تكون هاجر لحمًا رخيصًا. لا أنسى، هي أنقذتني في أيّامي الحالكة، أيّام التّيه، ولم ينتشلني غيرها. بلقيس أيضًا بدأت تكبر

وتفهم، ولا أحبّ أن تكبر على حقيقة مروّعة، سيردّدون يومًا على مسمعها في الوكالة أنّ أمّها عشيقةٌ لرجل غريب، أنا متأكّد من ذلك.

لزمت هاجر الصّمت طويلاً ثمّ قالت بارتعاش:

- لا أحتمل يا سعد، لا أحتمل أن تغادر الشقّة نهائيًّا، أَبْقِ المفتاح عندك وعُد متى تشاء. لا أنكر أنّي متوجّسة، بل كنت أنتظر هذا اليوم، كنت خائفة يا سعد. والآن، كيف أصدّق أنّك سترحل عنّي؟ أنت لا تعلم كيف تعلّقت بك بلقيس، سألتني طيلة الأيّام التي غبت فيها، سألتني عنك يا سعد، قالت لي بانفعال: «أين بابا سعد يا ماما؟ لماذا لم يعد يسكن بجوارنا؟»

أغمضت هاجر عينيها للحظات، ربّما كانت تتذكّر، وربّما كانت تتألّم، تلك الآونة كانت شاقّة وعصيبة. أحسست بنفسي أتدحرج وأذوي، وكان عليّ أن أستبدل قلبي الذي عشق هاجر بقلب آخر، قلب جامد، من حديد صدئ. تركت حضن هاجر بكثير من الرّعونة، وتركت دموع بلقيس بكثير من الحزن. وحين غادرت الوكالة كان الصّمت شبحًا مخيّمًا على كلّ النّوافذ والأبواب. الوجوه تتطلّع إليّ باندهاش وأنا أبكي، وربّما اعترضتني نعيمة، وربّما صالح، لم أنظر إلى أحد، ولم أكلّم أحدًا مثل رجل على أهبة أن يفقد عقله. كنت مدركًا تمام الإدراك، وأنا أمشي بتثاقل، أنّي أفرّط بالفعل في قطعةٍ منّي، وعليّ أن أتعايش مع إعاقتي تلك.

سرنا باتّجاه بيت السّخون بعد أن غيّرنا ملابسنا، ارتدت هيلين قميصًا صوفيًّا وسروال جينز وحذاءً رياضيًّا، أحبّت أن تكون على

أتمّ الاستعداد للمساعدة. أمّا أنا فحافظتُ على زيّ الحفر الاعتياديّ، سترة بلاستيكيّة مع الخوذة. فقد أصرّت هيلين على ضرورة اقتنائي للخوذة كشكل احتياطيّ من انهيارات الجوانب أو تهاوي بعض الأحجار أو الأجسام الصّلبة. وفي الحقيقة، كانت هيلين محقّة في ذلك، وعلى خلاف حفرة الشقّة السّفلى في الوكالة، اكتشفتُ طبقةً رمليّةً متحجّرة عند شروعي في الحفر.

ما أنجزناه في اليوم الأوّل فاق كلّ توقّعاتنا، الأمر تطلّب كثيرًا من الجهد والصّبر، وهذا منتظر بحكم تعقّد الوضعيّة وبالخصوص في الشّكل البدائيّ المعقّد لقنوات تصريف المياه وأنابيب توصيل الماء السّاخن والبارد. ومن الواضح أنّ الشبكة أُنجزت منذ سنوات طويلة ولم يقع تجديدها، مع وجود تسرّب فادحٍ للمياه لم يتفطّنوا إليه.

كان رفيق عارفًا بكلّ شيء، زوّده صلاح بالتّفاصيل، جلب معه آلة لقصّ الرّخام وكامل المعدّات اللّازمة. أحسستُ وأنا أتابع انهماكه أنّه يتصارع مع كبّة صوف مخبّلة، لا أوّل لها ولا آخر، بحكم أعمال الصّيانة التي تواترت لمئات السّنوات، وعمليّات الصّيانة أُنجزت كما قال بلامبالاة. كانت عمليّة إزالة الحوض أصعب مرحلة، لأنّه يُفترض أن يبقى سليمًا لنتمكّن من إعادته بعد انتهاء العمليّة، ورفيق استطاع أن ينتزعه بمهارة، قال وهو ينهي مهمّته:

- من حسن الحظّ أنّهم لم يثبّتوا الحوض بالإسمنت وإلّا لكانت عمليّة إزاحته مستحيلة. وأعتقد أنّهم فعلوا ذلك عن دراية، كانوا يفكّرون في الشّبكة أسفله.

المرحلة الموالية لم تكن سهلة كما انتظرت، لا سيّما في ما يتعلّق بإيقاف تدفّق المياه، فالأمر يتطلّب قطع الأنابيب بحِرَفيّةٍ وأعصابٍ من حديد. بعد ذلك كان علينا أن نتجنّب المساس بقنوات تصريف المياه، وفكّرنا أن نتجنّبها ما أمكن عند عمليّة الحفر. أنهى رفيق مهمّته الأخيرة في حالة إرهاق خيّمت على قسمات وجهه، ومع هذا حافظ على خفّة روحه. أثناء مغامرته معنا لم يتوقّف عن سرد ذكرياته مع صلاح. روى لنا كيف أنقذه ذات يوم من الغرق في البحر، رفيق لا يحسن السّباحة ولا صلاح أيضًا، رفيق جنّ جنونه وهو يبحلق في وجه إحدى الفتيات، كانت تبادله النّظرات وتلوّح له بيدها، لم يفطن إلى نفسه وهو تعمّق في البحر، كان يسبح ببلاهة، وبلا عقل، وبطبيعة الحال بدأ يخبّط بيديه على الماء ويوشك على الغرق. وفي تلك اللّحظات وبقدرة خارقة انتشله صلاح، وهو لا يصدّق أنّه يملك موهبة فطريّة في السباحة، وربّما فعل ذلك بسبب الخوف من موت صديقه المحقّق. تلك المرأة التي كادت تكون سببًا في موتي، يقول رفيق، هي الآن زوجتي، بعد تلك الحادثة أمكن لي أن أواصل المغامرة وأتبعها إلى منزلهم صحبة صلاح ثمّ حدث ما حدث وتزوّجنا.

أثناء شروعي في الحفر مَثّلَت الطّبقة الرمليّة المتحجّرة عقبةً أولى، وكنت أنتظر عقبات كثيرة. المعادلة كانت صعبة، كيف يمكن أن أتجاوزها دون أن أثير ضجيجًا و«بيت السّخون» ملاصقٌ لميضة جامع سيدي محرز؟ ومن حظّنا أنّ الوقت كان صباحًا. حاولت ما أمكن أن أتخلّص منها على مساحة متر مربّع قبل صلاة الظّهر. لو أدركنا أذان الظّهر، قلت في نفسي، فإنّنا سنتوقّف عن الحفر، ففي ذلك الوقت

وبعده لن ينقطع النّاس عن الوجود في الميضة وسيُفتَضح أمرنا. استطعتُ بجهدٍ كبير أن أتجاوز الطّبقة التي بدت لي كابوسًا، حرصتُ بعد ذلك على وضع الأحجار في محيط الفتحة حتّى أتجنّب في مرحلة موالية تساقط الرّمال. هيلين كانت تتابعني باندهاش، تشهق أحيانًا، أو تضحك، تناولني قارورة ماء ولا تنسى أن تمسح العرق من جبيني بمنديل أبيض. أمّا جوهر فقد كان يساعدني على تحريك الأحجار ثمّ على إخراجها، تعرّق وجهُه ولم يتخلّ عن معطفه الأسود، أنا نفسي لا أتذكّر أنّي رأيت جوهر دون ذلك المعطف. كان بكامل دقّته وعنايته يتابع حركاتي ويتأهّب لمساعدتي، لامستُ بالفعل طيبته ورباطة جأشه، وهو لا ينسى في الكثير من المرّات أن ينبّه هيلين إلى تجنّب الاقتراب من الفتحة، كان يخشى سقوط إحدى الأحجار في لحظة سهو. وهيلين هي البنت التي لم ينجبها، لم أتصوّر حقًّا أن يحبّها بذلك الشّكل، فاجأها حينما قدّم لها صورة قديمة لوالدها وهو شابّ. لم تنتظر أن تتسلّم يومًا مثل تلك الهديّة، كانت شبيهة بمعجزة، معجزة أن يعرف ذلك الزّمن التّصوير الفوتوغرافيّ، وكان إليف يضحك في الصّورة وهو ملاصق لأحد الجدران في سوق القرانة.

أصبح الحفر بعد ذلك سهلًا، ظهر الرّمل الرّخو تحت قدميّ، تحسّست الرّمل، كان ناعمًا، وكلّما حفرت تغيّرت ألوانه، أصفر ثمّ أحمر ثمّ داكن. لم أكن في حاجة بالفعل إلى معول، اعتمدت على المجرفة اليدويّة لرفع الرّمل وتسوية الجوانب، ولم تساورني المخاوف مثلما حدث معي في الشقّة السّفلى. من الثّابت، هكذا خمّنتُ، أنّه وقع حفر هذا المكان سابقًا بحكم وجود طبقات رمليّة متحجّرة في

الجوانب، وكان اعتقادي جازمًا بأنّ عمليّة الحفر قديمة جدًّا، وربّما تمّ ذلك قبل بناء الحمّام. الأهمّ من هذا أنّي كنت صافي الذّهن وأنا أتابع وضع الرّمل في السّطل، وكلّما تعمّقتُ كنت أحرص على التّخفيف من حمولة السّطل حتّى يتمكّن جوهر من رفعه، فأنا أعرف أنّ سنّه لا تسمح له ببذل جهد كبير. وبين فينة وأخرى توجّه هيلين هاتفها الجوّال نحو الفتحة، ضبطت الجهاز على ما أعتقد وشغّلت برنامج البحث عن الذّهب، كانت تنتظر الإشارات، تنتظر بعصبيّة أن يعلن الجهاز عن وجود جسد صلب. لمّا تجاوزت عمق مترين فضّلت أن أتوقّف عن الحفر، لم يكن من الممكن أن أجازف، كنت على وشك الاختناق، جوهر أيضًا لم يكن باستطاعته أن يصمد أكثر.

وقبل أن أنزل في الفتحة لاستئناف الحفر بقيت في «البيت الباردة» لترشّف القهوة ومتابعة هيلين وهي تشعل الشّموع في كلّ الزّوايا. بدأت بالمَطاهر الثّلاث بالقرب منّي، ثمّ مرّت إلى المطاهر الموجودة في المدخل، مرّت أيضًا إلى «بيت السّخون». تناولت بعد ذلك المبخرة من يد جوهر وانغمست في جولتها بكامل رشاقتها وخفّتها، كنت أتابعها بلهفةٍ وأنا أترشّف من فنجان القهوة. تبادلنا النّظرات دون أن نتكلّم، كانت تطوف بالمبخرة كأنّها مستغرقة في طقس روحيّ مقدّس.

وضعت هيلين المبخرة بجانبي ثمّ قالت:

- الدّفين اليهوديّ في التّراب، يا سعد، يبدأ عمقه في الغالب من مستوى أربعة أمتار.

قلت وأنا أستعدّ للوقوف:

– هذا جيّد، أمامنا الآن أقلّ من مترين لنستقبل الأخبار السّارة.

حضنتني هيلين مشرقة:

– على هذا الهاتف الجوّال أن يخرج من صمته.

ترشّفت من الفنجان ثمّ تابعت:

– ومع ذلك لا أحبّ المجازفة يا سعد، لا أحبّ أن أكون قلقة عليك. أعرف أنّك تشقى من أجلي ومن أجل حلمي، غير أنّي أخشى عليك من الخطر في الأسفل. عليك أن تكون واثقًا من كلّ شيء ولا تتهوّر يا حبيبي. لا تتهوّر من أجلي ومن أجل لارا، فبَعْدَ عمق أكثر من مترين يصبح التنفّس صعبًا...

قاطعتها ضاحكًا وأنا أربط حزامي بالحبل:

– لا تخافي على صيّاد الكنوز يا حبيبتي.

استأنفت الحفر وكنت بين لحظة وأخرى أتنفّس بعمق، انقبض داخلي لمّا ظهرت حجرةٌ تحت قدمي، خشيت أن تعترضني طبقة صخريّة، سيكون الأمر شاقًّا في تلك الوضعيّة. تناولت الفأس، وحاولت تحريك الحجرة. لو تحرّكت، قلت في نفسي، فإنّ الأمر يتعلّق بوجود حجرة مندسّة في الرّمل. استطعت أن أحرّك الحجرة بيديّ أخيرًا، كان بوسعي أن أهشّمها أيضًا. وأنا أفعل ذلك توقّفت عند نقيشة في سطحها، تأمّلت النّقيشة فرأيت ما يشبه حمامةً فاتحةً جناحيها. تأكّد لي في تلك اللّحظات أنّي بدأت أقترب من الصّندوق

الحديديّ الذي أشارت إليه هيلين. بعد ذلك اشتممت رائحة شيء محروق، ثمّ بدأت الرّائحة تثخن، وأحسست بتنفّسي يثقل، تجرّعت من قارورة الماء وواصلت، وكان من الضّروري أن أتحمّل تلك الرّائحة التي اقتحمتني. أذكر أوّل مرّة نزلت فيها إلى بئر، كانت ذكرى مؤلمة، لكنّها مثيرة، لم أكن أعرف الآبار، أبي يومها كان يشكو من زكام حادٍّ، واضطرّ إلى الاستعانة بي. عثر بالقرب من البئر على صخرة نُقشت فيها آثار قدم أسد، وعرف أنّ بالبئر كنزًا. كان البئر تقريبًا على عمق ستّة أمتار، ربط حزامي بالحبل ثمّ أنزلني، داهمني إحساس بالخوف يومها وأنا أنبش التّراب بيديّ، كنت أخشى أن تداهمني إحدى الأفاعي. توتّرتُ وتخبّطتْ يدايا في التّراب والحجر واستطعت في الأخير أن أعثر على جرّة مملوءة بمعادن ذهبيّة صغيرة ومستديرة. أمسكت بالجرّة وأنا ألهث، لم أصدّق أنّي عثرت على كنز، وعندما رفع أبي الجرّة تهاوت إحدى الشّظايا وأصابت رأسي في مستوى الجبين. في اللّحظة التي رفعت فيها رأسي داهمتني الشظيّة، وأحسست بصاعقة تنزل على جبيني، نزّ دمي من الجرح وسال على وجهي وعنقي. خيّل إليّ في تلك الدّقائق أنّي فقدتُ بصري، لم أعد أرى شيئًا، لكنّي أمسكت بالحبل واختفى أمامي كلّ شيء. كنت أحسّ بنفسي أطير نحو الأعلى، أطير بلا جناح، انتشلني أبي بمشقّة واحتضنني. استطعت بعد ذلك أن أرى وجه أبي مكسوًّا بدمي، ارتعشت في حضنه وفقدت الوعي، وربّما اعتقد أبي أنّي متّ، ولم أمت. قال لي الطّبيب اليوغسلافيّ يومها : «لقد نجوت بمعجزة، لو لم ترفع رأسك في لحظة خاطفة لمتّ أيّها الشقيّ».

تحسّست بقدمي شيئًا صلبًا، أزلتُ عنه الرّمل واستخرجت شكل سمكة من زجاج، وفي تلك الآونة استمعتُ إلى إشارات في أعلى الفتحة، تعالت الإشارات أكثر فأكثر وصاحت هيلين: «رائع، لقد نجحنا». تطاير شعرها داخل الفتحة، أنعشتني عيناها، نفخ ذاك البريق السّاحر في صورتي وأعاد إليّ أنفاسي. وجه هيلين كان يظهر ويختفي، تلاشى الانقباض في داخلي، كم هو عجيب هذا الحبّ! منحني طمأنينة غريبة داخل متاهة، لم يعد عنقي يؤلمني أيضًا، وربّما تخدّرتُ في الأثناء. تواصل رفع الرّمل بعد ذلك وتحسّستْ قدماي من جديد جسدًا صلبًا، تهيّجتُ وأنا أنبش بيديّ، هاج العرق في كامل جسدي، سحبتُ جرّةً صغيرة، أزلتُ عنها الرّمل بأصابع مرتعشة، واستخرجتُ من الجرّة قطعًا صغيرة من الذّهب، لمع الذّهب في كفّي، تسرّبت أصابعي إلى الجوف من جديد واستخرجتُ قطعًا أخرى. أتاحت الجرّة لي رؤية سطح صندوق حديديّ، شكله شبيه بما وصفته هيلين. احتجت إلى الفأس لتحريكه، تحرّك الصّندوق، وكان لا بدّ أن أرفع مزيدًا من الرّمل، بعد ذلك ظهر الصّندوق بأكمله، لم يكن به قفل، تنفّست بعمق وأنا أفتحه. ما طالعني داخل الصّندوق فاق الخيال، بل فاق السّحر. تطلّعتُ إلى العُلب اللّوحيّة المزركشة، ثلاث عُلبٍ كانت مرصّفةً بعنايةٍ داخل الصّندوق الصّدئ. تناولت علبة وأمكن لي فتحها بيسر، استخرجت ورقة برديّة تضمّنت مخطوطا أثريّا كُتب باللّغة العبريّة وبخطّ اليد. قالت هيلين في الأعلى: «رائع، رائع يا حبيبي. هل وجدت ثلاث علب لوحيّة؟ كلّ علبة بها مخطوط أثريّ لكتاب التّوراة. إنّه كنزنا يا سعد، كنزٌ لا يُقدّر بكلّ كنوز الدّنيا»

رفعت عينيّ باتّجاه هيلين، فتخيّلتُ العالم، كلّ العالم يرقص في عينيها، أرسلَتْ لي قبلة في الهواء وتابعَت: «الآن أدركنا الحجرة المباركة، حاول أن تتحسّسها بيديك يا سعد، حسب الخريطة هي بجانب الصّندوق».

وبالفعل، سرعان ما تفطّنتُ إلى الحجرة التي أشارت إليها هيلين، حجرة ضخمة ومنقوشة، ظهرت عليها آثار الرّطوبة والسّنين. أزحت التّراب عن سطحها الرّخامي، بعض البقع التّرابيّة متكلّسة، تناولت قارورة الماء بجانبي وسكبت قطرات على تلك البقع ثمّ مرّرت كفّي على كامل السّطح الأملس، ظهرت لي الحروف والأشكال المنقوشة أخيرًا ، الحروف باللّغة العبريّة ترسم ما يشبه الشّجرة بجذعها وأغصانها.

في تلك اللّحظة صاحت هيلين من جديد، وصلتني صيحتُها مدوّية: «أرجوك، أرجوك يا سعد، ألا تسمعني؟.. دعني ألمس حجرتنا المباركة، أحبّ أن أشتمّ تلك الرّائحة في الأسفل.. طبعًا أنت لن تقدر على إخراج الحجرة ولا زحزحتها حتّى، سأكتفي بلمسها وتقبيلها.. أجل، أجل يا حبيبي ولابدّ من أن ألتقط صورًا لها.. تلك الحروف والأشكال هي شجرة العائلة، تاريخنا يا سعد».

طفقت تشير بيديها وتبتسم لي وتلحّ في الطّلب، شعرها يتماوج ويتطاير كأنّه يتلهّف هو الآخر على اكتشاف القاع. رفضت بالطّبع أن تنزل إلى الحفرة، هيلين مجنونة، لم يكن من المعقول أن أوافقها على هذا الخبل، جوهر أيضًا كان معترضًا على فكرتها المباغتة، «هذا

تهوّر»، قال لها. وصلني نشيجها: «لماذا تمنعني من لمس حجرتنا المباركة وتقبيلها؟ وأنت يا جوهر، لماذا تصدّني عن حلمي وحلم إليف؟ لماذا؟ لماذا؟».

الآن، لابدّ أن أسأل نفسي بكامل الحدّة والإدانة: كيف وافقتُ على طلب هيلين، وكيف انحنيتُ لجنونها في لحظة مزدحمة؟

كانت تلك الحماقةُ حماقةَ العمر التي ذبحتني.

في لحظة مجهولة، صعدتُ إلى أعلى الفتحة ومعي العلب اللّوحيّة، تسلّمتها منّى هيلين، حضنَتْها بحُرقةٍ كأنّها تُقبّل والدها إليف، تشمّمَتْ كلّ علبةٍ على حدة ثمّ سلّمتها إلى جوهر. بعد ذلك سمحتُ لهيلين بالنّزول، وقد كان جوهر متوتّرًا مثلي وأنا أربط حزامها بالحبل، ألبستُها الخوذة بمشقّة، تركتُ شعرها خارج الخوذة، ولم يكن من الممكن أن أحشره بالدّاخل، كان ذلك مستحيلاً. عانقتني هيلين وقبّلتني ثمّ أسلمت جسدها للفتحة، نزلَتْ ضاحكةً ومتحمّسة، كانت تحدّق في عينيّ بمنتهى الشّغف، وبمنتهى البهجة. وفي غفلة منها، في غفلة مريعة ارتطمت رجلها اليمنى بأحد الأنابيب، حبستُ أنفاسي إثر ذلك الارتطام، لم يحدث شيء، لكنّني تعكّرت. وما إن نزلت هيلين ولامست الحجرة حتّى انفجر الأنبوب وكانت اللّحظة المزلزلة. في ثوان مرعبة انزلقت الرّمال من كلّ جانب وارتجّت الأرض. فزعت أيدينا، أنا وجوهر لإخراج هيلين، كان لابدّ من إنقاذها، لابدّ، وكان هناك بصيص أمل. تحجرّتُ ثمّ صرختُ، سال الدّم من كفّيّ ثمّ تمزّق الحبل، انحيتُ ومددتُ كاملَ عُنقي. أمكن

لي أن أرى هيلين لآخر مرّة، لآخر مرّة يا إلهي، عيناها مذعورتان، مشوّشتان، الدماء تنزّ من وجهها، من ذراعيها، ومن صرخاتها، خنقتني ولوت عنقي مثل جان أحمر فأحسستُ به ينكسر. صرختْ هيلين لآخر مرّة، لآخر مرّة يا إلهي، كيف تحمّلتُ صرخاتها الأخيرة: «سعد.. لارا... شيرا....لارا يا سعد». وتلاشت مثلما تلاشيت، وربّما استمعت إلى صوت أذان ثمّ تناهت إِلَـيَّ دقّات جرس الكنيس ثمّ سمعتُ صدى ارتطام قوّي. كنت في دوّامة وأنا أرى انهيار الفتحة بالكامل، الفتحة صارت ضخمة، صارت ضاجّة، ثمّ صارت بركانًا، تهاوت الرّمال والأحجار ثمّ انتهى كلّ شيء، تعالى الغبار، وتطاير مثل غربان تخرج دفعةً واحدةً من كهف.